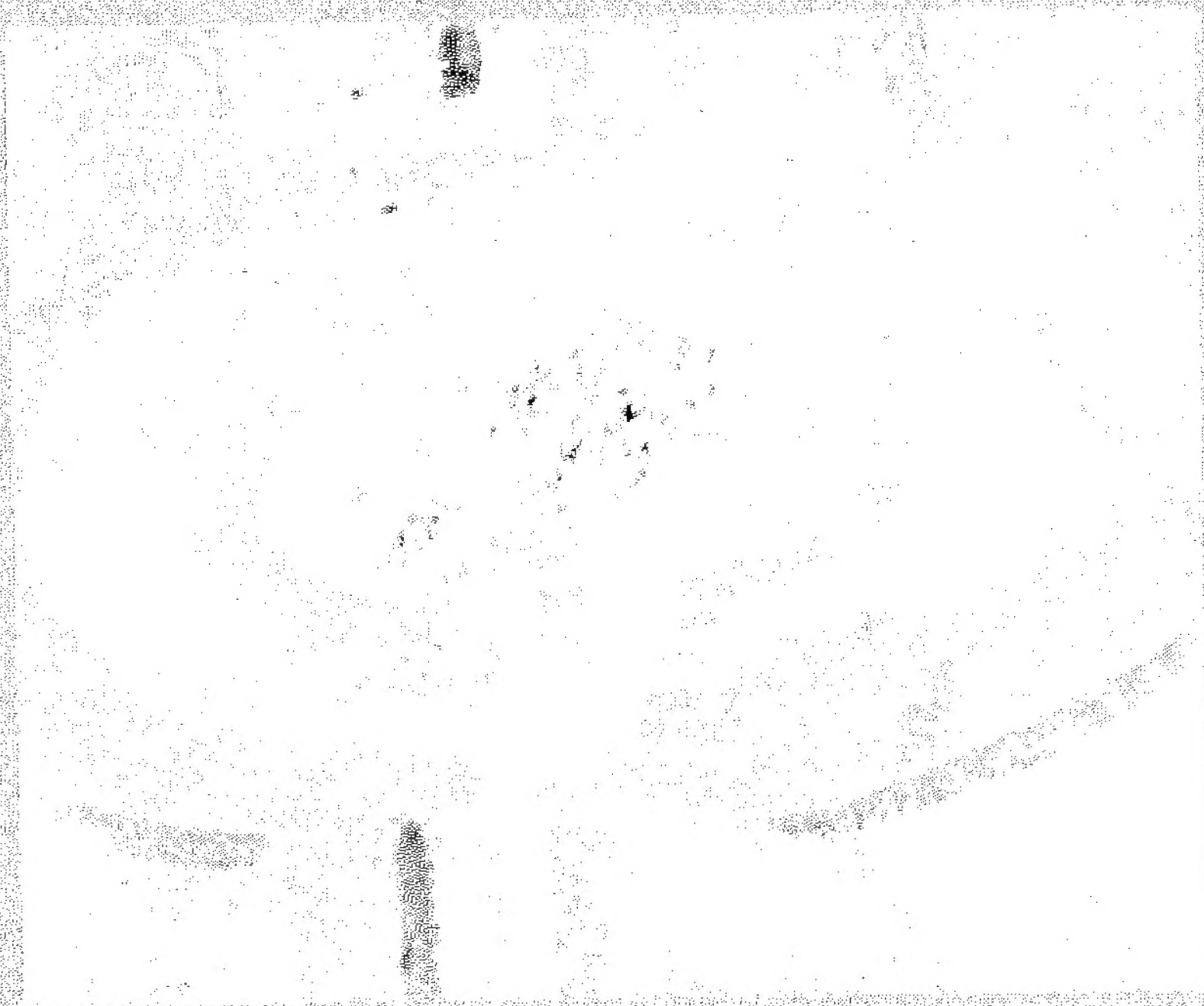


غلويا الكورنا

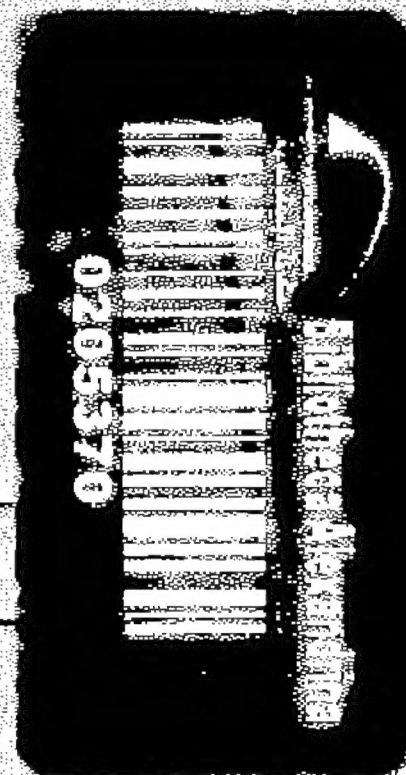
# الوسادة السوداء

مجموعة قصص



عبد الحكيم  
عبد الحكيم

دار النشر





الإشراف الفني :  
زهير الحمرو  
الخطوط :  
عبد الرزاق قصيباتي

# الوسادة السوداء

مجموعة قصص

---

روايات عالمية

٥٥

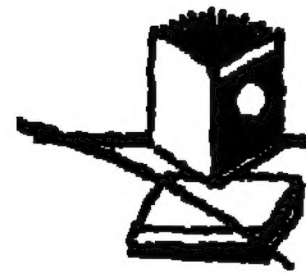


غلوريا ألكورتا

# الولاية السوداء

مجموعتنا قصص

ترجمته:  
علي باشا



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ١٩٩٥

العنوان الأصلي للكتاب :

GLORIA ALCORTA

# L'OREILLER NOIR

BERNARD GRASSET  
PARIS

1978

---

/ L'oreiller noir = الوسادة السوداء : مجموعة قصص  
غلوريا ألكورتا ؛ ترجمة علي باشا . - دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٥ . -  
١٩١ ص ؛ ٢٤ سم . - ( روايات عالمية ؛ ٥٥ ) .

١ - ٨٤٣ ؛ ل ك و ٢ - العنوان ٣ - العنوان الموازي  
٤ - ألكورتا ٥ - باشا ٦ - السلسلة

مكتبة الأسد

---

الابتاع القانوني : ع - ١٥٩٧ / ١٠ / ١٩٩٥



وسادة حمراء ، وسادة سوداء

النوم ، والثدي على جانبه

بين النجم والمربع ،

كم الأعلام الممزقة !

«رونيه شار»

امتداد حياتي مربع من الآلام

«غ.أ.»





# الزوجهاء

« لا تتحرك ، يا « فلنتان » ، ولا تبذل اي جهد » .

ركعت السيدة « بولين » على ركبتيها بجانب سرير الزوجية وأسرت في أذن الرجل الذي كان مستلقيا عليه ، قائلة : « سوف تكون سعيدين ، يا عزيزي » ثم وضعت خدها المفتى بالمساحيق على خد زوجها المندى بالعرق .

ومضت تقول : « أتذكر ، لحظة وصولنا الى فرنسا ؟ كنت ، في الميناء ، تبدو كلوحة ، بمعطفك وقيثارتك التي كنت تحملها . أما أنا فكنت نحيلة جدا » .

واسترسلت السيدة « بولين » بضحكة طويلة بينما كانت تفتح قميص نوم زوجها وتكشف عن صدره الذي تتوزع فيه شعيرات بيضاء ، ثم أخذت تجسده خلالها ، بيد خيرة .

« ان قلبك بحالة جيدة ، ولكن يجب أن نقسح المجال للدواء لكي يعمل عمله . وبعد ذلك سأساعدك على ارتداء ملابسك » .

كان شعر الفنتان يتموج على الوسادة دون نظام . وتابعت زوجته الكلام ، قائلة : « نحن أناس طيبون ، وجميع سكان الحي يحبوننا ، ليس كذلك يا فلنتان ؟ » ولكن الرجل لم يتفوه بأي جواب . كانت عيناه مغمضتين ، وفمه مطبقا . وجهته لا تخطو من سيماء الشهامة . كانت رائحة الكافور تفوح من الأغطية . وبعد صمت لم يستغرق سوى

بضعة ثوان ، انحنت السيدة « بولين » عليه وأسرت في أذنه : « اني أحبك ، يجب أن تصدقني حتى النهاية . ( كان صوتها قد فقد نبرته الخفيفة ) . وتابعت قائلة بأعلى صوتها : وبطبيعة الحال ، ما المانع من أن يحب كل منا الآخر ؟ فنحن أناس سعداء ، والسعادة فضيلة . كما قال الكاهن في القداس منذ بضعة أيام » .

وأضافت قائلة وهي تترنم بالكلمات : « عندما كان القارب يسير بنا صعودا عبر النهر ، أيام الأعياد ، كنت تحملني وتضعني على قامدة أحد التماثيل الرخامية ، هناك في جزيرة « السول » . كنت تدور بي وأنا بين ذراعيك . كنت عند ذلك أشعر بمنتهى السعادة . كذلك ، عندما كنا نخرج من حفلات الرقص ، كان يجب رؤية النساء كيف كن ينظرن اليك . لقد جن جنونهن بهذا الفرنسي الذي كان يعزف على الكمان أمام الجميع كأنه موسيقي ايطالي . وبدرت من السيدة « بولين » تنهدة نمت عنها حركة لذيذتها ، وقالت : « أعطني يديك ، هو ذاك ، هكذا . . . أنت ترى جيدا أن ذلك ليس صعبا . والآن قل لي أنك تحبني . اني بحاجة لأن تقول لي ذلك وأن أسمعه منك . لا تهز رأسك . أخشى أن يهرب قلبك من صدرك . أنت تعلم أن المرء يستعيد ذكرياته عندما يكون متعبا . »

وأمسكت يدي « فلنتان » ثانية وغطت بهما وجهها . وعندما رأت أنه ظل صامتا ، انتصبت واقفة ، وبحركة سريعة ، فتحت درج المنضدة ، وأخرجت منه أداة لامعة وأخذت تمر بها على خد المريض . وبعد عمل دقيق ، عثرت على شعرة متمردة قرب فتحة الأنف اليسرى . فأمسكت بها بين فكي الملقط الفولاذيين ، واقتلعتها .

ها قد أنجز العمل . أريدك أن تكون نظيفا عندما يراك الجيران تمر بعد قليل . أن هذه اللحى التي تشدب على الطريقة الفرنسية تبدو متميزة ولكنها أخذت تنتشر انتشار الأعشاب الضارة . ولو لم أكن هنا ، لو لم أخلّ عن مشغل الخياطة الذي كنت أملكه كي أستطيع



العناية بك ، لكنك أصبحت عجوزا بائسا قلدا . وتابعت قائلة :  
« والآن سأرتدي ملابسى ، فالجو رائع صباح هذا اليوم . لقد كتبت  
الى دونا « كلارا » والى المفوض ، لاني أريد أن يعرفا أننا فكرنا بهما  
اليوم . »

لم تفقد السيدة « بولين » مرونتها ودماثة خلقها . فنهضت وهي  
تصوف وتندندن بجملة من أغنية « في سبيل قليل من الحب » . وفي  
الشارع المبتل ، مرّ موزع البريد دون أن يتوقف ، ولكن قبل أن يختفي  
وراء بقالية « ماكسيمو فوميز » ، التفت ليحيي بإشارة من يده المرأة  
القصيرة ذات الشعر البرتقالي ، التي كانت تقف على عتبة منزلها .  
عند ذلك غمرت السيدة « بولين » بعينها . وانثنت ركبتها ، ولكنها  
بعد برهة قصيرة استردت لونها الطبيعي . وتمتمت بين شفتيها :  
« كنت أعرف أن تلك الرسالة لن تصل : فمن يبالي أو يهتم بشخصين  
قد بلغا سن الشيخوخة ؟ بالتأكيد لا أحد يهتم بهما . وعلى أية حال ،  
أنا لا أهتم بهما مقابل أي شيء في العالم . » ودست أصبعها بسرعة في  
شعرها ونثرته على جبينها ، وقالت : « انه لن يذهب الى الملجأ وأنا  
على قيد الحياة . »

فتحت السيدة « بولين » الباب ودخلت .

« أين كنت يا عزيزتي ؟ » كان صوت الزوج ينفذ من تحت الاغطية .

« أشعر بحرارة شديدة ، اني اكاد أختنق . »

اجتازت السيدة « بولين » قاعة الطعام .

ولكن رغم شدة أنين وشكوى « فلنتان » ، فان زوجته لم تقترب

من سريرها . فقد كانت تتأمل وجهها في المراة المعلقة فوق المفصلة .

« بولين ، يا صغيرتي ... »

لم يكن يبدو على المرأة ما يدل على أنها قد سمعته . وبحركة شائعة،  
نزعت بلوزتها ، وغسلت جبينها وتحت إبطيها وجففتها . كان شعرها  
مشعثا . فأخذت تلف بعض خصيلات شعرها حول سبابتها وتوزعها  
على جبينها .

« بولين ، حبيبتي بولين . آه ، أنك تتظاهرين بأنك لا تسمعينني . »  
وعندما أنجزت تزيينها ، التفتت نحو زوجها بوجه تلوه سيماء الصفاء  
والهدوء . ونجمت من « فلنتان » دمدمة تنم عن التدمر ، تبعثها دمعتان  
انسكبتا وسالتا عبر شعر لحيته .

فقلت رفيقة حياته وهي تقترب منه : « هيا ، هيا . أنت ترى  
جيذا أن الدواء قد أخذ يحدث تأثيره . لقد كانت دونا « كلارا » على  
صواب : فأنت تستطيع الآن التحرك ، وها أنت أيضا تتكلم ، بل  
وتستطيع الجلوس . بلى . دعني أعمل . برافو ! هذا حسن ، كما  
ترى ... والآن ، مدّ ساقيك لاتنولهما . » وأخذت تساعد على  
إخراج ساقيه من تحت الأغطية وعلى وضع قدميه على البلاط .

« يجب أن تصدقني ، يا « فلنتان » . فأنت تعلم بأن لدي فكرة  
معينة ، وتعرف بأننا سنكون سعيدين . فهل أنت تثق بكلامي وتصدقني ؟ »  
— نعم ، يا بولين ، نعم .

نظفت له السيدة « بولين » وجهه ، وربطت حذاءه الذي ينتعله  
في الحفلات الموسيقية ، والبسته قميصا نظيفا وبرّة جديدة أخرجتها  
من إحدى العلب . وعندما انتهت من الباسه ملابسه ، مشطت له  
شعره .

« لا أريد أن يقول الناس أنني أهمل العناية بك لأنني أصبحت عجوزا  
وأنك لم تعد تميل إليّ . »



لم يكن « فلنتان » ينبس ببنت شفة . كان يلعبها تعمل به ماتريد .  
كان أحيانا يضغط على ذراع زوجته التي ظلت تتحدث اليه وكأنه طفل  
صغير . « هالك ! لقد وضعت لك ربطة عنقك الجميلة . أنت ترى كم  
أنا طيبة . »

كانت قلعة الطعام تبدو مريحة بستائرهما الراحية ، وأواني الزهور  
التي تزينها ، وصور الشباب الملصقة تحت تمثال السيد المسيح ،  
والتي يمثل بعضها « فلنتان » متدثرا معطفه وهو يخرج من إحدى دور  
السينما ، فلنتان بلباس الرياضة ، متابطا ذراع خطيبته ، مفتية  
المستقبل « بولين دارتوا » ، فلنتان وهو يتقبل تهاني السيد العمدة .  
ثم الوثيقة التي تمثل انتصار « فلنتان » : صورته وهو يصعد سلال  
باخرة « الأتلنتيك » كي يذهب ليعرف في أميركا الجنوبية ، في  
الأرجنتين ، الى حيث يذهب الموسيقيون المباقرة ليحظى كل من  
يستطيع منهم بأكاليل الفار الذهبية .

كانت السيدة « بولين » قد انتهت من الباسه ثيابه . وقبل أن  
تطوي الأغطية ، قدمت لزوجها بضع جرعات من القهوة ، قائلة :  
« يا عزيزي ، أن لنا كل الحق ، أن نتمتع صباح اليوم بكل الملذات . »

كان الزوجان قد اجتازا عتبة المنزل . وكان « فلنتان » وهو يقف في  
الشارع ، يبدو فخما المظهر بملابسه الأنيقة .

ولكنه أخذ يئن ويشكو ، صارخا : « أوتاه ! ساقاي ، سترين ،  
أنهم سوف يقطعونهما لي » .

— « لن يقطعوهما لك . افعل ما أقوله لك . »

واستند « فلنتان » الى كتف رفيقته كي يصل الى الرصيف  
المقابل . وسارا بخطى بطيئة دون أن يحاولا الإسراع ، قبلما إحدى

زوايا الشارع حيث كانت تتدلى شلالات نبات « زهر العسل » من شرفات أحد المنازل المصبوغة جدرانها باللون الأزرق . وخرج رجل مشمر الساعدين من أحد المخازن ، وأخذ يصرخ وعيناه جاحظتان : « أرايتم هذا الرجل !؟... هذا غير ممكن ! إيه ، « جوزيه » ؟! هذا هو بالذات ، انه « المايسترو ! »

فخرج الجيران من أبواب عديدة وتجمعوا على الرصيف : « كيف حدث ذلك ؟ انها لأعجوبة . » وأخذ تجار ذلك الشارع يحيون الموسيقي كأنه شبح عائد من عالم الغيب : « برافو ، سيد فلنتان ! - تشجع يا سيد فلنتان . - متى ستسمعنا موسيقاك العذبة ؟ »

لقد رأى الجميع الزوجين يمران ذلك اليوم : الخباز وزوجته ، صاحبة البقالية ، وبائع الصحف . وقد فرحوا جميعا بعودة « المعلم » . وامتدحوا صبره وحسن تحمله للبؤس والمصائب . « انه لأمر قاس أن يحرم المرء من أية موارد عند تقدمه بالسن . » وأخذوا يتحدثون عن صفاته المتميزة وعن شهامة وشجاعة رفيقة حياته . « كانت تعتنى بنفسها على الدوام ، وتبدو دائما أنيقة . - انها بباريسية حقيقية . - ومن المؤكد أنهما تلقيا رسالة من الحكومة . وعلى أية حال ، يكفي أن يتمتع المرء ببعض الأمل ، في الحياة ، لكي يستعيد صحته . - وبعد ذلك أضافت فتاة ترتدي بلوزة ضيقة تشد على نهدائها ، قائلة : « مهما ابتعد المهاجرون الى آخر الدنيا في هذه البلاد ، فانهم ينعمون بحياة ذهبية . »

وأخذ التجار الذين تجمعوا أمام المخبز يتحركون وقد بدا عليهم الاضطراب . واندست بينهم سيدة عجوز ترتدي الملابس السوداء على رأسها قبعة صغيرة من القش . وتحدثت بصوت موسيقي قائلة : « عفوا ، ان السيد « فلنتان » ليس مهاجرا ، انه فنان . وقد أتى من فرنسا ليعلمنا تذوق الموسيقى وتقديرها حق قدرها . ومن أجل ذلك عبر المحيط ، وقد استمعت الى عزفه في كازينو البلدية . »

وهزّ الخباز رأسه لدلالة على تفهمه لما قالت المرأة ولوافقته عليه:  
« السيدة الصغيرة ليست مخطئة . فالفنان لا يعتبر مهاجرا . ولكنه  
ان كان مهاجرا أم لا ، فقد مضى وقت طويل على كونه بحاجة الى  
دخول مأوى المعجزة . ولو لم تتخل زوجته عن حملها في الخياطة ،  
ولو لم تحرق دمها وتبدل قصارى جهدها لتسقيه جرعات الدواء وتلك  
له ساقيه المعروقتين ، لما ظل « فلنتان » الآن على قيد الحياة . »

كانت صاحبة البقالية توجه نظرها الى الزوجين وهما يعتمدان  
بخطوات بطيئة . ثم قالت وهي تنهد : « النساء ، يا للنساء ! انهن  
شيء هام . فها هي احدهن ، انها من اللواتي يفضلن الموت على التخلي  
عن أزواجهن . »

وهزّ بائع الصحف رأسه مفكرا وقال : « لقد مررت بالأمس أمام  
منزلهما ، فدخلت . وبينما كنت أحدث مع السيدة « بولين » ، سمعت  
أنين العجوز وشكواه . لقد كان مستلقيا . كانت تقدم لي الشراب  
وتحدثني عن المعلة والاجازات ، ولكني أنا كنت أشعر تماما أنه يتألم  
وقد تملكه الخوف . »

وأسرت الفتاة في أذن زوجة الخباز : « اتعلمين يا سيدة «غوميز»  
اني قد استمعت أنا الى عرفه . فقد كانوا قد وضعوا له بالقوة الكمان  
بين يديه ، وعيناه كانتا تغمران . ثم أخذ يقلب الكمان بيديه كما لو  
كان يرى إحدى هذه الآلات الموسيقية للمرة الأولى . ثم ... ثم ..  
تناول القوس الذي كانت تقدمه له إحدى السيدات وأخذ يعزف . »

— وماذا عزف ؟

— لا أدري . شيئا ماليا ، قويا وصاخبا ، كما لو كان كل شيء قد  
كاد يتحطم ويتقطع .



وساد بعد ذلك صمت عميق . كان الشارع خاليا . ومرت سيارة  
مسرعة ملأت الجو بالضجيج . وسمعت فرقة الأبواب ، وصراخ الأولاد  
وهم يتراکضون وطققة احدى الدراجات ، وصوت السيدة «كاسترو»  
التي كانت توجه لطمتين صباحيتين لابنها .

أما السيد والسيدة « فلنتان » فقد كانا يتابعان نزهتهما، متشابكي  
الذراعين وقد ضما بعضهما بلطف . وعندما وصل الزوجان الى الحاجز،  
كانت الشمس قد ارتفعت عالیا في السماء .

وقالت السيدة « بولين » وهي شديدة التأثر : « أشعر اني بخير،  
وانت ، كيف حالك ، يا ميري ؟ »

— « أنا ، أيضا بخير . »

كان الخط الحديدي خاليا ، والسماء زرقاء صافية . وبين خطي  
سكة القطار نبتت بعض زهور شقائق النعمان ونباتات الشمرة البرية .

فقالت السيدة « بولين » وقد ساورتها الدهشة : « يا له من أمر  
غريب : ففي هذه البلاد نجد دائما نبات الشمرة بين قضبان سكة  
القطار . »

وتوقفا لحظة بين مجموعتين من النباتات البرية ، عند ذلك بدرت  
منهما ضحكة تشجيعية . وهر الرجل رأسه . وفجأة ارتعش كتفاه  
وتقلصت أصابعه .

« أسمع ، قل ، انه هو اليس كذلك ؟ »

— نعم ، انه هو ، ولكنه ما يزال بعيدا . لا تتحركي . »

تنبه « فلنتان » وأصاخ السمع . فلم يسبق أن كان لصوت زوجته  
هذه الصراحة وهذا الوضوح في الارتفاع والقوة .

قالت وهي تتوسل اليه : « ضمني اليك ، ضمني اليك بقوة . »

فأغمض عينيه لكي يتذكرها ويتصورها بشكل أفضل ، مستلقية تحت ثقل جسمه على رمال النهر ، كاية فتاة ، بعد ممارسة الحب .

« فلنتان ، حبيبي ، قلبي ، ضمني اليك . »

كانت أشعة الشمس شديدة الوطأة والحرارة على كتفي الفنان ، كما أنها كانت تشوش له الرؤية . كانت « بولين » رغم موهبتها قد رفضت أن تفني في مكان عام . والآن ها هي تهم بالرحيل دون أن تكون قد فنت أبدا لأحد سواه . انها تهم بالرحيل ، الا اذا أرادت ...  
الا اذا غيرت رأيها ...

اعتزته قشعريرة ذات صفات مجهولة هزته من أخمص قدميه الى رأسه فاضطر للتشبث برفيقته والاستناد عليها . أما « بولين » ، فانها كانت تتذكر الآن تمثال الثور الرخامي الذي كان يضعها عليه وكأنه يضع طاقة من الزهور ، هناك في جزيرة « السؤل » ، على بعد بضعة كيلومترات عن « بوينوس ايريس » . كانت تتذكر وصولهما الى الأرجنتين ونجاحه لدى السيدات عندما كان يصعد على المنصة ، شعره متطاير في الهواء ، ويعرف لهنّ معروفة « الدانوب الأزرق » الرائعة .

لم يعد « فلنتان » يشعر بالخوف . فقد سبق له أن احتفل بعيد ميلاده الثماتين ، بينما لم تتجاوز رفيقته الحادية والستين ونصف . لقد كانت « بولين » كثيرة الحركة والنشاط على الدوام ، بل ونشيطة أكثر مما ينبغي ، حتى أنه كان عليه أحيانا أن ينفرد بنفسه ، بل وأن يتخلص منها ، أحيانا أخرى ، كي يستطيع التركيز على أعماله الموسيقية . فقد كانت « بولين » تجهل فوائد الصمت والهدوء . وكانت تدور وتحوم حوله طيلة الوقت وكأنها نحلة كبيرة .

وقد حدث له ذات يوم أن شعر بأعياء قريب ، فتوقف عند ذلك  
عن العزف .

اعترت جسم « فلنتان » انتفاضة ، واصطككت أسنانه ، وأحنت  
ظهره شمس الظهيرة . قالقى نفسه بين ذراعي زوجته وضمها اليه بقوة  
أشد مما كان يضمها بها على الإطلاق .

وسأله وهي تلهث : « اتجنبي ؟ »

— كلا ، ... اني أعبدك . »

كيف استطاع « فلنتان » المضي الى أفكار مماثلة لتلك الأفكار ازاء  
زوجة كزوجته ؟ لقد كان ذلك أمرا معيبا . هزته ارتعاشة باردة . لقد  
كانت « بولين » قديسة . وكانت هي الأقوى ، وهذا كل ما هنالك .

أخذ يتمتم : « حبيبتي ، حبيبتي . »

فأجابته « بولين » :

— حبيبي . »

أخذ « فلنتان » يتنفس بعمق . كان صوت زوجته هو الموسيقى  
بالذات ، وكان الخريف في « بوينوسيرس » يضع حدا لحرارة الصيف ،  
ويحمل معه الراحة والرفاهية للجميع .

كان حولهما بعض الأشجار التي تشقت قشورها وانهارت على  
الأرض ، فنما حولها كثير من الزهور الحمراء . وكانت السماء صافية  
بشكل لم يسبق له مثيل .

وشعر بقلب « بولين » يدق بعنف شديد بحيث تكاد تتقطع أوصاله .  
لقد كان بخير وهو ملتصق بجسد المرأة التي أسعدته وغمرته بالأفراح  
والسرور خلال فترة تزيد على أربعين عاما والتي تهم بابتلاعه .

كانت معنوياته حسنة وبينما كان الموت قادما اليه عبر كتلة هائلة  
من الحديد ، تجري لاهثة يكتنفها السخام والدخان ، لم يبد منه  
ارتعاشة تنم عن الندم ، أو الأسف على ما فعل .

آب ( أغسطس ) ١٩٧٧







# الذاكرة

## أوالقريّة الصغيرة

اسمي « ايزابيل بود » . عمري ثلاثة وأربعون سنة . أسكن في المنزل رقم ( ١٢٩ ) شارع « المين » وأنا مستعدة لايضاح كل ما يتعلق بموضوع الرجل الذي تبعته ، في أول شهر آب ( أغسطس ) في شارع « البلانت » . وسافعل ذلك بمزيد من الرضى ، لأنني بعد أن أمضيت فترة تخطلها مزيد من المفامرات أصبحت منهكة من التعب والاعياء .

اني أجهل فيما اذا كنت أوجه كلامي الى الفضوليين ومحبي الاطلاع ام الى جماعة من اللامبالين ، ولكنني أعلم أنه في بعض الأحيان يصبح من دواهي الأمن والسلامة القيام بتعمية الخلفيات الأكثر ابلاما لبعض التجارب . يمكن أن يكون الأمر بسيطا بالنسبة لي لو اقتصر على ذكر الأحداث والوقائع ، ولكنني أود لو أستطيع ، حتى ولو ظهرت بمظهر المفالية ، أن أكشف من قرب الصور التي بحوزتي والتعابير التي أضمرها ، ليس لأنها جميلة وحسب ، بل لأنها تنسم أيضا بقسوة غريبة .

كان الجو ثقيلًا جدًا ، ذلك اليوم ، في باريس . كان هنالك شخص مجهول يسير أمامي ، قبة قميصه مفتوحة ، كما لو أنه كان يرغب امتصاص كل أشعة الشمس التي كانت تنصب على صدره . كان هنالك شيء متشاكل ومتكلف في مشيته ، وكانت تسريحة شعره تبدو

فديمة الزري ، وهذا ما ذكرني بأحد الأشخاص ، وربما أيضا بأحد الأماكن أو بوقت من الأوقات . كان ينبعث من ذلك الشخص الكهل جو يجذبني للقيام بنزهة . ولم لاحظ الكلب الكبير الذي كان يمسك بمقوده إلا بعد ذلك ببضعة دقائق .

وعند تقاطع بعض الشوارع ، توقف الرجل ، فالتفت إلى جهته . وفي الحال ، تحركت يدي اليمنى بحركة عفوية وغير مقصودة وتوضعت على رأس الحيوان . كانت حرارة الجو شديدة تدفع المرء لالقاء نفسه في أول بحيرة يصادفها . كنت حائقة بسبب حركة يدي السخيفة ولكن انما تبدأ القصص الكبيرة هكذا ، بحركة سخيفة .

« أتحبين كلبى ؟ »

لم يكن صوت الرجل غريبا بالنسبة لي ، ولكنه بدا بعيدا ، بعيدا جدا ، وتابع دون أن ينتظر أي جواب :

« أنا ضريب ولكن ، عندما يداعب أحد ما كلبى « سكوت » فاني أشعر بذلك . اذ يحدث عند ذلك تفريغ شحنة كهربائية منه التي . فأنت تعتقدين أنك تضعين يدك على الحيوان ولكن تأثير ذلك يقع على شخصي أنا . »

لم أجد ما أجيب به على كلام شخص يمسك بالمصا البيضاء ويستخدمها على طريقة المتباهي الضدور الذي كان صوته الوقور ، الذي تتخلله ضحكات حادة وقصيرة ، تتردد أصداؤه في أعماقي كأنه صوت داخلي . ولأنني لزممت الصمت ، شاردة اللب في ماض شديد الحرارة ، فقد انفجر ضاحكا ، ورغم أن الأمر يبدو مستبعدا ، فإني عرفت هذه الضحكة الرنانة المتلونة المتلوية . فقد كانت تشكل جزءا من كل ما تبقى عالقا في ذاكرتي . كنت أعرف أنني لم أكن مخطئة وكم كنت أود لو أن تلك الضحكة قد استمرت إلى ما بعد الظهر ، وأن تسمع في الشوارع

البعيدة وأن تتردد أصداؤها في راسي زمنا طويلا . فقد كان لها رائحة  
كثير من الأشياء الثمينة المخبأة في علب تلك التي أطلقوا عليها اسم  
« ماميتا » ، في المحل رقم « ٣١ » ، شارع « بيير » : أطواق وعقود ،  
أكياس وجزادين معطرة ، قفازات سويدية لا تفتح إلا بمقص من العاج .  
كل هذه الكنوز كانت في متناول يدي ، وقد انتزعت مني ذات يوم .

« أين تذهبين ؟ »

كان الرجل الذي اتبعه ، يسأل ، ولكنني كنت قد فقدت عادة  
استعمال الكلمات . ولذلك كان هو الذي اتخذ القرار :

« عليك أن تأتي معي . »

كان وجهه ، بعد أن غمره الضوء ، قد أصبح يبعث على الاطمئنان .  
يشع منه سحر بمض وجوه أباطرة الرومان فيما لو كان هيكلها مكونا  
من بشرة شديدة الطراوة . وقد لاحظت أيضا ، مع بعض الانزعاج ،  
أن بشرته التي لوحتها الشمس قد امتزتها التجاميد التي شكلت  
انتفاخين حول عينيه . كان لا بد أنه قد تجاوز الستين من العمر رغم  
نضارة أسنانه التي حافظت على وضعها السليم في لثته . وكانت بشرة  
يده التي يمسك بها مقبض عصا نظيفة ، نحيفة وناعمة ، وأظافره  
مقصوفة بعناية . أما نظائره فكانت تتسرب منها نظرة لا يشوبها  
الانطفاء وقد وصفتها دون تردد بأنها ساخرة . ولذلك لم تكن لتعتريني  
الدهشة لو أن هذا الضير أمسك بكثفي في وسط الشارع وفتح لي  
فمي بالقوة ، كما يفعلون بالخيل لمعرفة عمرها .

وعند وصولنا إلى تقاطع شوارع ثان ، توقف ولامس صدري  
بطرف عصاه :

« الآن ، وبعد أن راقبتيني جيدا ، أيتها الأنسة ، إذا كان لديك  
عمل يجب أن تقومي به ، فيجب أن تنسيه في الحال . »

ومع حركة سريعة من منكبيه ، استأنف سيره نحو الشوارع  
الخارجية .



عندما استعدت كل ذلك بجميع تفاصيله ، مساء ذلك اليوم ، كان  
بإمكاني أن أؤكد أنني إذا لم أكن بكامل وعيي ، فأنني بالتأكيد كنت قد  
سبق لي أن فقدته قبل تلك الفترة ، ذلك لأن اللحاق بشخص يشكو  
من عاهة ، وكان يمكن أن يكون غشاشا أو محتالا والذي كان يبدو أنه  
لا يختلف بشيء عني ، أي أنه لا يسير على بساط من ذهب ، يعتبر عملا  
يدل على فقدان الصواب . لقد تبعته كما كانت تفعل التجارة ، بل  
الامة عندما كانت تسير خلف بائع التوابل حاملة له تلك المواد أو وراء  
تاجر الرقيق في سوق النخاسة . هذا الغريب الذي تنم مشيته من  
ساقين مقوستين كؤلئك الذين قضوا زهرة شبابهم على ظهور الخيل ،  
كان قد أيقظ في نفسي الكثير من مشاعر ومواقف الصبا التي لم استطع  
التخلص منها رغم انقضاء سنوات طويلة بذلت خلالها جهودا مضنية  
في سبيل ذلك . كنت أعرف أنه بكلمة منه كان يكفي لكي تستأنف حياتي  
مسيرتها من حيث تركتها ، أو بالأحرى من حيث تركتني منذ ما يزيد  
على ثلاثين سنة . كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها هذا الرجل في  
حيثنا - الحي الرابع عشر حي غامض تكتنفه الأسرار بساحاته الضيقة  
وأزقته المظلمة ، ولكنه ليس متاهة على أية حال . فأن كان مختبئا ،  
هذا الذي يستجيب في ذاكرتي الى اسم : « كاتشو رودريجز » والذي  
كان من عاداته كثرة المرور في جادة « بيتر » ؟ وماذا يريد مني ، صباح  
هذا اليوم الحار ، بينما لم يسبق لي أن كنت بالنسبة له فيما مضى  
سوى ما يشبه ذيل ستارة في الاطار والزينات الأنيقة التي كان ينعم  
بها . وقد حدث له أكثر من ألف مرة أن مر بي دون أن يراني ، كما لو أنني  
بالكاد كنت كرائحة الحبر أو رائحة الصمغ . كما كان « دون الفونسو »  
و « ماميتا » يستقبلانه بالترحاب والعناق . أما الخدم فكانوا يتراحمون



لسماع كلماته الخطوة . لم يكن عليه ان يشعر بشيء آخر سوى شهرته  
ومآثره الخاصة . ولكن في صباح ذلك اليوم من اواخر تموز ( يوليو ) ،  
لم يكن وجودي بالنسبة لـ « كاتشو » اكثر من وجود اية مارة اخرى  
يمكن ان تضع يدها على كلبه الذي يرافقه ، وهي شاردة الدهن لا تعير  
ذلك اي انتباه . ومن جهة اخرى ، لم اكن قد تجاوزت السابعة او  
الثامنة من العمر عندما كان يلعب بكرة المضرب مع « دالميرو » و « جاك » ،  
شقيقي « فيكتوار » ، ويحاول الامساك بـ « ليونتين » الجميلة بين  
اشجار الغلبة المحيطة بالقصر الذي كنا نقضي فيه العطل والاجازات .

عندما توفيت « ماميتا » بذلك الشكل المفاجيء الذي لم يتوقعه  
احد ، ولما اغلقت ابواب المنزل رقم « ٣١ » على كل ما ظل طيلة ربيع  
قرن ينبض بالحرارة والعبقرية ، لم اكن قد تجاوزت الثالثة عشرة  
كذلك ، ولماذا لا اعترف بكل شيء ؟ فانا ، في الواقع لم اكن احد افراد  
الاسرة ، وكل ما هنالك اني كنت اختا بالرضاع للصغيرة « فيكتوار » ،  
اي اكاد اكون دخيلة على العائلة .



لم انس شيئاً من تفاصيل ما حدث في ذلك اليوم الذي كان يسوده  
حر شديد ولا مما حدث في الايام التي تلته . كان العرق يتصبب من  
جدور شعري ويسيل لينساب الى فمي الذي كنت اجد صعوبة في  
ابقائه مغلقاً بينما كان ذراعي المبللان شديدي البرودة . وكان هنالك  
على الجانب الآخر من الشارع بعض الاشجار وركن ظليل يتوسطه مقعد  
سنستطيع الجلوس عليه . وكنت على عجلة من امري للوصول اليه ،  
بينما في ذهني ، ما كان لهذا المقعد ان يتواجد الا خلف منزل « فيكتوار » ،  
في الأرجنتين ، عند نهاية شارع « جاكاردنداس » . شعرت باحساس  
بالاختناق شبيه بالتناس الذي يسببه المخدر ، كاد يجعلني انهار .  
كان منزل « فيكتوار » مغطى بالياسمين وتعلوه شرفة كجميع المنازل

الراقية المبنية في السهل . وقد حدثتني صديقتي مائة مرة عن جدرانها الأرجوانية التي صبغها أجدادها بذلك اللون انصياعا لأوامر أحد الطفلة - كان جنرالاً أزرق العينين استعبد بلاده فترة طويلة من الزمن . وقد حافظت أسرة « آكونا » على نضارة ذلك اللون المعيب تمجيذا لضحايا التعذيب . وكانت « فيكتور » الصغيرة تصف لي بحماسة ومفالة شبكات السياج الحديدي التي كانت تفلق مداخل منازلهم ، والصور الرائعة ، والأرائك التي كانت تجلس عليها السيدات المرتديات الملابس السوداء اللواتي كنّ يقهقهن بالضحك في كل مناسبة ولكنهن لا يعرفن كيف يتسمن . وفي شوارع باريس الحارة ، عندما كنت أبيع شخصا مجهولا ، كانت روائح البليونج وروث البقر تتصاعد الى دماغي . وكنت أسمع وقع حوافر حصان « المعلم » وهو يعدو عائدا عند حلول الظلام وكانت النسوة تنتظره على شرفات المنازل . وكنت أشعر بوطاة قدمي جسم صارم وعنيف على الركاب . والصور السهل الفسيح عند حلول المساء ، وقد ابتلعتته سماء ملتهبة بضياء الفسق . ولكني لم أكن أرى الرجل الذي ذكرني بكل ذلك . فالذين يعيشون في عزلة من الناس يتخيّلون المشاهد والمناظر . وإذا ما بقيت على قيد الحياة بمد هذا الاعتراف ، فاني سأظل أذكر على الدوام ، وقلبي منقبض ، نزهتي التي قمت بها في شارع الـ « بلانت » . كن حينذاك واضحا جدا بالنسبة لي اني بتصياحي الى ذلك الشخص الذي لم أكن بالنسبة له سوى امرأة مجهولة ، كنت أدفن ما بقي لي من رأسمالي كبرجوازية صغيرة ، ذلك الرصيد المحشو بالنحيب والتنهدات والأفراح والانتصارات الهزيلة . ولماذا كل ذلك ؟ من أجل لا شيء . أم أن ذلك كان عبارة عن نية سرية بأن أسترده نفسي متمسكة بحلم قديم ممنوع كي أنجو بجلدي ؟

كان يسير متحاشيا السيارات ، ذلك المجهول الذي يحمل العصا البيضاء ، يضره الفرع بالتحايل على كلبه متصنعا التسلل بين الدراجات . كان يصفر بهدوء لحناً مرحاً ، عندما انتابتني وسوسة شوشت لي الرؤية . كان ذلك الذي يستجيب في ذهني لاسم « كاتشو »

يلاحق كرة بيضاء بين قوائم قطع من الحيوانات ذوات القرون التي  
كانت تحمله وتطلقه عبر الحقول .

انتابني دوار ، فأمسكت الكلب « سكوت » من جلد ظهره ، والقيت  
نفسي لاهثة في الجانب الآخر من الشارع حيث كان صاحبه ينتظرنا  
مستنداً بهدوء واسترخاء على عصاه .

رغم قربنا من أشجار الزيتون ، التي بدأنا نشم رائحتها عبر  
رذاذ خفيف ، فإن الحرارة لم تخف وطأتها . وعندما استأنفنا سيرنا ،  
أخذ صديقي الجديد يربت بأصابعه على كتفي .

« أين تسكنين ؟ »

لم يكن لدي رغبة بالإجابة ، ولكنه ألح كمن يخاطب طفلاً منيداً :

« أين تسكنين ؟ »

— في جادة ال « مين » .

— أسيطة أنت ؟

أحياناً .

— أمتزوجة ؟

— كلا ، ليس بشكل حقيقي .

— ألك أولاد ؟

— كلا .

أبطأ في مشيته كما لو أن ازدحام الرصيف قد استأثر فجأة  
بكل انتباهه . وبعد بضع خطوات ، رفع رأسه وقال بنبرة قوية :

« أمّا أنا فأسكن في قرية صغيرة . لديّ بلبل وبستان . ويقول لي البعض أنّي سأجني منه الرمان عما قريب . ويبدو لي أنّ هنالك كثيراً من الناس الطيبين يحبون بشكل غريب تقديم كل شيء للأشخاص العاجزين . وعند تقديم هداياهم يجعلون صوتهم يتفق مع المناسبة . وبعد بعض الوقت لن أستطيع المشي . وربما كانت هذه النزهة آخر نزهاتي . فأنا لست سوى حطام إنسان . فتصلب الشرايين يضايقني . وأنا أداريه واحتال عليه بمختلف الحيل ، كما أفعل مع كلبتي « سكوت » ، ولكن ذلك لن يدوم طويلاً . فعما قريب سوف أصبح كبطل إسباني متجمد في كرسيه الحجري ، وسيفطونني بأنواع الطوى : شاي صيني ، تمر ، ليمون ، مربى ، مثلما كانوا يحيطون قديماً أمراء « الأزتيك » (١) بقطع النقود الفضية . اني أتصور بلدة وسرور ذلك الزمن . هل سمعت بأمراء الأزتيك ؟ لقد كانوا يخشون فرسان الأسبان . والتفت قليلاً وابتسم ابتسامة طويلة باردة .

« هناك ، في قريتي الصغيرة ، جلّيتي التي يقع منزلها إلى يسار منزلي كانت تصنع الأدوات الموسيقية ، والتي إلى اليمين تملك مغسلاً . وهي تهوى جمع الطوايع ولديها مجموعة منها . وأنا منذ زمن طويل لم أهدأ أتلقى أية رسائل ، ولذلك أخذت تهمل غسل ملابسي . وهناك أيضاً ، على الرصيف المقابل ، « شارلو » الحذاء ، الذي يقدم لي ألف خدمة . ولكنه يشرب بعض خمري عندما أكون منصرفاً إلى العزف على الفيتار . ولماذا لا يفعل ذلك ؟ وهو يجلس أحياناً على كرسي هزاز ويصفي إليّ وهو يدق المسامير . أنا أحب الكلام . وعلاقتي جيدة بصانع التماثيل . انه فاشل : وأنا أحب الفاشلين . فقد عرفوا كلّ الناس . وإنما من أجلهم يعمل العمالقة . ومن هم هواة الفن الحقيقيون ؟ هل سبق لك أن فكرت في ذلك ؟ انهم أولئك الذين يمكن أن يكونوا متمتعين بالمبقرية ، الذين يعرفون ممّ وكيف تتكون ، في حين أنّ

---

(١) « الأزتيك » : شعب مكسيكي قديم سيطر على البلاد حتى قدوم الأسبان عام ١٥٢٠ .

المعلاق ، من جهته ، لا يعرف شيئا عن قدرته وأتته ، في أغلب الأحيان ، يتمتم لعجزه أمام اللوحة أو كتلة الصلصال ، مندهشا لرؤيته أشكالا تتوضع فيها فوق بعضها ، وهي التي يعرف عنها الآخرون ، الفاشلون ، من جهتهم ، كل شيء . ثم ... »

سكت « كاتشو » . كان قد اختار دربا زرعت على جانبيه شجيرات الخوخ البري .

وتابع حديثه قائلا : « كان ذلك المثال يتخذني مودила لأعماله . لأن مظهري زاهر على ما يبدو . لقد عاش في بلدي ، ذلك الشخص الفد ، ويؤكد أنه رأيته هناك أخرج من أحد الملاحى الليبية ، ممتطيا صهوة جواد . ويقول أيضا أنه كثيرا ما كان يلتقي بي ويرفقتي بعض النساء السيئات السمعة . فهل تعرفينهن أنت ، النساء السيئات السمعة ؟ ... ففي الأرجنتين لا يزال يوجد الكثير منهن . وهن يرتدين جوارب وردية ومطاطات سوداء تجعل سيقانهن تبدو كسيقان الدمى المصنوعة من البورسلين . وعندما يرقصن ، يدخلن لك بين الفخذين ركبة يصقلنها كل مساء بعناية شديدة . تألمي ، كان لي عم " عسكري" يجمع نماذج الملابس العسكرية لمختلف البلدان ولمختلف العصور . كان ، مثلا ، يحارب في البارافواي مرتديا زي الخيالة « السباهيين » ( الأتراك أو المغاربة ) . وقد ورثت عنه لا موهبته كخبير عسكري ، بل بزائه العسكرية . وأنا أرتديها بانتظام لأدخل السرور الى قلب صانع التماثيل . ثم سألني فجأة بصوت منخفض : وأنت هل حققت حلما من أحلامك ؟ » .

ورغم البرودة التي بدأت تنبعث من شجيرات الزيزفون ، فقد تلقيت سؤال الضرب كأنه مقلوبة حارقة .

وأضاف قائلا : « أنا لا يساورني القلق عليك . إن لك ذرامين مثل بندقيتين صغيرتين » .



كان هنالك ركن ظليل تحت الأشجار ومقعد جلسنا عليه متلاصقين .  
وجد « كاشو » حجرا بين الحصى فقدناها بعيدا . انصاع « سكوت »  
للأمر ولكنه أتى بالحجر وهو يجزّ قائمته ، ووضعها على ركة صاحبه .  
أخذ « كاشو » خطم ( بوز ) كلبه ، وقال لي :

« هلمنا رفيقي . وأنا أمابثه لأدخل السرور الى قلبه . نحن  
شريكان قديمان . يجب أن نحوزي على تقديره اذا كنت مهتمة بتوثيق  
العلاقة فيما بيننا ، وأنا أعرف أنك شديدة الاهتمام بذلك . فلما أعرف  
على وجه التقريب كل ما يفكر به جميع من يجروون على التقرب مني .  
حسن هكذا أن تكون ساقك ملتصقة بساقي . لأن ساقي لن تعيش  
طويلا . ولذلك يجب استغلالها حاليا ، فالأطباء لم يعد بإمكانهم عمل  
أي شيء من أجلها . ومع ذلك ، فهم يرفضون قتلي ، كما أنهم يرفضون  
أيضا أن يدعوني أميش في الوقت الذي ما زالت لدي فيه القدرة على  
ذلك . أليس هلمنا أمرا غريبا ، بل جنونيا ؟ أنهم يريدون مني تعريض  
نفسي للحرمان وغايتهم الوحيدة من ذلك ادخال السرور الى قلوبهم » .

لم أعد أشعر بالحر ، ولا بأي انزعاج آخر . وفجأة أمسك صديقي  
الجديد بيدي ، وربت عليها وأخذ يقلبها ، ثم قال :

« لست أعمى تماما . فلما أرى الأجسام والأشياء كالظل وأرى  
النور خافتا جداً . أرى مجموعة شعرك ، وأرى الظلام كجدار بيني  
وبين الشمس . لم أعد أرى الشمس ، ولكنني أشعر بها . فهي التي  
غذتني وهي التي أكلتني » .

ولزم الصمت . كانت يدي ملقاة في يده . سحبته دون أن يحاول  
الامساك بها . ثم نهض ، وأدار لي ظهره وسار في المشى وهو يبعد  
المرة بطرف عصاه . رأيت يسير في المشى ، حاني الرأس ، وبدت  
لي عصاه فجأة ، شديدة البياض . وكان « سكوت » أيضا يبعد

المارة . ولكي يعبر الجادة ، شبت « كاشو » بمقود كلبه بيديه  
الائنتين .



عندما عدت الى المنزل مساء ذلك اليوم ، لم أرَ الشمس تقرب  
عن باريس ، ولم لاحظ من نافذتي ، كما هي عادتني ، أسطحه المباني  
المكدسة فوقها مجموعات من القرميد بالطين الرملي ، ولا الأربع حدائق  
المستطيلة ، ولا السقائف التي تقرر هدمها كي أرى عما قريب أبراجا  
عالية ترتفع مكانها . لم أغلق أباجور النافذة كي اتحاشى الهلاك من  
شدة الحرارة . ألقيت بنفسي على الأريكة ، مندهلة وبنفس الوقت  
متمرسه ومنهكة بتأثير حالة دفعت بي الى اللحاق بشخص مجهول برزت  
قامته القوية المتسلطة من الخفاء بعد غياب وصمت استمرأ أكثر من  
ثلاثين سنة . أعجبت بهذا الضير الذي كان قد فهم منذ اللحظة الأولى  
التي وضعت فيها يدي على رأس كلبه ، أتت كنت طائرا منهكا ، فاقد  
الأنفاس وأنه ما كان لأحد سواه أن يعمل على تهدئتي وتأنيسي . و« كاشو »  
روديكنز » الرجل الذي باركته الآلهة الذي كان يسري بسهولة ويسر بين  
مصانع « مونبرناس » والقصور الأميركية في الدائرة السادسة عشرة ،  
والذي كان ينشر بكل وقاحة نصا مثيرا للفرائز والشهوات في إحدى  
مجلات الظليمة تملأ كأي حديث أو خطاب موجه الى الفتيات المتزوجات  
حديثا ، ينشره في مجلة « ايلستراسيون » أهلا الرجل لا يمكن ألا أن  
يكون قد عاش الحياة المزدوجة ، بل الثلاثية الأطوار لك يتحلى بضحكة  
الطيور الجارحة وقد نصب بشكله الطبيعي في ردهة إحدى الكنائس .  
كان من هذه الزاوية الفريبة أن بدا لي البطل الذي ترصدت منذ  
الطفولة تصریطاته المستندة الى المبادئ . ولم يكن قد رفض شيء  
لذلك الذي كفوا يسمونه على سبيل المزاح وبكل رضى وسرور :  
« البوهيمي ذو البنفسجة » .

« ليونتين » ، التي كان والدها قد خصصها لملك البواخر الإيطالية ، كانت قد تركته يلمس صدرها تحت ملابس الرقص التي كانت ترتديها ، مساء يوم عيد الميلاد ، حينما كنت مختبئة تحت البيانو . وقد خرجت من هناك ملتهبة الوجه . كان « كاتشو » ناجحاً ويبدو منتصراً في الألعاب الرياضية تملأ كما كان يبدو في المقاهي والصالونات الأدبية . كلا ، لم يكن يترفض له أي شيء . واليوم أيضاً ، رغم فشله وسقوطه ، فهو يجد الوسيلة ليحصل على المجاملة والدلال في المكان الذي كان يسميه قريته الصغيرة ، من قبل بعض ذوي النفوس الطيبة والقلوب الكبيرة المتلهفين للاطلاع على ما كل ماهو عجيب وغريب .

قبل قليل ، كان قد أمسك يدي بيده وضغط على ساقي بساقه التي قال عنها أنها مقضي عليها . يجب علي أن أجده وأن ألقاه بسرعة . كنت أعلم أنه أصدر لي أمراً بذلك ، رغم رحيله المفاجيء . أما بشأن أشجار الخوخ البري التي كنا قد جلسنا في ظلها ، فاني لم أكن أعرف فيما إذا كان هذا هو اسمها الحقيقي أم أن تلك التسمية ماهي سوى نزوة من بنات خيال « فيكتوار » التي كانت تحب أن تطلق عليها هذا الاسم عندما يحدث أن تكتشف بعضها في الأماكن المجاورة لـ « التروكاديرو » كان ذلك أثناء تلك اللقاءات الزواعية أن كانت أختي بالرضاع تحدثني من بيتها في الأوجنتين الذي كان يخرج منه عند الفسق قطيع من الخيول كأنه مجموعة من الأشباح . كان البيت قرمزي اللون . نمت حوله أشجار سوداء بينما كان الياسمين يعرش ملتفاً حول الأعمدة وكذلك حول أكتاف تلك السيدات المسنات اللواتي كنَّ يقطعن بسبحاتهن وهن يتمتمن بالشتائم للأولاد الخبيثاء وللأزواج السيئين والخدم الشريرين . وأنا مستلقية على أريكتي ، كنت أتنفس بشكل متقطع ، متمددة على بطني وقد تدلت ذراعي إلى أسفل . كان علي أن أبدأ من الصفر ، أن أزيل من نفسي كل ما كنت قد مشته منذ رحيل سكان جادة « بير » ، وأن أمحو موت « ماميتا » على سريرها الكبير وكذلك العائلة الجنوب أميركية التي لا يحصى عدد أفرادها اللذين يوالون العويل مرتدين

أوشحة الحداد السوداء . ولكن رؤى مشوشة ظلت ملتصقة كالديدان على جوانب دملقي . كنت اتخيل نفسي متعلقة الى عنق « فيكتوار » الصغيرة المتصلبة الجسم في فستان الحداد الأسود ، وقد جحطت ميناها كأنها تدفع الى محرقة هيئت خصيصا لها . كانت « فيكتوار مارينيز دو آكونا » قد تقاسمت كل شيء مع اختها بالرضاع : الصداقات ، الألعاب ، المفاجآت ، الرحلات ، ولكنها أبدا ، - وثقا كنت أشعر بذلك جيدا - لم تكن لتتخلى لها عن أي جانب مما تعانيه من ألم . لأن ذلك الألم كلن لها ، لها وليس لأي كائن سواها . « فيكتوار » كانت تعلم ، وقد ولدت بعد اخوتها بالثنتي عشر سنة ، أنها ثمرة اتصال غرامي ، وأن موت « ماميتا » سيظل سرا خفيا بالنسبة للجميع . وعندما حملوا بموكب مهيب ذلك الجثمان الجميل المعطر كي ينقل الى مسقط رأسه اكفهرت نظرة اختي وحل لونها من الأزرق الى الرمادي الداكن . وكل شخصها اكتسب ما أسماه « فاليري لاريو »<sup>(١)</sup> في الرواية التي كنت أطلعها : « الشباب المهيب » . لا زال أتخيلها ، وهي تجري الطقوس المعتادة لأمها ، ثم تطلق أبواب الخزائن ، وترمر بأصابعها على قطع الاثاث ، وتفزر البريد ، وترقب الستائر . لن أراها مطلقا بتسم بعد الآن . لقد سافرت مع التلوت وكنت أعرف أنه ، لا بالنسبة لها ولا بالنسبة لي ، يمكن أن يكون هنالك نور في أي مكان بعد الآن . ومنزل آل ( مارينيز دو آكونا » الذي كان ملتفا حول الساحة ، جويل خلال بضعة أسابيع الى مجموعة كنائس خاصة . لم يبق هناك شيء الا ووشح بالسواد حتى غرفة الكلاب . ملدا سيكون مصر تماثيل « دون الفونسو » أما غرفة الملابس التي كنت أرسل اليها لكي أفتح هناك بيد حذرة الألفعلبة صغيرة المنحشوة بالأزوار والخيطان الحريرية ، كان يمكن أن تزول هي أيضا . وفي غرفة الملابس هذه ، انما كانت تجتمع الخادومات لكي يناقشن كل ما كان يجب على المرأة أن تعرفه عن الحب ، والرجل والخيانة ،

---

(١) « فاليري لاريو » : كاتب فرنسي ولد في « ليشي » ١٨٨١ - ١٩٥٧ .



وكذلك من الأمشاب المقيدة التي تخلص هذا العالم الدنيوي من عدد  
لانهاية له من أبناء الزنا .

وفي مطلع حزيران ( يونيو ) عام ٤٠ ، قلمت أختي بالرضاع ،  
دون كلمة أو إشارة منها ، كما لو كانت خاضعة لقدر لا مرد له ،  
بالانتقال من نصف الكرة الشمالي الى نصف الكرة الجنوبي ، بينما بقيت  
أنا على رصيف أوروبا الباكية والجامعة العينية . « دون القونسو »  
سيرحل ، بعد أن أدخل « دالميرو » و « جاك » في مشاريع مثمرة ومربحة  
أما « ليونتين » فسوف تنزوي في قصر ايطالي مع زوجها . ولن يكون  
مطلقا لأي شيء معنى بعد الآن بالنسبة للذين أقاموا في المنزل رقم ٣١  
الكائن في جادة « بيتر » . لن يعود أحد ، كلا لا يمكن أن يعود أحد ،  
لأنها كانت هي ، « ماميتا » التي تعرف أسرار كل الكواليس ، التي  
كانت تستقبل الأقطاب والشخصيات الهامة تلمما كما تستقبل الخياطين  
والأميرات الشرقيات ، والتي تبتكر زينا جديدة بصورة مرتجلة وذلك  
بوضع فردة قفلز سوداء باحدى يديها وفي اليد الأخرى فردة قرمزية  
اللون ، والتي كانت تشتري من « فينيسيا » لا عقلا ، بل مصعدا زجاجيا  
لم يكن أحد يستطيع أبدا أن يجعله يصعد ولا أن يهبط ، ولكنها كانت  
تتأرجح فيه بعد أن عملت على تعليقها في سقف الصالون . كانت « ماميتا »  
هي التي لم تكن تخرج من منزلها إلا بأبهة اللباس الرسمي وبإقامة الورد  
وذلك لتخلب لب جميع الفضوليين الذين يتواجدون على طريقها بينما  
تسير في الشارع بخطوات صغيرة ومتسارعة على كعبى حذاء جميل  
مكسو بجلد السمك .

كان ذلك في باريس ، بعد خمسة وثلاثين سنة ، وبالصدفة  
في أحد الأحياء الوسرة ، أن ذلك الماضي الذي كان قد سرق مني أخذ يبرز  
فجأة من خلال جوّ آب ( أغسطس ) الثقيل ومن تحت عصا شخص  
مجهول أمرني أن أتبعه . نعم ، في باريس ، ودون أن أكون قد فعلت  
شيئا أو قمت بأي عمل كان لتحدي الشيطان وإثارته أو لابقاظ  
الأسباح .



« إذا لم تحترس من ذلك ، فإن بقايا الإنسان تنبعثر ، يا «إيزابيل»  
ولذلك أرسلت لنفسي إحدى الساحرات . وهي أفضل من أحد  
المتكرين ، صدقيني . وهناك تنبث رائحة لحم البقر المشوى على  
الذهب ... » .

ولبضمة ثوان ، اعتقدت أنني قد فقدت عقلي . كان ذلك بالتأكيد  
صوت « كاتشو » الذي كنت أسمع . فكيف دخل هذا الصوت إلى  
منزلي ؟ وبأية حيلة من حيل الحواة والمشعوذين استطاع التسلل من  
تحت باب بيتي ، ذلك الصوت الذي جهدت طيلة ستة أيام لأجد جسم  
صاحبه في أزقة الأحياء المجلووة . وكان هناك ما يدعو إلى الانهيار  
من القبط . والواقع أنني بقيت ملتصقة بالجدار دون أن أجرؤ على  
القيام بأية حركة . وفي حالة السكون التي عشتها ، رأيت بعين الخيال  
طفلا نظراته جوفاء ، كان بالأمس قد هرب مصرعا عندما رأني أدخل  
المنزل .

كلن لدى « كاتشو » صبيد خلصته ، مستعدين دائما للقيام بكل المهام  
والأعمال . وكان يشبه أولئك الأبطال الصغار الذين كنا نراهم في صور  
حرب إسبانيا حاملين بنادقهم بأيديهم . كان الصوت في مكان ما بالتأكيد ،  
تحت السرير ، داخل المكتبة أو وراء مشعاع التدفئة . ولكن لماذا فكرت  
بهرب إسبانيا عند وجود ذلك الطفل على عتبة باب منزلي ؟ كلن رأسي  
يلدور والصوت يلح : « إيزابيل ، لو تعلمين ... قد تنبت القرفة »  
تحت أذرع الساحرات . نعم ، في التجويف الكائن تحت ابطنتي ... -  
ولماذا لا تنبت زهور « أزهار الذهب » ؟ أسكتي ! هكدا صرخت بأعلى  
صوتي . كنت منهكة من التعب ، أكاد أجن غيظا بعد ستة أيام من  
البحث المضني كنت قد قرعت خلالها نحو مائة بيت ، متصنعة ابتسامة  
المتسولة . لم يكن أحد قد رأى ضريرا ولا كلبا ، ولا أي رجل تنفق  
أوصافه مع أوصاف « كاتشو » . وعندما كان يحدث لي ، لدى مروري  
قرب أحد المشايخ ، أن ألتقي بأحد العجزة ، يتبين لي دائما أنه ليس  
سوى إنسان بائس يسير في سبيله . وهأن ولدا متعلدا من صورة مأساة

قد تجاسر على أن يدخل إلى منزلي . صوتا كان جسمه قد اختفى . على  
الآ لا يكون هذا الجسم لم يسبق له وجود سوى في ذهني أي في ذهن  
إنسان منزور أنهكته شدة الحر .

« اسكت ، اسكت ... » .

ولكنها كانت تتابع السير في طريقها ، وهي تردد شعورا بالراحة  
والحرية ، مترقعة وساخرة .

« أيتها لجميلة بقايا الرجل ، خاصة إذا سبق له أن كان رياضيا  
يكفي أن نتأمل معالم وآثار الفن اليوناني . وان كنت أنا أكثر وأقطب  
وجهي ، فإن الرخام ، من جهته ، لا يكسر . وكانت إحدى صديقاتي  
تقول : « الرجل ، أنا أحبهم ، ولكنهم يبعثون السأم في نفسي ! وإذا  
بالمصادفة عثرنا على رجل جيد ، نكون نحن النساء ، الأقوى دائما . »  
فالرجل ، يا « إيزابيل » يظل على الدوام على وشك الانحلال والاستسلام  
ويكفي أن تندس يد امرأة بين كاحليه ( مرقوبيه ) ، أقول بين كاحليه ،  
حتى في الحال ... » .

ماذا يريد مني ؟ وما هي غايته من القيام بهذه اللصة التي لا يقوم  
بها سوى الخبثاء والأشرار ؟ كيف عرف « كاتشو روديكو » عنواني ؟ وقبل  
كل شيء ، كيف عرف من أنا ؟ « أترين يا إيزابيل — كان صوته يتابع  
دون أن يضعف — كان عليّ أن أنسى كثيرا من الأمور . مثلا ، أنني بكيت  
على جيتار لأوهم الناس أنني كنت شاعرا معذرا . ولذلك استأجرت  
ساحرة . ثم كان عليّ أن أنسى أنني كانت لدي الجراءة أن أمثل دور  
الأيثام ، نعم ، وحتى على خشبة المسرح ، في حين كنت أمضي أكثر وقتي  
بالقفز وراء كرة موجهة ضربات بالصدر إلى أمثالي ، من صفار الفتيان  
العليين حاملتي عصا « الهوكي » تحت سقف على شكل فطاء المدخنة .  
نعم ، أن أنسى أنني قد تفوهت ببعض الحماقات كقولي : « أن فتيات  
فلوريس يضمنن لأفخذهن خوقا من أن .. أعضاءهن التناسلية .. »

لخ . حسن . لا أهمية لذلك . لقد فعلت على الدوام ما أردته وكل ما أردته قد اندثر ومات . ومع ذلك فإن هذا البيت من فتيات « فلوريس » ليس لي ، فقد سرقتة . كنت قد سرقت أيضا « فزامة » كانت تقف منتصبة بملابسها وراء حاجز دارتي ، كانت تضع نظارة مفردة وتكتب شهادات القبور . وماتت هي أيضا . والمتزل رقم ٣١ ، شارع « بير » مع مصعد « مورانو » الذي كان هناك ، قد مات وبيت أهلي الذي كان يقع على ضفة النهر قد مات أيضا . والسهل مع عرباته والأراضي البور التي كنت أبحث وأنبش فيها إلى أن أعثر على بعض قعور الأواني الزجاجية لأجل النساء المذنبات اللواتي كن ينتظرنني في مخدعهن حيث كان مسحوق الرز منثورا بين قطع الأثاث المزينة أي المصنوعة بشكل يجعلها شبيهة بالأثاث طراز « لويس الخامس عشر » ، لقد ماتوا ، قعور الأواني الزجاجية والنساء المذنبات أيضا . وأخواتي ، الجالسات على شكل حلقة على الشرفة . انك لن تصدقني ، ولكنهن كن يدخن وهن متحطات ، ويشغلن بالسنارة ويطرزن وهن متحطات ، ويغتنب الناس وهن متحطات . يا الهي كم كن منفرات ويبعثن على القرف ! لقد متن بسبب ذلك . وقد انهار كل شيء ، فيما عدا أنت ، يا « إيزابيل » نعم ، مثلما أنت الآن هنا ، مستلقية على سريرك . فيما عدا أنت ، يا إيزابيل . . . » .

منذ برهة ، لم أهدأ أبدا . لم يسبق مطلقا لأي عين أن تفحصتني كما فعل صوت « كاشو » . اعترتني رعشة ، أخذ سقف غرفتي يدور فوق رأسي ثم هبط . وعندما استعدت وعيي ، كنت أسبح في عرق .

« أيتها الطفلة المسكينة ، لقد تفحصت الحي بكل دقة ، فلنا أعرف ذلك جيدا ، وتسكمت في الشوارع التي تنتشر فيها حلويات الأوساخ على الأرصفة . انها جميلة ، العاصمة في الصيف باكشاكها القلعة في الزوايا من أجل لقاحات وأوساخ الصماليك والمتسكعين . . . » .

لم يكن « كاشو » مخطئا . فقد بحثت عنه بينما كان يركب آلهة الجهنمية في جدرانني . ولكنني كنت سأحولها إلى نفث ، آلهة الجهنمية

تلك ، قبل أن تنال مني . كنت كتلة من الغضب قد تجملت في حلقي  
وظل الصوت مستمرا ، لم ينقطع .

« كنت أكره أخواني . لم أتم إلا مع بنات عمي . أما أمي فكلفت  
متدثرة على الدوام بملابس رئيسة دير من صنع « بواريه » . وكلفت  
تقوم بدورها كزوجة بصورة تنم عن السام والفضوع بينما كان أحد  
الألبانيين يقص لحية أبي . ولو تجاسر على ذلك لكان اصطحبه معه  
صاحبه الألباني في إحدى الرحلات . كانت تربكه كثيرا على المراكب  
ثلاث بقرات حلاّبة . يجب القول أننا كنا ثمانية ، الكل متساوون في  
الأصالة من حيث النسب . كان أخوتي يحفظون بالكثير من المكافآت  
المدرسية والرياضية والجامعية والميداليات الذهبية . بينما أنا ،  
كنت الفوضوي . هنالك دائما في المساكن البرجوازية في الريف ، غرفة  
خاصة للفوضوي . وفيها كنت أقيم . كانت مكسوة بالقماش الأخضر .  
كانت تتراحم فيها كراسي وثيرة توحى لي بأفكار ظريفة ومتأنقة . كنت  
أحلم برفع ملابس الفتاة في حديقة الخوري . أما أخواني فكان مدللون  
مزوّقات ومدلّكات ويوزعون وقت فراغهم بين الرقما والمزّين . انه لساحر  
عجيب ، ذلك المزّين . كن يخرجون من عنده جداول يكذبون يثرن الشهية .  
ولكن كلا ، كلا ، كن يشبهن نهرا كثيرا . أف ! لقد كن صفراوات .  
كان أبي يرأس المائدة العائلية بطريقة تنم عن البراءة والصراحة كانت  
تدخل الفرح إلى قلوب الخدم الذين كانوا يقفون خلف ظهره . لم  
أستطع أبدا أن أتعامل معه بجدية رغم وقاره . كان ينظم الأشعار ويكتبها  
على ورق بنفسجي وأرجواني ثم يخبئها في أكثر الأماكن مدماة للخجل  
والعار ، في مأوى الكلاب ، مثلا . كن لا يخرج إلا في عربة سوداء ، يقف  
فيها منتصب القامة تملأ ، ونظارته مثبتة جيدا على أنفه الأسباني  
الجميل .

« والحقيقة أن أبي كان يعتبرني ثافها وغبيا . كنت أحمل اسمه :  
« جوزي انداليسيو رودريكراي مورينو » . مسكين أبي ، كنت مع ذلك



اشعر نحوه بالشفقة . كانت خيبة امله مني كبيرة ولكنه لم يكن يرفع  
صوته مطلقا . كان يكتفي بتأنيبي بقسوة تتسم بالحنان . اكان يعلم  
ذلك ؟ كلا ، دون شك . اني كنت احبه . كان في بعض الاحيان ،  
يستقبلني بعد وجبة الغداء ، في غرفة التدخين ، ثم يقدم لي سيجارة  
روسية ويقهقه ضاحكا وهو ينظر الي قائلا : « انت حقا ابني ، هيا ،  
بكل ما اتصف به من صفات سيئة : الزهو والكبرياء ، الحساسية ،  
اللامبالاة . ولكنك انت تنطلق على هواك وتتصرف على سجيتك . »  
اعتقد انه كان يتأملني باعجاب وهو يتحدث من تلك الامور . ثم بحركة  
عصبية كان يركز نظارته وينصرف قائلا : « اندري ، يا كاشو ، لن  
يدهشني شيء بعد الآن . حتى ولا ان اكون قد انجبت شاعرا . فهذا  
العالم الجديد مجبول على قلة الحياء . انا لذي موهبة بلهاء تجعلني  
لا استطيع العيش دون ان اعمل . فلا تعتقد اني سعيد بذلك ، انه  
يكاد يقضي عليّ . » ثم كان ينطلق بسيارته السوداء القاهرة نحو  
واجباته الضخمة .

كم كنت اود ان اصبغ رفيقه ، ولكنه كان يمتنع عن توطيد اي  
شكل من اشكال الصداقة الحميمة مع اي كائن كان . كان صمته  
المطبق يجعل نساء الجوار يرتعشن من شدة الرغبة ، ومن الغضب  
اولئك الذين كانوا يعتقدون ان من حقهم ان يحظوا بقليل من صداقته .  
اترين يا ايزابيل ، لقد كان ذلك دون شك بسبب تلك القمة المدببة  
والعالية بحيث لا يمكن بلوغها والتي ترمعت تحتها ، اني عانيت على  
الدوام من نقطة ضعف حيل الساحرات . والنساء يدعمين البطولة  
ولا يبحثن في حقيقة الامر الا عن الحنان المريب والمشبوه لدى الضعفاء  
والعاجزين . وبالمقابل ، انت من اصل طيب . فقد هجرت زوجك  
الابله واحدثت عقدة في حياتك البسيطة الطيبة والهنئية تماما لتحصلي  
على استقلال مريح . لقد انتفضت على الملل الناتج عن رتلة المسرعات  
اليومية التي تتوالى كالماء الذي يجري دائما في الاتجاه نفسه . وانا  
اهنتك على ذلك . فهذا جيد ، جيد جدا . لا تدافعي من نفسك . انك



شجاعة ، في مسكنك الصغير الكائن في الطابق الرابع عشر حيث لا يعرفك أحد . أنت تعطين دروسا شبيهة . لفتيات يرتدين الملابس اللاصقة التي تضيق بأجسامهن . ان ماضيك اعتبارا من عام ١٩٤٠ ، هو صفحة رمادية داكنة لا تريد معرفة النص الذي تتضمنه . « ايزابيل » ، اسعلمي للحب ، انصرفي للعمل ، هنا ، هكذا ، وانت مستلقية على ظهرك . . . . .  
اتأملك . وافكر بعدم امكانية رؤيتك . كان بإمكانني ان ازمجك بركة من قدمي لو أردت ذلك ، فيما مضى . من الصعوبة بمكان اخفاء أي شيء من شخص ضئيل . فقد عرفت كل شيء عنك وذلك دون أن يكلفني ذلك كبير عناء . فانت تسكنين ذلك الحي منذ ثلاث سنوات . وقد هجرت زوجك تاركة اياه بين ذراعي أمك ، أو بالأحرى على ندي أمك لأن تلك التعيسة لم تكن تشعر بشهية الا لزوجها السكر الذي تنتظره ، والكأس بيده ، وهي ترتب الكلمات المتقاطعة في صحيفة « فرانس سوار » . انها تتنهد عندما يتعلق الأمر بابنتها . كما أن السيدة « كلاريس » تعرف ، رغم كونك ترتدين القمصان المدرسية ، أنك قد أصبحت شابة تتمتعين بالأصالة . وهي تواسي نفسها عن تصرفاتك الجنونية بالانصراف الى حل الكلمات المتقاطعة . وقد أحسنت صنعا بتخليك لها من زوجك . فهو يدبر أمورها ويؤمن لها حاجياتها ، ويحدثها عنك . واني لا أذكر أمك جيدا ، فقد كانت رائعة القوام ، تضع في أذنيها قرطين لهما شكل الجرس . كانوا يلقبونها بـ « نونو » . وكانت « ماميتا » تلبسها الأزياء الأندلسية . ولكن « دون الفونسو » ، من جهته ، كان يفضل أن يجعلها تبرز وتجلس له عارية تماما . ويجب أن تقول أنها عندما كانت تجلس له كموديل يكون في يدها دائما صحن في داخله تفاحة . وانت ، حالما كنت ترينني ، كنت تختبئين خلف أحد التماثيل أو بين طيات تنورة « فيكتور » ، هذه العاهرة التي قضيت عمري وأنا اتحاشاها دون أن اتوصل أبدا الى ذلك . انها هي التي نصبت لي فخا واصطادتني . لا تنقمني عليّ لاني اختفيت ، يا ايزابيل ، فقد كنت بحاجة للتفكير . واذا كنت ، رغم المظاهر ، قد انتهت بي الأمر الى الانزواء في محبس في الطابق الرابع ، فذلك لاني شخص عاقل .

وقد بقيت على الدوام أحلم بالسكنى في قرية صغيرة الوانها زاهية ،  
وردية اللون من أسفلها الى أعلاها كقرى منطقتنا ، قرية آكون سيدها  
يحبني فيها. الجميع . لقد قلت لك ذلك ذات يوم ، أني حققت أحد  
أحلامي ، بتلك القرية الصغيرة التي جعلت عبيدي السود الصفار  
يلونونها لي باللون الوردي الزاهي ، انهم أطفال الحي الذين يحبون  
أغنياتي .

والآن أعرف أنك سوف تطيعني . لقد كنت تراقبينني بدقة عند  
ما كنت أجلس الى البياتو في صالون جادة « بير » وانظر بفضول  
واشتهاء الى « ليونتين » . يا لك ، أنت من بعوضة غريبة ومضحكة .  
كنت دائما. أشعر برغبة شديدة بأن أسحقك عندما يحدث لي أن ألمحك .  
والآن أتى دوري كي أترصدك وأراقبك بدقة . أعرف أن لك وجهها  
دقيقا وشعرا أجعد ، وأنت تعطين دروسا للشباب في المنزل رقم ٢٠  
الكائن في جادة « الجنرال لوكيرك » لكي لا تكوني مدينة بشيء للأبله  
الذي تزوجتيه . دروس شيببية . وأنت تحيطين نفسك بالحدبلوات  
والمسلومات اللواتي تعلمينهن البقاء شابات وأن لا يصبحن عجائز .  
ونتساءل لماذا كل ذلك . فحمدا لله ، لن تتمكني من أن تمنعهم من  
الموت . وبالا انتظار فان معهد (N. P. V) يتيح لك مزيدا من الرضى  
والمسررات . انه لأمر جميل. الا يتقدم المرء بالعمر والا يصبح عجوزا .  
وأنت ، حقا ، كم عمرك ؟ ثماني وعشرون ، ثلاثون ، ثماني وثلاثون ،  
أربعون ، خمسون ؟ بالتأكيد ليس أكثر من ذلك . الا اذا كان الزمن  
قد مرّ وانقضى دون أن يلامسك . ولكنه قد مرّ وانقضى مع ذلك ،  
وعلى أية حال . وأنا ، كم يمكن أن يكون عمري ؟ ولكن لا أهمية لذلك ،  
فأنا عنصر سيء . والعناصر السيئة ليس لها ضابط أو معيار . وفمك ،  
أستطيع تصويره ، انه مالح كغم الأطفال . وجسمك يتمتع بشفافية  
شديدة ويكاد يكون غير محسوس . هيا ، اخلمي ملابسك .

وصمت الصوت ، حينما بدأت اعتاد على ضحكاته المكتومة .  
وتصاعد في داخلي شعور بالمد والجزر ، فأصبحت كأنني مطمورة داخل

مغارة مظلمة . لم اكن اعرف شيئا من تلك الآلات التي يسمونها مانييتو ( مولد كهربيسي ) ، وترازيستور ، ولا عن أية أداة أخرى للتعذيب تستعمل في البيوت أو في الثكنات . كان المد والجزر يتماظم ، مهددا بخطر جسيم ، أخذت اتحسس الجدران ، اتفحصها ، وافتشها ، عندما برز فجأة نتوء تحت أصابعي . ضغطت عليه بحيلة وحذر في البداية ، ثم بكل قواي وفي الحال سمعت شخرا تبعته حشرة . وكانت تلك هي النهاية . أدت حلمة الثدي نحو اليسار فتصاد منها هذه المرة صوت أجش مبحوح . وكان هنالك تنهدات يتخللها نقيق متكرر . كان الصوت عند قدمي ، يتلوى ويلتف كالأنفوان حول مرقدي . واعتقد اني سقطت ثانية على ظهري مرسله انين امرأة مشبعة وراضية .

في السادس من آب ( أغسطس ) لم يكن الحر الشديد قد خفت حدته ، ولم اكد اضع قدمي خارج المنزل بقصد شراء بعض المواد التموينية ، حتى دفعتني ثانية الى قاع المدينة ورائح العرق المزوجة بالرياح المنطلقة من الاسفلت الشديد الحرارة .

كان هنالك بعض لاعبي الكرة الذين يكتنفهم البخار الرمادي ، يتابعون مبارياتهم بحركات تشبه حركات الناقهين . والكشك ، وعلم دار العمدة ، والسيارات المصطفة على طول الرصيف ، بدت لي فجأة أكثر مدعاة للشفقة من أوان قديمة من البورسلين ملقاة في ركن قصي من أحد المستودعات . وكانت أعضائي ، بعد ثلاثة أيام من التوتر والارهاق ، تبعث في جسمي الألم الشديد ، وبينما كنت أعب الساحة، لامسني أحد راكبي الدراجات . لم يكن هذا الشخص من جماعتنا . واليوم ، كان أطفال حديقة « الأسيران » يلعبون تحت نظرات خفيفة يلقيها الناس عليهم . وقبل موعد العطلة بقليل ، لاحظت وجود رجال يرتدون الملابس الفامقة اللون ، كانوا يتأبطون حقائب انيقة ، بل وسائح أو اثنين قد ضلا طريقهما . ولكنّ حينما كان في حالة من الغيبوبة في

صباح ذلك اليوم الحار . كان وحده تمثال « ميفيل سرفيت » (١) الواقف بين السلاسل المحيطة بالرخام ، يحتفظ برفعته ومركزه العالي : « ١٥١١ - ١٥٥٣ » ، ميفل سرفيت ، أحرق حيا - وتحت هذه العبارة المكتوبة على القاعدة ، أضافت يد منصفة بالقلم الأحمر مايلي : « من قبل الكنيسة » . وبينما كنت أسير بخطى ثابتة في شارع « موتون دوفيرني » ، بدت لي صورتني الظليلية التي كانت تعكسها واجهة بائع البورسلين ، أقل حجما مما كانت عليه قبل احتجازي .

لم أعرفها في بادئ الأمر : علمت فيما بعد أن السيدة « سيرافين » ، بائعة الألوان ، قد أدهشتها مشيتي التي كانت تشبه مشية النائب . ونادتني فلم استجب لندائها . لم أكن ، والحق يقال ، متأكدة تماما بأنني حية ، حتى ولا أنني كنت كذلك عندما كنت ملقاة على سرير ، لا أنهض إلا لأسد رمقي بقليل من الشاي والبسكويت ، دون أن أهتم أو أشغل بالي بالرسائل التي كان يدهسها البواب تحت باب غرفتي . وعلى كل حال ، ربما لم يكن الموت سوى نعمة وحالة من العفو يبلى بها الجسم تدريجيا ليسمح للماضي أن يطفو على السطح . كنت قد تعلمت كيفية تنظيم الصوت الذي كان قد حبسه « كاشو » من أجلي وأثناء الليل كما في وضوح النهار ، كانت آليته تستجيب لضغوط أصابعي . كانت الأيام تمضي دون عثرات ، وشيئا فشيئا أخذت الكلمات التي كانت تصدمني ، تصبح ضرورية بالنسبة لي . كان الصوت يخضع لمتطلباتي . وكانت الصور تبرز حالما أشعر برغبة بذلك وكنت أعود فأصبح فتاة صغيرة حتى في ذاكرة الآخرين . كان صديقي يستعيد لهجات جنسه ، في الشعر أو في الموسيقى : « ان فمي ممتلئ بالرمل . افتحوا صدأ رياتكم . هنالك عصفور يصوت حتى الموت - ومن جنة النعيم هذه ، التي تعلمت التعرف أكثر من مرة على غروب شمسها

---

(١) « ميفيل سرفيت » : طبيب ومعلم لاموت إسباني ، ولد في عام ١٥١١ وأحرق حيا في جنيف عام ١٥٥٣ بتعرض من « كاللان » . - المترجم -



المرهق ، كان يتصاعد غبار شيء يسد لي أنفي ويسبب لي أحيانا نوبة  
سعال حادة .

كان « كاشو » يلهو في بعض الاوقات باستعادة ذكرى ماض من  
العنف كان يحيله اليّ بصفحات متتالية . ودون تمهيد كان يتخطى عن  
تحركاته وتنقلاته السريعة اثناء شبابه ليدخل في طفولة امرأة لم يكن  
قد تنازل مطلقا ان يلقي نظرة عليها . حينئذ كانت تمايل جادة « بير »  
تبرز حية من قبورها ، وكذلك السيدة « كلاريس » في فستانها الازرق  
لسي . و « دون الفونسو » يعطّر لعينه أمام امرأة صغيرة ، وابنتوه  
يزرعون ممرات المنزل جيئة وذهابا صارخين صراخا وخشيا : وكان  
صوت « كاشو » يعود لادعا وحريانا : « في ذلك البيت الذي ولدت  
فيه ، كانت « ليونتين » هي التي اشتبهتها في بادئ الامر . لم يكن  
لها عضو تناسلي . أنت لا تعرفين شيئا عن الهوات المفرية والمثيرة  
للرغبة والشهوة ، يا ايزابيل ، ولكنها صرّحت لي ذات مساء بصوت  
ضعيف : « أريد ان تتيح لي مشاهدة عملية اعدام . » كان يتخلل مينيها  
اللتين تشبهان عيني السيدة العذراء ، تيارات سوداء . فأجبتها :  
« بالتأكيد ، اعتمد عليّ » .

رغم ما كان يبدو من قسوة على آلية الآلة التي ووصفتها في بادئ  
الامر بأنها جهنمية ، فانها كانت تستطيع ان تصبح رقيقة ومتساهلة  
وبدأت اعرف نوابضها ودوافعها . وهكذا ففي كل مرة كنت اتوصل الى  
بديد الاشباح التي كان « كاشو » يرغب فرضها عليّ ، والتخلص منها  
كانت تبرز فجأة وبقوة بعض الصور الملونة والفاتنة من بين مجموعة من  
المليق : ذيل ثوب « ماميتا » ، ابرتها وهي تثقب قماش مريلبة .  
كنت اتابع تحرك الابرة عبر العديد من الطيات والوصلات . والالم الذي  
أخذ يسري تحت شعر السيدة « مارتينيز دو آكونا » والذي كاد  
يقضي عليها ، كنت أشعر به . وعما قريب يمكن ان تصبح هذه المرأة  
باردة الجسم تماما كاي ميتة اخرى .



ورقم يقطتي الشديدة ، كان صوت « كاشو » في كثير من الاحيان  
يغير الموضوع دون أن أستطيع منعه من ذلك والمريلة المطرزة ، وذيل  
الثوب المخملي ، كانتا تدوبان ، وتمحي الصورة . كان الصوت يقول :  
« فيكتوار ، فيكتوار » . وكأنه يتحدث عن السم الزعاف . كنتما  
تذهبان سوية الى القديس . كانت هي تسير بسرعة الفرقاطة ، وكنت  
أنت تسيرين كزورق صغير من الورق . ولم يكن هنالك بالنسبة لها  
سوى الصرير ، وكان لساقها مشقوقاً ومتشعباً كأصابعها . ولم أستطع  
أبدا القضاء عليها ولا الاستغناء عنها . ولكنك لا تعرفين شيئاً عن هذه  
الامور يا « ايزابيل » ، قالجرائم الصغيرة غريبة عنك . فهل بإمكانك  
أن تمنحيني ثانية طعم الحرير ومحبه .

طعم الحرير ومحبه ... ماذا كان يعني بذلك ؟ لم أكن اعرف  
شيئاً ، بالفعل ، عن تلك الهوات الجلابة والمثيرة للرغبة والشهية ،  
ولا عن تلك الجرائم الصغيرة التي كان يتحدث عنها .

قال مدمماً : « لقد سلورني هاجس « فيكتوار » . وكم كانت  
« فيكتوار » ترغب أن أفرغ كما يفرغ كيس عتيق تكون قد دفنت فيه  
كلباً ميتاً أو أية قدارة أخرى . كانت تعلم أنني كنت أشتهي « ليونتين »  
وأنني كان عليّ أن اخترع باستمرار بعض الرذائل والصيوب كي أوقف  
لدى اختها ما يشبه الرغبة . كانت تعلم أن « ليونتين » كانت فائنة ولكن  
في « بيلاريتز » كانت هي ، « فيكتوار » الصغيرة ولا أحد غيرها ، التي كنت  
أأملها بأعجاب من تحت فستان « ماميتا » بينما كانت هذه تتمطى  
وتسترخي وهي تنتظر ولادتها . من أين أتت ، ثمرة ذلك البطن ؟ ..

كانت الروايات الأكثر تناقضاً تنتشر وتروى عنها ، ولكن بالنسبة  
لي ، إن كانت من أمير أو من رجل عبقرى ، فاني كنت أعلم أنها سوف  
تفتتح في الشمس دون أن تساورها الوسوس ، وكنت اعرفها . كانت  
« ماميتا » تسخر ممن يعجب بها . وتقول ضاحكة : « إن طفلي ،

حالمًا يولد ، سيجعلك ترى منه جميع الألوان . كان « دالمرو »  
و « جاك » يقدفاني بأواني ملأى بالماء على رأسي حالمًا يفاجأني وأنا  
أعبد . « إن » الجنين قد سحره ! « وكانت « ماميتا » تلامس بلفظ  
رقبتي من الخلف . « يا للشجرة الصغيرة المسكينة ، لسوف تجفين  
وتيبسين بسبب بقائك ساكنة هكذا ، دون حراك » . والواقع أن الأمر  
اقتضى مني بذل الجهد خلال سنوات كي أبلغ المستوى الجمالي الجيد ،  
أو بلاهة الأبطال ، وذلك لكي تقلع سيدة أحلامي من أرسالي لألعب في  
الحديقة . ويجب القول أنني في قرارة نفسي ، كنت أعرف أن ذلك الشوط ،  
بل ذلك السباق ، مهما عملت ، فاني لن أربحه أبدًا .

كان يمكن أن يكون « كاشو » قاسيا ، ولكنه في كل مرة كان  
يلمس في جسدي موضعًا مؤلمًا ، كان يبدأ في الحال يروي شقاوات  
شاعرية قديمة ، وكأنه بأسلوبه اللطيف ، ليس سوى كلب صغير .  
كان يترجم بعض أغاني بلاده التي كانت تصبح حكايات تروى على أنغام  
الجيتار : « السمبا في بلادنا تشبه عدو الحصان في السهل الفسيح » ،  
هنا ما كان يقوله أيضا : « إن » رائحة القمح والذرة الصفراء تفوح من  
حكاياتنا . وهناك كذلك « Les Tristes » ( المراتي والقصاصد  
الحزينة ) (١) وهذه تصلنا مع ربح الشمال ، الذي يعلن عن نوبات  
الغضب الكبرى . وفي الوقت الذي كان فيه الرجل يجلد الجلد الخام  
ليصنع منه الزنابير ، كانت المرأة تدير « كأس » المتة وتنقلها من يد  
إلى يد . كانت مهمتها تقضي بتسخين الماء ، تلوثة لتأمين راحة ورفاهية  
العامل ، وتارة من أجل ولادة طفل ، سيكون له ، هو أيضا ، الحق  
بالخضوع على حصان .

---

(١) « Les Tristes » ( المراتي ) : قصائد مؤثرة نظمها « لوفيد » أثناء إقامته  
في « توميس » . وهو شاعر لاتيني ولد في « سلومونا » ( ٤٣ ق م - ١٧ م ) وكان  
شاعرا لامعا ، سهل العبارة ، أبعده إلى « توميس » وهي مدينة « كونستانزا »  
الرومانية العالية الواقعة على البحر الأسود ، وقد تولى الشاعر فيها .  
- الترجمة -

كان « كاشو » يكثر من سرد القصص البسيطة بصوت حزين ، ثم بشكل مفاجيء ، كان يبسط جناحيه ويطير مطلقاً نحو القمم ، حيث قوانين الزمن وقوانين الوزن والجاذبية الأرضية تصبح مختلفة عن قوانيننا . وإني لأذكر قصة مراهقين كانا قد اكتشفا قصراً مهجوراً في أرض بور مهجورة ، وكذلك قصة شاب كان مفرماً بثلاث أخوات كانت تتدخل أحدهن في الأخرى عند حلول الغلام ، كالدمى الروسية . كلن « كاشو » يستطيع أن يخترع ، أن يتحدث أو يفني ، دون أن ينال أبداً قسطاً من الراحة ، وكانت حياتي ، تمضي يوماً بعد يوم ، منسوجة بكل فرزات وحبكات سجادة بربرية . ولكن ، ويا للأسف ، كان عليّ ، ذات يوم ، أن أضع رجلي على الأرض ، وأنزل إلى الشارع ، ومجاهاة حر المدينة ، أي أن أعود فأصبح وحيدة مهمومة ، تقوم بالمشاوير لتقضي حاجاتها .

أترك لكم أن تتصوروا مبلغ يأسى عندما عدت إلى منزلي في نحو الساعة الثامنة عشرة ، ودون أن أمضي الوقت بخلق ملابسي ، أسرعت إلى الحطمة السحرية ، أدرتها في كل الاتجاهات ، وأدرتها ثانية دون أن أحصل منها على صوت .

لقد لعب عليّ « كاشو روديكز » لعبة جديدة ، هي لعبة ، بل حيلة الصمت . وهذا الصمت ، كنت أسمعه . كان هناك باب يفتح محدداً جلبة قوية ، كانت جارتي تمناني من آلام الوضع ، وكانت الصحنون تتساقط عن الرفوف . وفي الشارع الرئيسي كانت السيارات تصطدم ويدخل بعضها في البعض الآخر والطيور ، نعم ، الطيور ، كانت تثقب لي أذني .

ومرت الساعات الواحدة بعد الأخرى ، وكذلك الليالي ، دون أن يقبل الصوت بالرجوع . وذات صباح ، بينما كنت أفتش من جديد جدار فرفتي ، أدركت أن جهودي لا جدوى منها ، وأن الصوت كان قد هجرني : ولم تكن تلك حيلة أو مهزلة « كاشو » الأولى .

حينذاك مزمت على الذهاب للبحث عنه . ولكنني هذه المرة كنت  
مطلعة على سره ، سر قرية صغيرة وردية ملونة بلون الدم .

لا أحد يعرف زقاق « الزهرة » La Fleur المعلق . إنه  
أضيق من دهليز في أحد السجون وأكره رائحة منه . ومع ذلك ، فاني  
في ذلك اليوم ، بعد مشوار طويل غير مجد ، قررت الدخول اليه .  
وبعد مسافة خمسة عشر مترا تقريبا ، لمحت الباب الكبير الذي كنت  
أبحث عنه والذي ظلت صورته عالقة على شبكية عيني من أيام مشاويري  
الأولى ، وذلك دون شك بسبب فخامته المزيفة ، وسط تلك القدارات .  
ترددت بدفع الباب ، الى تلك الدرجة كان المكان التي كنت موجودة  
فيه يجعلني أفكر بعمل أحد المازحين الذي يمكن أن يكون قد حفر  
سردابا في ذلك الممشى الواقع في الطابق الرابع حيث كان يقيم منذ  
خمسین عاما ساعاتي ، وخياطة ، كما كان يوجد فيه مكتبان لدفن  
الموتى . ولم أكن أتصور أنه يمكن أن يوجد خلف حاجز تملوه دالية  
برية كبديل لزهور الياسمين ، ومع ذلك كنت أعلم أن تلك هي ما كانت  
تسمى القرية الصغيرة ، تلك القرية التي كان يعدني بها « كاتشو رودريكر »  
بين حكايتين سيئتين .

لم تنخفض درجة الحرارة . كان الوقت ظهرا وبقيت جامدة على  
عتبة عالم جلدت اليه رغما عني وكان يبحث القلق في نفسي . وعندما  
دفعت الباب ، لم يسمع أي نباح ، كان هنالك مساكن ، أو بالأحرى  
أكواخ ، موزعة على صفتين ، أكثرها مردان بأحواض زرعت فيها  
الزهور . كانت مطلية باللون الوردي ، وهذا اللون الوردي كان غريبا  
جدا لا يتناسب مع منظر الواجهة المهدمة والأسطحة التي تغطيها  
الأعشاب الكثيفة . كنت أشعر كأنني موجودة في أحد أحياء إيطاليا الدنيا  
وأخذت أسير بخطوات حذرة بين تلك الجدران حيث كانت النوافذ  
والأبواب مغلقة . لم يكن يبدو أن أحدا كان يشعر بوجودي . وفي لحظة  
معينة ، اعتقدت أنني محتجزة في مدينة مهجورة ، بل وميتة . وأخذت



مياه لزجة تنزاق على خدي ، كنت عند ذلك قد أخذت أفكر بالعودة من هناك عندما هتف بي صوت : « من هنا ، ادفعي ... » وألقيت نفسي أمام منزل مؤلف من طابقين ، كان يبدو جميلا . وكان « كاتشو » الذي ما زال متيقظا يترصدني ، قد عرف وقع خطواتي . دفعت الباب ودخلت إلى قاعة غارقة في الظلام ، ولو لم يهديء الصوت من روحي ، لكنت أخذت أصرخ بأعلى صوتي ، قال الصوت ، « تبدين كفتاة صغيرة . نحن وحدنا هنا . والجميع نيام ، الجميع ما عداي . الدرج أمامك ، بل تحت أنفك ، هيا اصعدي ! » ...

كان « كاتشو » يصدر الأوامر ، وأخذت من جديد أنفاس بحرية . كان الصوت حازما . بعد فترة وجيزة لم يعد هنالك أثر للدوج . توقفت . صمت الصوت وشمرت بأنه يجب علي مراعاة تعليماته دون أن أطرح أبدا أية أسئلة . « لا تخافي ، أنا مستقل على سريري ، وهذه هي غرفتي . ويوجد من كل شيء في غرفتي : الحرب ، اللذة ، الرسائل والنصوص المكتوبة بيد أصحابها ، نعم ! رسائل أولئك الذين آمنوا بي . يجب أن يكون دائما لدى التوايغ وأصحاب المبقيات نقاط ضعف حيال الناس التافهين . وهناك الحيوانات التي أحبتها ، أخواتي و « فيكتوار » . « مشيت في الغرفة الفارقة في الظلام ، سعيدة جدا لشعوري بأن « كاتشو » يرغب بتعليمي . كنت أعرف من زمن بعيد أن براءتي كانت توقظ خبثه ومزاحه . وبعد برهة ، أخذت أميز بعض الأشكال وأدركت طبيعة بعض الأشياء . تحسست بأصبعي صندوقا معدنيا صغيرا وضع فوقه تمثالان صغيران . حدثت طقطقة وأخذت بعض اللص ترقص وتلور . ثم قفز على ذراعي شيء مغطى بالشعر . قهقه « كاتشو » ضاحكا : « هذا ليفار (١) ودبه » . شعرت بشيء يخمشني في جبیني . لا شك أنه فسن دردار عالق في درفة النافذة . كسرت منه

---

(١) « سيرج ليفار » راقص ، واضح والمصات ومدرّب رقص فرنسي ، ولد في « كييف » عام ١٩٠٥ . الراقص الأول ورئيس فرقة الباليه في الأوبرا منذ ١٩٢٩ . - المترجم -



قُطْعَةٌ وقربتها من أنفي . كنت أشمُ عبر رائحتها حزن العذائق القديمة .  
لمست لوحة مثبتة في إطارها . منظر أم تجريد ؟... ربما لم تكن سوى  
صورة إحدى القريبات جالسة على أريكة كبيرة . كان « كاشو »  
صامتا . كان إيقاع تنفسه يدلني على اللذة التي كان يشعر بها لادراكه أنني  
أقوم بلعبة الاستغماية في منطقة نفوذه . وقال : « إن اللوحات التي على  
رفق المدفأة هي من عمل « ماكس » . هذه بريطانيا . بريطانيا الحقيقية .  
وعلى الجدار الآخر ، « فيغاري » ، مخبر حسن التهذيب كان يرسم  
شياطيننا . آه نعم ! ذلك التمثال النصفي الكائن على الحامل ، هو  
لزوجة شاعر — أو بالأحرى لنصف زوجة شاعر . كان قد قطعها في ليلة  
غضب . كنت قد أردت ادخال السرور الى قلبه باتقليدي نصفها  
أو بالأحرى نصف نصفها ، وبإعادة صبها في قالبها ، ولكنه لم يرغب  
بذلك . كانت هنالك الحرب في بلاده . ففضل أن يشتري سلاحاً . ثم  
ودع الجميع قبل أن يسافر ليؤدي واجبه . كان ذلك البائس يرتعد  
خوفا . اشترى معطفا من الفرو وذهب ليقيم وحيدا ، في غرفة في أحد  
الفنادق ، هكذا متدثرا بالفرو . يجب القول أن الفصل كان فصل الشتاء  
وإن البرد كان قارسا جدا ، خارج اسبانيا .

وبعد مرتعشة لمست التمثال النصفي الذي كان « كاشو » يحدثني  
منه فشمرت بالفثيان . فقد انفرس أصبعي في شيء لزج . كان هنالك  
قرطان يتدليان على كتفي التمثال المذكور ويلامسان الثديين بحيث كان  
بإمكانني أن أروز بل وأن ألتزع قليلا من الشمع ، ولكنني سحبت يدي وقد  
شعرت بقرق شديد . كان صوت صديقي أجسا ، وبينما كنت أتابع  
رحلتي على جدران غرفته ، اصطدمت أصابعي بشيء ضيق ومسطح ،  
تابعته ، فاكتشفت شكلا كان يتناول نحو الأعلى متوسعا . لامست الشكل  
باحترام فطري . نفوه « كاشو » قائلا : « نعم ، مادة جميلة . فائتال  
عرف كيف يستغل عيوب العاج ليثبت الساقين على الخشب . المسامير  
تعود للقرن الخامس عشر ، وكذلك الدم . والدرامان كسرتا ، ثم أعيد  
وصلهما بواسطة المسامير ، أما الصليب فهو حديث . وكلما سارت

الأمور بشكل أفضل ، كلما عمدنا الى التعذيب . كنت أعلم أنك يمكن أن تحبى الرب ، في هذه الغرفة التي سجنته فيها . « لم يكن هناك أي شك بأن الضرب كان يتابع حركاتي بكل دقة وكنت أعرف أنه كان يطلب مني أن أتابع البحث والتفتيش . كانت تفوح في الغرفة رائحة الدخان البارد .

كانت كل النوافذ مغلقة ، في القرية الصغيرة ، والزهور التي كانت لا تزال تحيط بما بقي من المنازل ، قد ذبلت . « لا تخافي ، فالجيران هنا ، يعانون من الحر الشديد . وقد دهنت أكواخهم كيفما اتفق وخربشتها ، وكنت قد دلتهم ، طيلة سنوات عديدة ، والآن فهم ينامون من شدة الجوع . ولا تزال باريس عاصمة الأرجنتين ، ولكن بلادي لم تعد سوى كيس عتيق من العفن . اقتريني يا إيزابيل . لقد حان موعد حقني بالابرة . وأنا مصاب بمرض خطير . فلن أستطيع المشي بعد الآن . أحضري الصندوق الصغير ، نعم ؛ انه على الخزانة الصغيرة . والعلبة المعدنية ، وهناك ... القارورة ، زجاجة الكحول الصغيرة ... لا تخافي ... القارورة ... هذه هي ، برافو ! اكسري القارورة ، نعم على الرخامة ، اكسريها ... » . كان صوت « كاتشو » منقبضا ، قويا أكثر مما ينبغي ، ويكاد يكون انثويا . ولكن لماذا كان علي أن أطيعه . فلو كان حقا بحاجة للعناية والمعالجة لكان أحدهم تكفل بالقيام بذلك . تحسست الخزانة الصغيرة ، القارورة ، والمحقن . كان « كاتشو » يثن : « أسرمي .. » ولكن كيف يمكنني أن اعترف له بأنني أجهل كل شيء من هذه الأمور ، وأنني لم يسبق لي مطلقا أن لمست محقنا ، وأنني أكره كثيرا كل أدوات معالجة الأمراض والالام . « لا تخشي شيئا ! أسرمي ! لقد رأيت بالتأكيد كيف كانت « ماميتا » فيما مضى تدس يدها تحت ملابسها الداخلية دون أن تكف عن الابتسام . لقد كلفت قوينة جدا حيال هذا التنوع من الأمور والأعمال . لم أعد أستطيع الاحتمال ! « كان الصوت قد أصبح شيئا . وجدت العلبة وكذلك القارورة . وأمادتني رائحة الكحول على الفور الى المنزل رقم ٣١ ، شارع « بير » ، والى الصالون الصغير حيث

كأنت « ماميتا » تدس فعلاً يدها تحت ملابسها الداخلية . « افتحي اللعبة ، هيا بسرمة » وكان هذا الصراخ الأخير مؤثراً جداً لدرجة أنه حطم ما بقي لدي من وسائل الدفاع ودفعني ، والمحقق بيدي الى قربه .

لم أعد أقاوم بعد ذلك وانحنيت على صديقي . جسييت ساقاً ، ركبةً ، خاصرةً . غرست الإبرة في البشرة . فقال : « هذا حسن » ثم أعتزته انتفاضة شملت كل جلعه الأعلى ، تبعثها تنهيدة عميقة جداً . تمدد جسمه ، واسترخى ، ارتفع ذراعااه وجلباني . « لا تستفري ولا يدهشك ذلك ، كنت أعرف أنك ستحضرين . سوف أجعلك تتذوقين حبي لك ، يا إيزابيل ، وبعد ذلك تستطمين الانصراف » . لم يعد صوت هذا الذي أطمعته سوى شبكة . « لقد أتت « فيكتوار » في الشهر الماضي . وغمرتني بالزهور ، ولكنها رفضت أن تحقني بالدواء . فهي تحب أن ترى الآخرين يتألمون . وقد فتحت النوافذ لكي يسمع الجميع صراخي . إذ أن « فيكتوار » كللت على الدواء تصعب بالمشاهد السيئة . فهي لا يساورها الخوف ولا تجيد الارتجاف . فالارتجاف هو موهبة الشعراء . خلدي يدي يا إيزابيل » . لم يعد « كاشو » يتحرك . التصقت به ، أقيت رأسي على كتفه . أخذت يدها تعبت بشعري ، أطبق فمه على فمي ، وأخذ يتزايد ضغط ذراعيه حول خصري .

« لا تدهشي لغياب « سكوت » (١) . لم يكن قد بقي لديّ ما أطمعه إياه . وكنت أسمع أحياناً يبكي في الليل . ولكن لقد انتهى الأمر ، اني لن أستطيع المشي بعد الآن . وطالما أنت هنا ، فهذا أفضل » : كانت يدها الرجل تطيل ملامسة ظهري وتعبت بي ، وشعرت شيئاً فشيئاً بعدوبة تغمرنني . ولم أكن لأغير وضعيتي مقابل أي شيء في العالم . « اني أعرف منك أكثر مما تظنين ، يا إيزابيل . لقد كنت أنت الدفء ، وكنت الوجه

---

(١) « سكوت » : هو الكلب .

الآخر الماكس للكذب . فانت تمثلين كل ماكنت أحلم به ، وكل ماكنت أشعر بالجوع منه .

وأنا مستلقية بجانب « كاشو » ، كنت أصفي اليه ، وقد كتمت أنفاسي . كان لجسمه المبلل رائحة الحرير . فتحت قميصه وأدخلت يدي في الفتحة . أسندت فمي على صدره ، وفككت أزرار ملابسه بينما كان يداهب خصري باحدى يديه ويباعد بين فخذي بيده الأخرى الى أن قلبني على بطني . لم يعد الزمن يمضي فقد توقف . كان جسمي مثبتا على جسم تمثال على قبر كنت أكتشف ماتحت ابطيه وأعضائه التناسلية . كانت الأشجار تنبت في المدن . وبعض الشوارع تحايرنا وتمر بنا ، وكان هنالك نهر تغطيه المراكب . كنت مستلقية فوق جسم اشتهيته من زمن الطفولة . كنت أشم أنفاسه ، أقضم فمه . وفجأة أمسكت عضوه ، رفعتة الى أعلى كالعمود وأدخلته في جسدي ليبقى هناك الى أن انفجرت الدموع التي انبثقت من نظرة صماء وغمرتني .

أرجو الا يسألني أحد عما حدث بعد ذلك . لقد نسيت كل شيء . أعرف أنني بقيت زمنا طويلا أترقب عودة أنفاس « كاشو » ، وأنا أنسم حتى آخر قطرة من تلك المتعة التي منحني إياها . وأعرف أنني غرقت بكل فرح ثم طفوت على السطح وذبت من جديد وفي كل مرة ، كنت أترجع السعادة من ملموم مقضي عليه ابتلعتة بشراتي .

أرجو الا أسأل عما حدث بعد ذلك . لقد وجدت جثة في منزل يقع في آخر زقاق قديم . وقد علم رجال الأمن الذين استدعاهم الجيران أن امرأة مجهولة كانت قد حضرت الى زقاق « الزهرة » ودخلت الى منزل السبد « رودريكز » ، الشاعر . فقد قام الجيران بواجبهم . ولكن الأوصاف التي أعطوها من المرأة الغريبة كانت غامضة : أنها بالأحرى شقراء ، ليست مسنة ولا شابة ، لا طويلة ولا قصيرة . وقد انصرفت واختفت بسرعة كما تتبدد الفلزات في الهواء ، ولكن لا تسألوها فيما اذا كانت قد شعرت بالخوف أو بالألم . فهي لا تعرف شيئا عن ذلك . لقد قنلت



رجلا ، أنا ، « ايزابيل يود » ، وأمترف بذلك . وان كانت هنالك تلك الحقنة ، فهل أنتم متأكدون بأنها قد أوقفت قلب ذلك الرجل ؟ . ربما كان يريد العيش ، وأن الحقنة لم تكن مخصصة للاطالة سروره وبهجته . وربما كان يريد العيش متجاوزا يؤسه .

تأملوا ، مهما كان قرار العدالة ، فاني حرة وسوف أظل أبدا حرة ، لدي ذكريات يجب ان أفرزها وأستعرضها ، كميات كبيرة من الذكريات ، ولدي صوته . ربما تكونون أنتم الذين دسستم ذلك الصوت بين سريري والجدار ! فانا ممتنة منكم من أجل ذلك . لن تتأخر « فيكتوار » بالحضور . فهي لا يمكن أبدا أن يفوتها حضور دفن أحد الشعراء . وملاوة على ذلك ، ألم تكن قد تزوجته ، « هو باللات ، كاتشو رودريكر » في الأرجنتين فيما مضى ؟ لست خائفة ، كلا ، لا تقلقوا فاذا كنت أبتسم فذلك لأنني لا أشعر بالخوف . وكاتشو معي ، هنا باللات ، وهو بخير ، انه يضي ، بل ويقهقه ضاحكا في بعض الأحيان . لقد خفت حدة الحرارة ، فلماذا يمكن أن أشعر بالخوف ؟

تموز ( يوليو ) ١٩٧٧





# السيدة القصيرة

## ذات الرداء الأسود

دفعت السيدة « ايلزا » الباب الخارجي ، اجتازت صحن المدار ودخلت الدارة ( الفيلا ) . وحالما أصبحت في منجى من الشمس ، وقفت أمام مرآة ونزعت قبعتها . كانت الردهة ، رغم فخامة أثاثها الواضحة ، مريحة وحفيفة . وكانت رائحة الحريف تفوح من الكتب القديمة الموجودة في المكتبة . كانت السيدة « ايلزا » تعيش طيلة السنة في البيت الذي ورثته عن والدها ، عضو مجلس الشيوخ : « رونديني » . وكان هذا البيت يقع بالقرب من أحد الشوارع الرئيسية . كان هناك في الخزانة الزجاجية ، بين القوارير ، شيء يكاد لا يرى ، سن طفل أو رصاصة استخرجت من جرح أحد الأبطال ، كان شيئاً ظريفاً من الأشياء الغريبة التي تشير الفضول . وعلى الجدار ، فوق الموقد ، كانت قد توارت الصور التي أخذت في العطل والاجازات لتحل محلها صورة بارزة لرجل ضخم يتحلى بابتسامة مريضة وبشارب صفف على الطريقة الإيطالية . وعلى ذلك الجدار نفسه ، كان هنالك صورة منفصلة عن إطارها لعروس برفقة رجل قصر القامة يبدو عليه السرور . وفي الجانب الآخر ، كان عضو مجلس الشيوخ « السيناتور » يقف بجانب تمثال « جوريس » (١) يخطب

---

(١) « جان جوريس » : سياسي فرنسي : ( ١٨٥٩ - ١٩١٤ ) ولد في « كاستر » خطيب لامع واحد زعماء الحزب الاشتراكي الفرنسي ، مدير صحيفة « لومانيتي » ومؤسس الحزب الاشتراكي الموحد . قتل في ٢١ تموز ١٩١٤ - الترجمة -

في حشد من الطلاب الذين يرتدون الزي الرسمي « الريدنفوت » . كل هذا العالم القديم ، المثبت بين الصور النصفية والمراوح اليدوية ، كان يبدو مستقرا تماما وفي غاية الراحة في ردهة آل « رونديني » .

فتحت السيدة « ايلرا النافذة » واستنشقت رائحة اليرفون . نزعمت وشاحها ، تناولت قبعتها من الرف ، تأملتها ووضعتها في الخزانة مع القفاز . كانت القبعة قديمة ، تكاد تكون في مثل سن السيدة « ايلرا » ولكنها كانت لا تزال تثير الإعجاب . وكانت بائعة الخضار تؤكد بكل سرور قائلة : « ان هذه القبعة العتيقة ليست بالنسبة لي سوى احدى حقائق الفردوس » .

بدأ الجو يبرد في الغرفة التي لا تدخلها الشمس الا على استحياء، ولكن يدي السيدة القصيرة كانتا وطبتين وشعرها المصفف جيدا على جبينها ، كان رطباً أيضاً . هزت رأسها ، أسالت الماء من صنبور على أصبعها وجلست قرب النافذة على كرسي هزاز . أخذت تشعر فجأة بأنها متعبة ، كما لو أنها كانت قد ابتلعت قطعة من الاسفنج امتصت كل هواء تلك الأمسية وتحولت الى سداة عندما وصلت الى حلقها . ويبد مصيبة ، أخرجت منديلا من تحت تنورتها وجففت جفניה . ثم استندت على الجدار وأغلقت عينيها . وبعد لحظات معدودة ، تنبعت مدموعة . لقد دفع أحدهم الباب الخارجي . وأخذ يمشي في صحن الدار بحيث كان وقع أقدامه يسمع على الحصى . كانت السيدة « ايلرا » تستطيع معرفة زوارها من طريقتهم بقرع الجرس . ولكن هذا الزائر لم يقرع الجرس ليعلن عن نفسه .

« من هذا ؟ »

— أنا ، « جواكان » .

وفتحت السيدة « ايلزا » الباب لتفسح المجال بالدخول لشاب ذي وجه جميل ولكنه ينم عن القلق والاضطراب .

« كنت بحاجة لاتحدث اليك عن ... »

ـ اجلس .

تمخط « جواكان » عدة مرات وأخذ يسعل . تناولت السيدة « ايلزا » دورقا من الخراانة وقدمت له شرابا .

« هل اتيت لحضور الاجتماع ؟ »

لم يجب « جواكان » . كان بالكاد قد بلغ العشرين من العمر . وكان وجهه باهتا بعض الشيء ، وعنقه نحिला جدا ، فتبادر الى ذهن السيدة « ايلزا » انه عنق شخص مقضي عليه ، ودارت في خلدها كلمات الرثاء والشفقة . ولكنها كانت تكره الرثاء والشفقة .

« أرجو المعلقة ، لقد اتيت قبل الموعد ، لرغبتي بزيارة منزلك . »  
كان يبدو منزما لخلويديه الكبيرتين من أي شيء

« يا سيدة ايلزا ، بيتنا جوة خائق . اخواني يتعاطين المخدرات ، أمي تلعب القمار مع بعض الجماسة ، وأبي غني جدا . أما هنا في منزلك ، فالمرء يشمر انه بخير ، يتنفس بحرية . »

بدت الكتابة في عيني الشاب بينما توردت وجنتا السيدة القصيرة:  
« أحسنت بالمجيء مبكرا ، سأطعمك على أسراري . »

أمسكت بيد الشاب ، سحبت ستائر الردهة وأدخلته الى غرفة صغيرة تنيرها بعض المصابيح . كان هنالك مرآة متحركة كبيرة عكست صورة « جواكان » والسيدة « ايلزا » . وعلى مكتب مستدير كان يوجد

ورق باهت اللون وبعض المقلقات . وعلى الجدران بعض مناظر مدينة باريس .

« كانت هذه هي ردهة ماما « لولا » ، وقد ماتت في التاسعة عشرة من عمرها . « هذا ما قالته أخيرا السيدة القصيرة بصوت واهن ، ثم أضافت قائلة بسرعة : « لقد مشيت على الدوام بجانب والدي . ومن نافذة غرفتي ، كنت أستطيع مراقبته وهو يمشي أثناء الليل . كان والدي يعرف أشياء كثيرة . «

وفتحت السيدة « أيلزا » باب غرفة يكتنفها الظلام ، وبعد برهة، أدرك « جواكان » أن قنصاع الموت لمن كان بمثابة آله بالنسبة لابنته : « دون أرنولدو رونديني » كان يرقد مقلقا بالسواد على منضدة من الخيزران .

ولاحظ « جواكان » تحت النافذة ، وجود رقعة شطرنج غريبة الشكل ذات رسوم هندسية وتتخللها صور الأبراج موضوعة على قطعة أثاث مثلثة الشكل .

« أنها إحدى ابتكارات السيناتور ، وقد أطلق عليها اسم « اللعبة العالمية الموحدة » . فهي تضم بمفردها جميع ألعاب العالم الأخرى .

— لكم أود أن أتعلم اللعب بـ « اللعبة العالمية الموحدة » .

كان « جواكان » شديد القرب من السيدة « أيلزا » وكان يشع من مينيهِ بريق غريب .

ربما كان عليك أن تمضي بقية حياتك لتحقيق ذلك . فعندما توفي والدي كان قد بدأ فقط يتفحص خفايا وأسرار الفوضى التي كلفت تعم العناصر والمادة قبل خلق العالم .

صمت الشاب والسيدة القصيرة . وبعد بضعة ثوان ، قال  
« جواكان » بلهجة حادة :

« اني امرف ذلك . فاليوم لم يعد الامر يتعلق باللعب . ولكني  
يا سيدتي ، انا نقطعة الضعف ، بل الجانب السيء في التمرد ، الجانب  
الذي ينهار . وقبل اقل من عام ، اطلقت رصاصة في اذني . هذا  
سخف يثير الضحك ، اليس كذلك ؟ »

شعرت السيدة ايلزا بتيار بارد يسري بين كتفيها وعندما عادت  
الى تحت صورة السيناتور ، وضعت يديها النحيلتين على خدي  
« جواكان » . وهمست بصوت منخفض : « احبك ، انك متحمس ،  
مشبوب العاطفة ولكنك لست من جنسي . اصغ اليّ جيداً : عليك ان  
تغادر هذا البيت في الحال . »

— كلا . . . كلا ، لست انا !

كان الشاب قد أخذ يترنح .

« عليك ان تهدأ ، فهناك طرق عديدة تجعل المرء يشعر أنه مستقيم  
في الحياة .

— لا يجب ان تقولي لي هذا ، ابدا .

كانت شفثاه بيضاء اللون .

« عليك ان تطيعني . »

— ولكنّ هذا جنون . اني امرف ، امرف ما يحاك في هذا المنزل .  
انهم سياخذونني ، ويتغلبون علي .

— « عليك الا تتكلم . »



كانت اللهجة حازمة . فافرورقت عينا الشاب بالدموع . وانحنى على اليدين اللتين كانت السيدة العجوز تمدهما له وشد عليهما يديه . وعندما اعتدل في وقفته ، كانت نظراته جامدة وخالية من أية فكرة . ثم أبدى ابتسامة مفتتحة ، فتح الباب وخرج .

كانت الأشجار التي في صحن الدار تنشر رائحة الصيف الزكية . وشمس المساء تضيء اللون الأحمر على الأزهار البيضاء ، وكانت السيدة الصغيرة تحطم بزهور « الجريسة » التي تتسلق جدران منزلها . أغلقت الباب وأخذت تنتظر . وفي آخر الشارع ، كان « جواكان » يستعد مبدئيا حركات كتلك التي يبديها من به سكر شديد . ظلت ساكنة لا تبدي أية حركة خلال فترة طويلة تحت نظرات والدها ونظرات زوجها ، وهو شاب نحيل خداه موردان كان رجال الأمن قد قتلوه ذات مساء في « سامن جوان » بطريق الخطأ . كانت قد بقيت متزوجة مدة ثلاثة أشهر ، وكانت تجد صعوبة كبيرة في تذكر اسم ذلك الذي ، لكي يكف من احترامها ، كان قد انتظر مدة تزيد على المدة التي عاشها .

ثم جلست باسترخاء على أريكتها . كان جفناها يرزحان تحت وطأة خدر ثقيل يتسم بالكآبة . ولو لم يسرع مدمووها لكانوا وجدوها فاقدة الوعي في هذا المكان نفسه . كان يجب عليها أن تأخذ الأمور على عاتقها ، أن تتصرف وتعمل . والضغط الدموي يرتفع حالما نتحرك . كانت تعرف ذلك وتعرف بشكل خاص أنه لولا « إيلرا رونديني » ، ولولا طاقة النشاط التي ورثتها من أبيها ، ما كان هنالك شيء بإمكانه انقاذ تلك البلاد التي هي بلادها . كانت تعلم علم اليقين أن أي أمل بالسلامة والخلاص كان يكمن في يديها وفي يديها وحدها فقط . كانت حرارة الشمس تزداد حدة . نهضت واقفة ، تخلصت من ملابسها السوداء وارتدت فستانا خفيفا . بعد ذلك أخذت تنتظر من جديد ، وكانت كل ثانية تمر على ذلك الصمت الذي يكتنفها تسبب لها ألما شديدا . وكانت لا تزال تتراقص أمام عينيها بين أشجار الشارع صورة « جواكان » المظلمة الأوصال .

كان الوقت قد تجاوز الساعة السابعة ، حينما كانت لم تعد تتوقع قدوم أحد ، عند ذلك سمعت رنين الجرس ثم وقع أقدام مألوفة . شعرت كأن كتلة من القطن أو شيئا شبيها بها قد سدت حلقها . فتحت الباب قليلا ومدت يدها لشباب تسلك الى البيت ، تبعه على فترات منتظمة شباب آخرون يرتدون الملابس الفامقة اللون ، تبدو من عيونهم نظرات باهتة لا لون لها .

وفي صمت مطبق ، اصطقوا تحت صورة السيناتور .

« حسنا ، يا أولادي ، يمكننا أن نبدا . »

— ولكننا لسنا سوى ثمانية .

— لا أهمية لذلك .

— اليس « جواكلن » هنا ؟

كانت السيدة « ايلزا » قصيرة القامة لا تبلغ بطولها ذقن اقصر رفاقائها . وألح اكبرهم سنا الذي يبدو انه كان يتولى القيادة عند وقوع الاحداث :

هل تعلمين ماذا يعمل أبوه ؟

— « جوليو » على صواب ، يا سيدتي ، فالأمر لا يتعلق بنا بل بالقضية .

— ان القضية مدينة لكم بالشكر .

كانت اللهجة حازمة ، بل وساخرة ، ودون أن تتابع اهتمامها بضيوئها ، أخذت السيدة « ايلزا » تفرز صفحات كبيرة من الورق كانت تتقاطع عليها صور وأرقام . وعندما التفتت كانت نظرتها تنم عن الكآبة والفضب .

« عليكم أن تعرفوا أيها السادة أن أبناء الوحوش المخيفة ومشوتهي  
الخلقة لهم الحق بالحياة . فهل سألتكم أي بطن أنجبكم عندما الحقنتمكم  
بالقضية ؟ »

ودون أن تنتظر جوابا ، وضعت رزمة من الورق في يد كل منهم .  
« هيا ، الى العمل . »

أحنى الشباب رؤوسهم . وحاول أصغرهم سنا أن يضحك خلسة ،  
وبدر من شاب آخر ما ينم عن التدمير .

أنتم أحرار ، ولكن عليكم أن تختاروا أحد أمرين : إما أن تنزلوا  
وأما أن تتجهوا الى الباب .

حدث هرج ومرج أخيرا بين المجموعة القليلة العدد الملتصقة بالجدار  
ثم قرر أكبرهم سنا بلهجة حاسمة :

« اننا موافقون . »

عند ذلك التقطت السيدة « ايلزا » أنفاسها . وذابت تلك الكتلة  
الاسفنجية التي كانت تسد حلقها . وتناولت على رؤوس أصابع قدميها  
ووضعت قبلة على جبين كل رفيق من رفاقها .

« هيا ، أسرعوا ، لقد تأخر الوقت . »

وبطرف حداثها أزاحت البساط فكشفت عن فتحة سرية في أرضية  
الغرفة الخشبية . وبدأ الشباب يهبطون الدرجات المؤدية الى القبو .  
ولم يفتح الأخير منهم فمه ، ولم يعبر وجهه من أي أنفعال ، عندما  
مد يده مفتوحة الى السيدة القصيرة ، فناولته شيئا ثقيلا ومدورا .

وهمست باذنه : « كالعادة » وأمن الشاب على ذلك بحركة من رأسه .  
اضطر أن يحنيه قليلا لكي يهبط ويفوص في الظلام .

أمادت السيدة « ايلزا » البساط كما كان على الفتحة السرية ،  
ونقشت شعرها . فمند خمسين عاماً عما لم يتفرق جسمها ، والآن ،  
مند نصف ساعة ، أخذ الماء يسيل على صدفيها كما كان يحدث في زمن  
شبابها عندما كانت تنهياً لاحدى حفلات الرقص . فككت أزرار قبة  
قميصها . كان نسيم الليل الذي يتسلل عبر شقوق النافذة ، عذبا .  
اختارت السيدة القصيرة كتبا وجلست على أريكتها .

وفي الأسفل ، في القبو ، كانت الآلات تعمل بشكل جيد . كان  
السيد « رونديني » قد اشتراها من روما ، عام ١٩١٣ . كان مستوى  
عملها ممتازا . وغداً عندما يكون أصدقاؤها قد انصرفوا ، ستذهب  
للنزهة ومعهما حقيبتها الضخمة وقبعاتها الصغيرة . وسوف يردد الجزار  
ما قاله مرات لا يحصى لها عد : « من يصدق أنها ما زالت تقوم بهذا  
العمل مع أنها ربما احتفلت ببلوغها التسعين من العمر في شهر نيسان ! »  
وسوف توزع المناشير الطافحة بالنقد والتهجم على السلطات ، فتزعمها  
من حقيبتها وتدسها كيفما اتفق في المدارس وفي الحدائق . كانت تجربتها  
في هذه الأعمال تربو على سبعين سنة . ولم يكن أحد يعتبر ابنة  
« رونديني » إلا فتاة صغيرة ومسيحية صالحة كانت تحب الجو الريفي  
الذي يسود حينها . وعندما كان الصباح يبدو لطيفا ، كانت تطيل نزهتها  
لتبلغ أرض البرية البور وتقطف الأزهار . كان ذلك الاثنين الأول من  
الشهر جوّه بشكل خاص ، ثقیل وحار . لذلك ربما قامت في اليوم  
التالي بزيارة الدكتور « كهون » ، وإن لم تكن على تفاهم وعلاقة طيبة  
معه منذ أن أخذ يضايقها بالحاحه كي تتخذ لها خادمة ، بينما كان  
العيش وحيدة وبمفردها يناسبها كثيرا . فهي لم تكن أكثر عجزا من  
جاراتها ، اللواتي يقل عمرهن عشرين سنة من عمرها . والله وحده يعلم  
لماذا أخذ الجميع منذ بعض الوقت ، يكيلون لها النصائح دون حساب :  
« حذار ، يا ايلزا ، يبدو أن فقدان الومي يتزايد لديك باستمرار ،  
وأشجارك القديمة تكاد تسقط فوق أرض الدار . وباب منزلك يظل  
مفتوحا على الدوام . وبالأمس أيضا ... » .

ولكن كم كانت تلك الحيوانات المسنة سخيقة وبليدة ! لقد كان « رونديني » يكرهها . وكان يقول : « سوف ترون ، ساموت شابا كيلا أرى النساء الجميلات يلوين وقد اضمحلت أجسامهن وترهلت وامترى دمفتهن الوهن والضعف » . وقد مات بالشكل الذي تحدث منه لكي لا يرى صديقاته يتقدمن بالسن ويبلغن أرذل العمر ، وكذلك دون شك كيلا يسمع شكاوى وأنين عالم غائص في المظالم . تنهدت السيدة « ايلزا » . ففي كل مرة تتذكر والدها يمتريها شعور بالضيق تليه ضربة سوط على جنبها ترغمها على التقلص والانكماش . وقبل أن تعود الى غرفتها ربما ستكتب رسالة الى ابن عم « ارنولدو » الموجود في « ميلانو » كان تلامذتها قد جعلوها تفقد وقتا ثميناً . وهي أيضا كانت شابة ولكنها لم تستسلم أبدا للخوف . فلا شيء هنالك أخطر من الخوف . ووالدها كان يعتبر الخوف من زمرة الأفاعي . ولكن لم يكن لدى السيدة الصغيرة رغبة بالكتابة ، فميلانو كانت بعيدة جدا . وابن العم يمكنه أن ينتظر . فهي ربما أطلعتة فيما بعد على ما كانوا يعملون اثناء الليل . وبطبيعة الحال ، فان لا أحد يستطيع تركيز تفكيره عندما يكون الجو ثقيلًا وحارًا الى هذا الحد . وهكذا ، فمنذ بضعة دقائق كان كتابها قد سقط من بين يديها ، وكان هنالك شيء يمنعها من تنظيم أفكارها ، شيء لم تكن تعرف منشأه ، ولا كنهه ولا اسمه . امترتها رعشة . ثم ، ماذا أتى بعمل هذا العرق على عنقها وعلى فخذيها ؟ . . ربما لم تكن الحياة سوى انتظارا عبثيا لا طائل تحته ! لم يسبق لها مطلقا أن تأثرت بأفكار من هذا النوع وهي لم تكن تؤمن بالله ولا بالشيطان ولكنها لم يساورها أبدا أي شك بمرور وجود الانسان . كان الامر واضحا ولم يكن هنالك مجال للخطأ فقد كانت أسنانها تصطك . وكانت هنالك مياه لرجة تتسرب في الخطوط والتجاويف الكائنة حول قمها . لقد كانت تود أن ترزق طفلا ، واحدا فقط ، يكون جميلا مثل « جواكان » ، يكون بإمكانها أن توحى له بالأفكار الجديدة ، بمثل ما فعلت تقريبا لابن صديقتها « ليونور » ، الذي كان يرحل من بلاد الى أخرى متنقلا بين أمم مختلفة ، تقوده إحدى اليابانيات ، ناصيا الى التمرد والثورة ، الى الثورة ضد مديري وموجهي



الضماير الذين ينشرون الجريمة وفساد الاخلاق ... ومع ذلك ، كلا ،  
لقد كانت مخطئة ، فلبن « ليونوز » لم يكن يدمو الى التمرد والثورة ،  
بل الى الظلم والظفيان . الا اذا كانت معلوماتها قد أعطيت لها بصورة  
مفلوطة . ومنذ بعض الوقت لم تعد واثقة من شيء . وجورجي لم يعد  
يأتي لزيارتها . لقد كان في الماضي يحب قضاء أمسيات الصيف في مكتب  
« رونديني » ، أمام اللعبة الموحدة التي كان يحرك قطعها وهو بهز رأسه  
كانت السيدة « ايلزا » تسمح له بذلك لأن أمه كانت متزوجة من أحد  
الفوضويين ، المعجبين بـ « سبنسر » والذي كان يحلم بجزيرة مهجورة  
يمكن أن يبني فيها هو و « رونديني » عالما جديدا . اعتدلت في جلستها  
ما هي الجدوى من أن تروي لنفسها الحكايات ، وأن تغش بل وتخادع  
نفسها بالتفكير بـ « جورجى » وبصديقاته اليابانيات ؟ كان هنالك ضجة  
خلف الباب الخارجى ، ضجة خطيرة تعرفها جيدا ، وكان مصير عدة  
أرواح بشرية يتوقف على رباطة جاش « ايلزا رونديني » . كانت الضجة  
تزداد وضوحا وكان رفاقها محتجزين في القبو الذي اقتادتهم اليه بنفسها  
قبل ساعة من الزمن . أخذت الضجة تتزايد قوة ووضوحا ، وأخذت  
تضغط عليها وتزعجها . كان هنالك أشخاص مجهولون بملابس رسمية  
قد اجتازوا الباب الخارجى دون أن يقرعوا الجرس . يا للشيطان ،  
بماذا كانت تفكر حتى أنها لم تشعر بذلك ؟ ... من المؤكد أن ذهنها  
قد اعتاد منذ بعض الوقت أن يمضي ويسرح خارج رأسها .

ودوت على باب غرفتها طرقات قوية كادت تحطمه ، في حين أن  
الآلات ، هناك في القبو ، كانت قد توقفت وصمتت . كان يجب العمل  
بسرعة لبناء عالم خال من البؤس والشقاء . فالجشع العام يقضي على  
الأذهان ويميت النفوس والشقاء شيء معيب وغير مقبول . وكانت السيدة  
« ايلزا » قد عملت تحت إدارة « رونديني » الذي استمر باسداها  
النصيحة حتى بعد موته . كان قد رفض أن يحصل على الثروة والفنى  
وقد لفظ أنفاسه الأخيرة في السجن لأنه كان يصرخ بأعلى صوته في كل  
مكان بأن الشقاء لم يكن سوى جريمة منظمة ترتكبها جماعة من

المنحرفين الذين يتولون المناصب الرسمية . وعلى شاكلة السيدة « ايلزا » ، كان هنالك عشرات ألوف الملايين من المؤمنين يعملون لصالح العدالة وفي خدمتها . ولذلك فان الانسان سيصبح حرا عما قريب .

طريقة اكثر عنفا من الطرق الاخرى على الباب الخشبي السميك هزت السيدة القصيرة وأيقظتها من أحلامها . واستردت روعها فلاحظت بارتياح أن حلقها ووجها كانا جافين . أدارت المفتاح في القفل وابتعدت قليلا لتفسح المجال للمعتدين أن يمروا .

« قليلا من الهدوء ، أيها السادة ، فأبوابنا غير مصفحة » . كانوا ستة . ولدى مرور أضخمهم جسما أمام المرأة أصلح تسريحة شعره . وكانت رائحة الكحول تفوح من آخر ، ربما كان أكبرهم سنا . لم تكن السيدة « ايلزا » تضرر أية كراهية للكحول اذا كان من نوعية جيدة ، ولكنها كانت تستهجن شرب المسكرات الرديئة والعادية . أبدت استياءها عندما تقدم نحوها هذا الرجل الذي كانت تسمع صوت تنفسه .

« أين هم ؟ »

— من هم ؟ ... »

— لا مجال لكثرة الكلام ، نحن نعرف كل شيء » .

كان للرجل أسنان كبيرة وجديدة تملأ ووجهه وسخ .

« أين هم ؟ »

— انهم يعملون .

— انه لأمر مضحك وغريب جدا ! الصفار الطيبون ، يعملون ،

أين يحدث ذلك ؟ .. » .

أزاحت السيدة « ايلزا » البساط بطرف حوائها وكشفت عن  
الفتحة السرية . كل شيء كان يبدو محكوما وميسرا بقوانين قدر منظم  
بحكمة ودقة . لم يكن هنالك أي شك بأن « جواكان » قد امتقل . ولا بد  
أن هذا البائس قد عذب كثيرا . حيث الضابط بهدوء صورة السيناتور :

« عزيزي المففل العجوز ! » وقبل أن يندفع ويهبط على الدرج  
المؤدي الى القبو ، ألقى نظرة معسولة على السيدة القصيرة . « ألا  
تخجلين ، بعد كل ما حدث لزوجك ولأبيك ! ؟ وبعد أن سلور السلطات  
الضعف فتخلت لك عن الفيلا . تسعون عاما من السلوك الحسن لكي  
ينتهي بك الأمر وكأنك لم تكوني تعلمين أن القوضى قد قضي عليها ! ..

أحنث « السيدة ايلزا » رأسها قليلا الى جهة كتفها وتحركت شفتاها،  
كان في ابتسامتها شيء من كل المشاعر والاحساسات : الحنين ، السخرية،  
التهكم والشفقة ، كان فيها من كل شيء ، فيما عدا الخجل .

أضاف ضابط الشرطة : « سنتحدث عن ذلك هناك . سوف ترين  
يا « روندين » الصغيرة الظرفية بأننا سنكون سوية ، أنت وأنا  
والرفاق » .

أعادت السيدة القصيرة ما قاله الضابط :

— تماما ، أنت ، وأنا والرفاق .

وبينما كان الضابط وأعوأه يهبطون درجات الدرج الذي يؤدي  
الى القبو ، أرسلت السيدة ايلزا صراخا مكبوتا دوى في أرجاء المنزل  
كنعاب الطيور الكاسرة :

« حذار ، تأهبوا أيها الصغار ! »

ومند انطلاق هذه الإشارة انفجرت ضحكات تنسم بالدهشة  
والدهول تبعثها هممة هستيرية دوت بين جدران القبو حيث كانت

ستتمزق أربعة عشر جثة شابة وتسقط مضرّجة بدمائها . وتبع الانفجار الأول انفجار آخر أشدّ عنفا وروعة زرع أرض القيلا وقذف البارود والفتار الى ما فوق سطح المنزل والى أعلى ذرى أشجار الزيتون ، وحطم زجاج النوافذ ، وحول الأخشاب وبلاط البورسلين الى فتات . وانفجار آخر أصاب مباشرة وجه السيدة القصيرة فأخذت تتدحرج كدمية طفل حتى بلغت الرصيف ودفنت بين الركام والانتقاض .

( تموز ، يوليو ١٩٧٧ )



## الفصل الثاني

البارحة ، كان لا بد أن يكون الوقت ظهرا على وجه التقريب ، عندما أيقظني ألم حاد في أسفل جمجمتي ، والأمر الغريب لدى شخص معتدى عليه ( كان الألم قد سببته أداة حادة ) ، أنني كنت واقفة . واقفة أمام مكتب وضعت عليه يدا امرأة ملأتاني ربما . كانتا غير مألوفتين لدي ، مثلهما في ذلك مثل المكتب نفسه والساعة الصغيرة أو المحبرة . ومبر فتحة لم أكن أستطيع تحديد موضعها تماما ( كان الألم يرغبني على إبقاء ذقني ملتصقة بصدري ) كانت أشعة الشمس تسقط على ذينك الكفين اللذين كانت أصابعهما ممددة ومسترخية على شاكلة الرخويات . وعلى طول الجدار ، كانت نتف من الأوراق تتعرض حول أشياء باهتة اللون . كان السكون ثقيلًا ، وشريط معدني ينشر زلعمي . وفي وقت الظهر هذا ، كنت قد سمعته دقة بعد دقة ولكني ، لم أكن أعرف شيئا عن الكنيسة التي لا يمكن إلا أن تكون قريبة منا ، كما أنني لا أعرف شيئا من قبة جرسها . حتى ولا أكثر من هذه الغرفة التي أخذ جوتها يصبح لرجا . كان كثفاي يتصببان عرقا ، وعنقي على حافة الاختناق . وفي لحظة معينة ، شعرت ببرد شديد يسري في أوصالي ، وبسرعة كبيرة أخذت لا أشعر بأن لي سوى حرقا في أسفل الجمجمة وجذع امرأة غرقى .

وحيث أنني عزممت على ألا أدع نفسي أدوخ أو أسقط ، فقد استطعت البقاء واقفة . لم يكن يتصاعد أي ضجيج من الخارج . وكل



ما هنالك ، كان من وقت الى آخر ، صفر خفيف على سوية مؤخرة رقبتي . ولم يكن في المنزل أية ضجة أو صوت . وفي أعلى المدفأة ، كان هنالك طفل رضيع في غلاف مخملي ، يمد لي ذراعيه . كان للغرفة شكل قطعة طوى محفوظة في خزانة ، ورغم الجهود التي بذلتها لأذكر ، فاني لم اتوصل لاعطاء اسم لا للتلميذة التي كانت ترتدي تنورة راقصة ، ولا للكلب الضخم الذي كان مربوطا الى حجر على قارعة الطريق . كل تلك الكائنات الملقاة مسمرة في اطرها المزينة بأشكال حلزونية كانت تبدو لي في غاية البشاعة. اما العسكري ذو النطاق المشدود الى وسطه والذي كان ينظف نظارته المفردة لكي يشبثها في الحال في تجويف عين فقدت لونها ، ما كان به كي يتبختر على رفوف المكتبة على شاكلة المهرج وأساليبه ؟

ولكون ساقيّ كانتا متعبتين وذهني تائه ومشوش ، وليس لدي أية نقطة علام أهتدي بها سوى تلك الأشياء التي لم تكن تشكل شيئا بالنسبة لي ، كدت اتخلى عن الجولة وأدع نفسي أنزلق على طول الجوانب والجدران عندما لمحت شيئا قاطعا سمرني في مكاني . أذكر اني كنت لفترة طويلة متأكدة أن الأمر لم يكن يتعلق بمقذوف مادي ، بل بنظرة صادرة عن صورة قديمة كان يبدو فيها على خلفية سوداء منظر خمس سيدات مسنات مسترخيات على أرائكهن . كانت شرفة البناء مغطاة بما يقين من الحر ، الذي يبدو أنه كان شديدا ، تدل على ذلك سرعة ايقاع المراوح اليدوية التي كن يستعملنها . وفجأة ، ودون سبب ظاهر ، تشبثت اليدين اللتان كانتا على المكتب واللذان سببتا لي الدهول ، بصدارتي ، وعين المهرج العجوز بصقت على وجهي نظارتهما المفردة والكلب الذي كان مربوطا تخلص من سلاسله وأحدث فوضى في كتب المكتبة دون أن يدفع هذا العمل السيدات المسنات الجالسات على الشرفة الى الكف عن تحريك مراوحهن . كانت نظرتهم الفريدة والقاسية بنفس الوقت قد فقدت صفتها كقذيفة ، والتصقت بجذمي ، وكأنها إحدى الكرات الدبقة ، وبينما كنت أرفع ذراعي لأحمي نفسي

من تلك الحملقة التي كانت بمثابة الامتصاص ، أصبت بدوار شديد  
وسقطت على المكتب ، ورأسي في اليدين نفسيهما اللتين كانتا قبل قليل  
منبسطين تحت أشعة الشمس .

وعند المساء ، شعرت بانزعاج شديد عندما تذكرت اني سررت  
بالبقاء هكذا ، منهارة على منضدة ، لا أفكر إلا على شكل اندفاعات :  
« لقد قتلوني ... ودفنوني ... واذا رقدت في هذا المدفن فاني لن  
استيقظ إلا لأشهد نفسي . » الأطفال يتعفنون في شوارع الضاحية  
... إلا اذا لم يقبلوا ان يكبروا . وهكذا فقد دفنت لكي أنسى ان اكبر .  
العسكريون ، النظارات المفردة ، والفتيات المرتديات ملابس الرافصات ،  
كل هذا من سقط المتاع . ومع ذلك ، فان تلك اليدين اللتين كانتا  
تسنداني قبل قليل ، كانتا حيتين ، وكانتا تخدشاني . « والواقع ،  
اني أتذكر جملة أشياء : عقوبات : خروج ، مخ ، غرفة مظلمة . كان  
هنالك تفاحات صغيرة حامضة في ثوب مرضعتي الذي يكشف عن عنقها  
وكتفها ، وكان ندى أبي خزانة ملأى بالأحذية . ومكثت أتمتع فترة  
طويلة . كانت بعض الرؤى المثيرة للقرف تتكون في دماغي . كان أحد  
الفتيان يقطع ضفدا حيا ، وفرس يصبر مرجا على قائمة واحدة . كان  
الوقت قد تجاوز آخر الأمسية ، عندما دفعتني حاجة ملحة ومفاجئة  
للنور ، فنجحت بتحرير رقبتني واستطعت ان ألتفت وأحوّل رأسي .  
وفي الحال دخلت الغرفة سماء ملتهبة .

كيف لم أشعر بمثل ذلك الضيق فالشمس كانت هنا ، في عيني ، بكل  
أشعتها وما كنت قد اعتبرته عبارة عن شارع ، كان حديقة لشدة ما كان  
يبهرني ازدهارها ووفرة نباتاتها . وللمرة الأولى أخذت أنفسي بكل حرية .  
وكل ما كنت أراه كان يشتعل وكنيت أعرف ان الموت لا يملك الأشياء خضراء ،  
وأن الصور القديمة تعود ملكيتها الى عالم التوابيت الحجرية ، وليس  
الزهور هي التي تعود ملكيتها الى ذلك العالم ، كلا ليس الزهور . كان  
الماء الذي يتلألأ على أشجار الدلب ، سيتحول الى بلابل حالما تغرب

الشمس . التفت فلاحظت بكل سرور أن المهرج المجوز قد تجمد بشكل مهيب بين الكتب القديمة وأنه قد اختفى كل أثر للكلب الضخم والفتاة التي كانت ترتدي تنورة الراقصة كما اختفى معهما الألم الذي كان يحس زلعمى .

البنى العتيق ، فى اطاره القديم ، هو وحده الذى لم يتغير أو يتحرك . كان السقف الذى يغطي الشرفة قد انحنى قليلا الى اليسار وهواء الليل الذى كانت تحركه المراوح اليدوية ما زال يصلني باستمرار على دفعات . وأذكر أن شعورا بالقرف قد انتابني حىال كتامة ومدم احساسية تلك الأشباح التى كانت نظرتها الوحيدة لم تفقد شيئا من شراستها ووحشيتها ، واني أخذت أصرخ : « الى الشيطان ! لتذهب الساحرات الى الشيطان ! النجدة ، القوث ! » وان حركة أحد الابواب قد أجابت على ندائي .

كان هنالك من يجتاز عتبة باب الفيلا .

كان شخص ما يصعد على الدرج .

كنت أشعر بثقل جسم كان يصعد ، وبأنفاس جسم ضخم . وفجأة فاحت رائحة ، تعالى صرير من خلف الحاجز ، ثم ساد الصمت من جديد . كان الرجل قد توقف . ولكنه كان سيتابع سيره حتى يصل إلي ، لقد كنت متأكدة من ذلك . انه لن يعود أدراجه . . . ولكنه أخذ يتراجع ، وها هو يهبط الدرج ثانية . كان لكل صوت وقع في ذهني للدرجة أنني شعرت فجأة كان هنالك من أمسك بخناقى ، وكان رأسي محتجز في قفص من زجاج . ومع ذلك كان منقي رشيقا وذراعي متحركين . أما يداي في طرفي ذراعي فقد كانتا من جديد على المنضدة أحدهما بجانب الأخرى ، وأصبعي مطبقة كما لو كنت على أهبة القيام برقصة بولونية . وتذكرت إحدى البولونيات التى كانت فيما مضى تجعل الماء يتدفق من أحد الأحواض ، ولكن رغم خضرتها فان تلك اليدين بدتا لي مفضنتين مند

منبت الباهم واجتاحني شعور بالشيخوخة . وكانت احذية ابي فارغة فجأة وهي في خزانها ودون أن يتغير وضع اي شيء في الغرفة ، سمعت صوتا خلف الباب ، كان نقرا أو خربشة . أدركت في الحال اني كنت انتظر المعتدي عليّ بشعور من القلق واللهفة ، اي شعور المحبين ، وأنه كانت تكفي أمور بسيطة وقليلة من جانب ذلك الغريب لكي أستعيد ما يشبه الذاكرة . وأن احس في ظهري انقاس رجل ، ويصبح عند ذلك كل شيء رائقا وواضحا . والساحرات يتشتت شملهن وتصبح نظرتهم غبارا تدروه الرياح .

كنت أتنهد ارتياحا عندما سيطرت على ذهني فكرة مفادها اني ربما لم أكن المحتجزة الوحيدة في القبلا ، وأن من المحتمل أن تكون مهمة القاتل تقضي بأن يقوم بزيارة كل ضحية من ضحاياه ، تملأ كالطبيب الذي يعود مرضاه . وربما لم أكن سوى بائسة أخرى ، من أولئك اللواتي ينساهن الناس في أعماق المستشفيات . انكشيت على نفسي ، وعاد وقع الأقدام ينسمع على الدرج كما لو أن القادم أوشك أن يهاجمني . كان الزائر منهمكا في تلمس وتحريك قبضات كل الأبواب ، وكان قبضة باب غرفتي لم تكن سوى مسمار دق في الجدار . فمتى سيقدر الاهتمام بسجينته ؟ سوف يرى تملأ اني كنت أنتظره ، وأن وجهي يصبر من القلق . ولكن هل كنت أملك أصلا وجهها وحسب ؟ كان السؤال قد بقي معلقا . بحثت عن مرآة . ولكن المرايا لا توجد الا بناء على الوجوه وتعا لها ، وفي هذه الغرفة المزدحمة بكثير من الأشياء لا يوجد أي منها . لا شك أنها قد تحطمت جميعها . وبحركة بطيئة أمدت الى فوق جبیني اليدين اللتين كفتا تخدشان صدري . لم يكن هنالك مجال للقلق : كان وجهي موجودا هناك ، حارا وحيئا تملأ ، وبه فتحتان كبيرتان لآقي المينين . رفعت يدي الى شعري وانقرعت خصلة تفحصتها وراقبتها بكل دهشة في البداية ثم بسرور شديد . كانت صهباء اللون ، ( مفراء ، لون بين الأصفر والأحمر ) ، كفيلة بنسف مستودع ديناميت . قهقهت ضاحكة . وفي الحال تدفقت الدموع الغزيرة من عيني .



كان هنالك شخص يقف خلفي . كان هذا الشخص يقول :  
« تشجمي ! » - وكان الصوت يبدو صادرا من أعماق بحيرة . كنت  
أشعر به أكثر مما كنت أسمعه . كان هنالك يدان تضمانني - « أعرف ،  
أعرف ، هذا مخيف » - وتداعبانني وتذكرت في تلك اللحظة ، والله  
وحده يعلم لماذا ، باقة ورد أمام إحدى النوافذ ، في مكان ما ، ذات مساء  
كانت الريح فيه عاصفة . « حالما سمعت الخبر ، لم أقم بسوى قفزة . »  
قمطات مبللة كانت معلقة فوق حوض كان الصبي الصغير يفجر فيه  
الصفادع . كان علي مهما كلف الأمر أن أمسك بذلك الولد الصغير ،  
ولكنه كان يتلاعب بي ويسخر مني . « لماذا حبست نفسك في البرج لاكدت  
أرحل ثغية » . كانت امرأة تتعثر بين ركام من قطع الحديد القديمة ،  
وقد صعدت على حاملات بهلوان . « أنا هنا ، أنا هنا . . . » لكم كنت  
أود أن أمحو تلك الصور وأن أستلقي بين ذراعي الشخص المجهول ،  
الذي كان صدره ليينا ناعم الملمس ، وأن أكف عن التفكير ، وأن أركض  
كالمجنونة وراء الجرابيات البيضاء ، وأمنعها من أن تقفز في الفراغ .  
« ايزيكييل ! » . . . . . واتسعت عيناها . ولكم وددت لو أبقيتها مغمضتين ،  
وأن أمنعهما ، هما أيضا ، من أن تقفزا في الفراغ . ايزيكييل ! « نعم  
يا عزيزاتي ، كان يمكن أن يمضي ولدك حتى النهاية . لقد كنت تعلمين  
أنه يمكن أن سيبلغ النهاية » . كانت اليدين تعبثان بشعري وتداعبانني  
برفق . « أبكي ، أنت بحاجة للبكاء » - وانفرست ذؤابة سيف في بطني  
« لن أتخلي عنك . عندما أتيت منذ خمس سنوات كنت وحدك » ولكن  
كان لدي دور أقوم به . وقد أنتهى الأمر ، لن أتركك بعد الآن مطلقا .  
كان الصوت يدوي عاليا في الغرفة . « سوف أنتزعك من هذا البيت  
الذي تدفين نفسك فيه . ولن يكون هنالك بعد الآن مجال لكي تنقمني  
علي » . لماذا لم يكف عن الكلام ويصمت ؟ كان صدره مطمئنا يبعث على  
الهلوء ، ولكنني لم أكن أعرف شيئا عن الألم الذي يواسيني من أجله :  
« ان الأبناء ، يا « ديزي » يعاقبوننا على محبتنا لهم . وماجلا أم آجلا  
فلنهم يرهقوننا حتى الموت . » وايزيكييل « كان من عمل أحد الدخلاء ،  
وافت تعلمين ذلك جيدا . » كان نصل السيف يخترق أحشائي وكانت



يبدأ الرجل وحدهما تمسكان بكتفي وتمنعتني من الانهيار . ملكبتنا  
ماتت ، يا ديزي ، وخلالنا ، اللواتي كنت تلقينهن بـ « كلاب الحراسة »  
فارقن الحياة بينما كن جالسات على الشرفة . و « أليجو » مات أيضا .  
كنت قد اخترت بهدائه الضخم ورائحة الماشية التي تفوح منه ، بدلا  
مني . كان عليك أن تنتظريني . كان علي تحقيق الكثير من النجاحات  
قبل أن أستطيع أن أحقق لك السعادة . ولكنك لم تكوني واثقة .  
تذكرني ، في المستودع ، عام ٤٦ . كانت « كلاب الحراسة » في القداس ،  
كان شعرك يبهمني ، كل جسدك كان يبهمني . كنت أكثر رقة من  
« فيكتوار » ، أكثر تكتما من « سابينا » . لقد ضمنتك إليّ زهاء ساعة  
كاملة ، واحترمتك ولكنك لم تنتظريني . و « أليجو » لم يكن جديرا  
بأحدى بنات عائلة « هو يرتا » . فهو لم يعرف شيئا طيلة حياته سوى  
السير مع حيواناته . « كان الرجل يمسك وجهي ، يضمه بين يديه ،  
ويغمرنني بنظراته ولكن أحاديثه ظلت دون معنى . فقد كنت أجهل كل  
شيء من الملكية التي كان يحدثني عنها ، وعن المستودع الذي ضمنني  
إليه فيه ساعة كاملة . كان يقول أنني قد اخترت متوحشا تفوح منه  
رائحة الماشية . كنت قد رزقت طفلا يقتل الضفادع . كان كلام ذلك  
الشخص الذي كان يواسيني يتتابع ، نافها لأمعنى له ، وبقيت واقفة  
ورأسي يهتز » . وقال : « الحمد لله ، فالتعذيب بواسطة شد القيود  
على اليدين والرجلين لم يعد له وجود » . التعذيب بشد القيود ...  
التعذيب بشد القيود . ولكنني تعرضت له أنا قبل قليل ، وعلى عنقي  
حتى كدت أختنق ، هذا التعذيب بواسطة شد القيود . كانت يداي قد  
تدلتا وتوطعتا على المنضدة . لم يكن ذلك المجهول يتكلم إلا ليزعجني  
ويلوخي ، كلن يقول أي شيء ، ولأنه كان يبعد وجهه عن وجهي لكي  
يراقبني جيدا ، فقد عرفته . وعصف بجسمي ألم شديد بينما كانت  
أشعة الشمس الأخيرة تدخل الغرفة وتحرق وجهها لم يكن سوى وجه  
« إيريكيل » . وأحاط بذلك الوجه رداء من الدخان وسمعت من بعيد ،  
وكانه منبعث من أسطوانة قديمة : « أتعلمين أنني ، ذلك اليوم ، على التبن  
في المستودع ، كان بإمكانني أن أسحقك ... » .

ماحدث بعد ذلك يبدو واضحا جدا في ذاكرتي . اعر ف أن زائري  
حملني على ذراعيه ونزل عدة درجات ، وأنه دخل الى احدى الغرف  
ووضعني على أريكة . وأنه بقي بجانبى ساكنا لا يبدى أية حركة خلال  
فترة زمنية طويلة . كان يردد قوله : « نعم ، ياديزي ، أنا حر » . كانت  
تشع من عينيه سهام صغيرة خضراء . كانت يدها نامنتين ، ولكني لم أكن  
أشعر بأية لذة من مداعبته وهددهته لي . كان « ايزيكييل » قد تركني  
لأنني لا أشكل جزءا من حلمه . وفجأة ، نعم فجأة رأيت ما كان صوت  
مجهول قد أنبأني به هاتفيا بالأمس : رأيت جسم طفلي يتأرجح وقد  
فصل عن رأسه . وملابسه وجثته ملقاة في أرض بور مهملة وعرفت على  
صدره الزغب الناعم تحت القميص الداكن اللون ، والصليب الذي كنت  
قد أعطيته إياه ، وقلميه المنتعلين حذاء وسخا . ورأيت ابتسامته التي  
كانت تبحث عني في جو ضبابي من العدم ، ورأسه القائب بدا مخيفا  
بشكل مفاجيء ، فأخدت أصرخ : « كلا ! انه ليس هو ! كلا ! » .

مساء اليوم أصبحت أذكر كل شيء . أنا وحدي . لا أتوقع ولا  
أنتظر شيئا . ليس لدي ما أعمله بحضور ذلك الذي تركني اتخبط في  
الأسلاك الشائكة وأنا أحمل طفلا بين ذراعي ، طفلا مجنونا بالعدالة انتزع  
قلبي ليعطيه للموت . كان شعر « ايزيكييل » أضر ، وعيناه كانتا وقورتين  
تتمان عن الحزن . ولن يتعرض للتعذيب بشد الوثاق .

وأنا أمسك بشبحه وأضمه بين ذراعي .

تموز ( يوليو ) ١٩٧٧



## للطائر الذي يرى

منذ بضعة أشهر ، كان « أنسليم » يعود الى بيته متعكر المزاج جداً . كان يتسلق طوابق القصر الأربعة بأقصى سرعة ، ويحبس نفسه في غرفته ، يفتح الأدراج ويفلقها ، ثم يتسلق المرقاة ويدق مسماراً في السقف ، ينزعه ويلقي به على زجاج النافذة . وبالأمس مزق سجادة صلاة جدته وتقدم نحوي ، أزاح الستائر وأسند على صدري شبابة لم تكن مائدة لا الى يده اليسرى ولا الى يده اليمنى .

وصرخ بي بصوت حاد : « مرئاف ! » . ثم أطبق شفتيه وبصق في وجهي .

وبعد برهة ، أخذ الرجل الذي كان رأسه المكثور كأنه مثبت بلولب على عنق مراهق ، ينتزع ربطة عنقه . وعند الساعة الثامنة خلع بنطاله وفي التاسعة قميصه المزين بالرسوم الفريية ، وعند الساعة الحادية عشرة فتح زجاجة شمبانيا وأخذ يشتمني .

وعندما دخلت أشعة الشمس الأولى الى الغرفة ، التي كانت بصرامة وشظف أثائها : أرجوحة ، حطات حديدية ، أحصنة مقطوعة الرؤوس ، تشبه الى حد كبير الغرفة السرية لملك كاثوليكي ، كان « أنسليم » ثملاً تماماً .

كان منكشاً قرب الجدار ، يدحرج زجاجة خمر كبيرة فارغة . كان منظره الجانبى باهتاً ، وفتحتا أنفه متسعتين ، وقد أخذ يراقبني

بعينين حادثين . قال هامسا بصوت يشبه الصفر : « متى ستكفّين عن  
ترصدي ، أيتها الجيفة ! » كان وجهه نحيفا . ولم يكن يشارك العائلة  
بتناول وجبات الطعام إلا مرتين في الأسبوع ، ونادرا ما كان يفتسل . كانت  
مشاقله تستغرق كل وقته . كنت أجهل كل شيء عنها تقريبا ، ولكن كان  
يبدو لي أمرا بديها أن أحدى تلك المشاغل كانت الانهماك في السكر  
زيادة عن الحد المعقول .

وفي لحظة معينة ، في الوقت الذي لم أكن أتوقع منه ذلك ، انتصب  
واقفا ، وبعد قيامه ببضعة انتفاضات ، تسمر أمام دائرة الضوء التي  
كنت موجودا فيها . كان هذا الاطار القديم يشبه أفقى سوداء ملتفة  
حول بركة ماء . كان يحتوي بكامله على وجه التقريب ، ولكني كنت  
أكرهه لأنه ، بعد أن توج بهالة من الزينة عدة أجيال من رؤساء الدول  
لم يعد له أي عمل سوى اظهار حدود سجنه . وعبر السنين ، فاني  
لم أستطع أبدا ، رغم جهودي المضنية ، الافلات منه الا لبضعة  
سنتمترات ، وذلك فقط عندما كان « أنسيلم » يصاب بما يشبه  
الدوار .

كلن صديقي يراقبني ، صباح اليوم ، بعينين زائفتين ، وجفنين  
محمّرين عند منبت الأهداب وشفته مشققتان مثلما يكون عندما يعود  
من الريف في فصل الشتاء . ويبد مرتعشة ، بحث من بنطاله على أرضية  
الفرقة ، فوجده بين ساعدي فرجار رسام ، ثم لبسه واتجه نحوي ،  
عند ذلك حدث أمر لا يمكن وصفه : فقد أخذ « أنسيلم » يلامس جبيني  
مداعبا ويقول : « يا للقدر المسكين ! » ، وكما يخرج الطبيب الذي  
يستلمى لعيادة مريض ، ميزان الحرارة من محفظته ، أخرج سلاحا  
ناريا من جيبه ، ثم وضع فوهته على صدري ، وضغط ضغطة خفيفة  
وأطلق النار .

أريج وتزهزع الاطار الدائري الذي كان يحيط بي . وتطير الزجاج  
اللوّن شظايا ، واهتزت الستائر ، وقفزت كما يقفز كلب « السيرك » ،

قفرت خارج المرأة لاجد نفسي بكيتي في غرفة « أنسيلم » ، وحها لوجه  
أمام أشلائه .

لأنه مهما بدا ذلك غريبا ، فان صديقي ، صديقي الوحيد ، كان  
قد أصيب إصابة قاتلة .

لا شيء كان يدع مجالا لتوقع نهاية كهذه ، لقصة حياتي المشتركة  
مع ابن الوزير .

وكلما زدت من بدل الجهد كلما أصبحت أقل فهما وإدراكا للأمور :  
فقد أراد « أنسيلم » أن يقتلني . وقد انطلقت رصاصة من مسدس  
مصوب الى قلبي ، وهو الذي أراه الآن ملقى عند قدمي "مضرجاً بدمائه ،  
بينما أنا ، المقضي عليه بالموت ، أتأمل ذلك الدم وهو يسيل بسرعة كبيرة  
بحيث أنه لن يبقى من القاتل بعد قليل سوى غلاف بالٍ ومدموك .

لست ذكيا ، وكثيرا ما كان « أنسيلم » يعيب علي ذلك . وأنا  
أعاني من فقر دم منذ عهد الطفولة ، ويختلط علي الامر فلا أستطيع  
تمييز التواريخ ، وأجهل قيمة الألقاب الفخرية وإنما بصعوبة كبيرة كنت  
أفهم ، هذا فيما اذا كنت أفهم أصلا الآلية السياسية والاقتصادية في  
البلاد التي هي بلادي . ومع ذلك فان « أنسيلم » كان يكن لي مزيدا من  
التقدير . فقد كان يمضي ليالي بكاملها وهو يصف لي عمليات الفرو  
الاسبانية . وكان يكثر من ذكر التفاصيل من جرائم « الكنيسة » وعن  
مواخير هولاندة الخفية ، ولكنه لم يكن يعلمني كيف أفكر بصورة سليمة  
ولا شك أنني بسبب ذلك قد استحال علي اللحاق به في موته .

تأملوا ، لم يكن يصطحبني أبدا الى « الأوراسيون » ، وهي ملكية  
أحد الملوك التي كنت أسمع حفيف أشجارها في الحظم وأرى قطمان  
ماشيتها تتلون بلون الذهب تحت أشعة الشمس ، عند الغروب . وكان  
يقول لي حالما تبدر مني أشلوة الى فردوسه : « أنك لن تريد ذلك اني  
الهواء الطلق أرتاح من لسانك القذر » .



وعندما كان يحدث لي ان افاجئه على مائدة احد المطاعم او في سرير احدى النساء ، فلا يكاد يشعر انه قد حوَصر وأمسك به حتى يختفي في الحال خلف المنشفة أو تحت الشراشف . ولم يكن يدعوني مطلقا الى الجلوس معه في المكاتب التي كان والده يستقبل فيها السفراء . أما متعة النزهات على القلوب على مياه البحيرة ، فلقته كان على الدوام يحرمني منها . وهكذا كانت الحال أيضا فيما يتعلق بالبحر . فلم اكن اعرف عنصرا سائلا سوى السائل الذي يجري في مفصلة « أنسيلم » ولا نباتا آخر سوى نبات لحيته بعد أزمة تلوم يومين .

والآن وأنا أقف حيا بجانب جثمانه الذي فارقتة الحياة ، أشعر بأنني قد كبرت أخيرا وأن علي أن أفهم . ذلك لأنه انما لي أنا بالضبط كان « أنسيلم » يبدي نمو وانتشار عضو الرجولة لديه ، ومعني انما كان يدرس الحركات المفردة . كنا تكبر متلازمين جنبا الى جنب . ففي اليوم الذي اكتشفني فيه في مرآة المعهد الرياضي ، كنا لا نكاد نجيد المشي . فقد انتزع نفسه من بين ذراعي أمه وأسرع فالتصق بي . وبعد صمت عجيب اتسم بالدهشة ، بدت القسوة في عينيه وصوب لي ضربة بقبضة يده على رأسي ، وصرخ وهو يتراجع الى أن التصق بالجدار : « ما اقبحك ! » ثم انفجر بالبكاء .

أذكر بسرور شديد بدايات وجودنا على قيد الحياة . وقد ألف « أنسيلم » بشاعتي وقبح شكلي . كان يجلب لي بعض الحصى ، يخرجها من جيبه ويلعسها . وفيما بعد ، ركب دراجته ليأتي الى كوشي ، وبعد ذلك أيضا أحضر لي صورة فاضحة سرقها من حقائب اخوته . وكان يقول لي وهو يضحك : « أنك تبدو كالبهلوان . لماذا لا تقفر ؟ ... هيا تعال ، أقفر ... » كنت أشعر بالسعادة لرؤيتي اياه ينعم بالحياة ، وكان هو ، يحب سعادتي ويسر بها .

ولكن « أنسيلم » ، منذ عدة أشهر ، قد تغير ولم يعد ذلك الرجل نفسه . وأخذت صداقتنا الحميمة تدهور وتسوء يوما بعد يوم .

وانتهى الأمر بالشريك والرفيق القديم أن أصبح علوا ، وصباح اليوم ،  
عند الفجر ، بفضل حادث كان خفيا وغامضا بقدر ما كان مؤسفا ، هو  
الذي لم يعد يعتبرني سوى جلع مذكر محصور في إطاره الخشبي  
القديم ، يصلح ، على أكثر تقدير ، لتمزيقه نتفاً والقاءه في الوحل ، ها هو  
قد سقط عند قدمي .

يا لأنسيلم المسكين ! ... لقد كنت قد أحضرت لي في الصيف  
الماضي امرأة فاجرة . كانت شديدة البياض ، وكان الحر شديدا جدا .  
وكنبت تسحقها على قضبان سريرك الحديدية . ولكم كنت أود الاستمرار  
بمشاركتك ملذاتك . كنت تحدثني عن امرأة سنغالية وكذلك عن عملاقة .

كان الجو نديا ، بل باردا بالنسبة لصبيحة أحد أيام شهر نيسان  
( أبريل ) . وأنا أعرف ذلك النسيم المخادع الذي يدفع بك الى تحت  
أغطيتك . ولن أستطيع البقاء مزيدا من الوقت بجانبك ، يا أنسيلم ،  
ولو كنت حيا لقلت لي بأن أعمل وأتصرف بسرعة . أنا لا أريد أن أغلق  
النافذة . فأنا بحاجة لضجيج الشارع . وعندما فترقت خليلتك الحياة  
خليلتك « ميلبا » المخيفة ، لم يبدر منك ما يدل على الانهيار . فقد تعلقت  
بالحظات وأخذت تتأرجح خلال فترة تزيد على الساعة . كنت تحب  
تلك الأجنبية التي تفوح منها رائحة المرأة السمراء والتي كانت يداها  
تبدوان دائما كأنهما على وشك الانفصال . والهرب . وكنت تقول أن  
الأمسي يجب أن يعيشها الناس وقد أحنوا رؤوسهم . وأنا لم أشاهد  
أبدا مشهدا مسرحيا ولكني أعرف أنك كنت محقا في ذلك وعلى صواب .

كان أهلك يستنكرون ذلك الولع المضطرب . ربما أنهم قد قتلوا  
« ميلبا » كي تستطيع أنت التصرف بموتك . لا تخش شيئا ، سوف  
أكون جديرا بالحالة الجديدة التي عينتها لي . ومنذ برهة ، تسلمت  
الى أوردتي نفحة عصبية . وحيث عضلاتي . وبتوتر قليل من الحظ ،  
لن يبقى بعد قليل أي أثر لأشلائك . ولم يعد يؤثرا هينيك سوى  
دائرتين صغيرتين دون ذاكرة ، وانفك ، كرة من لب الخبز . وخط

الحظ في راحتك يطفي على خط القلب ، وجبل « فينوس » مجموعة من التجاعيد وأصابعك كلاليب . والمحبس الذي كنت تضعه في إحدى أصابع يدك اليسرى يناسبني تماما . أما المحبس الذي كنت أضعه في إحدى أصابع يدي اليمنى فقد اختفى . وأما المسدس ، فهو على المنضدة بجانب السرير . وأنا الذي وضعته في هذا المكان . ومع قليل من الحظ ، سأصبح رجلا مما قريب ، سأجمع بقايا صديقي وأبعثرها . وغدا ، عند الساعة الثامنة ، ستحقق الكونتيس ظهورها الصباحي . هي تدعى « غلوريا » وسوف تأتي لتتغطف قبله ابنها . وعندما تكون قد غادرت المكان ، سأرتدي القميص الموشى بالرسوم ، وسأسوي على وركي بنطال أنسيلم وأمشي على الإطار الذي حبسني طيلة حياة بكاملها . سأمسك بذلك الإطار الدائري المتكلف والرنديق ، بكلتا يدي ، أشد عليه وأجلبذه إلى أن يتحطم ويكف عن تقليد تيجان الأموات الجنائزية . بعد ذلك ، سأعلق ، بل سأشنق نفسي في حلقات الجهاز الرياضي وعند ذلك يدخل أخيرا هواء المدينة إلى غرفتي . والشوارع ، جميع الشوارع ، الأكثر أبهة وفخامة والأكثر ضجيجا وصخباً سوف تصبح لي ، وكل النساء ، بمؤخراتهن التي تشبه مؤخرات الكلبات . النهر ، الحصى ، ومكاتب والدك ستصبح ملكي . سوف أصبح أجمل منك يا أنسيلم وأكثر ضخامة من أي ملك . سأظهر على الشرفة وفي الوقت الذي سيصفق فيه لي الشعب ، سيكون هناك دائما وراء ذلك الطلاء الحائل الذي كان قديما على المرأة حيث ضحيت بشبابي ، ابن ماهرة يتحمل انتصاري ويقضي نجه بدلا مني عندما أشعر بالرغبة بذلك .

إلا ، إلا إذا التفت ولم يكن هناك أحد في المرأة . لم يكن فيها أحد  
سواي ...

آب ( أغسطس ) ١٩٧٧



# لعبة الحنون

انه لأمر مخيف أن تقضي نحبنا

دون أن تكون قد فتحنا جميع النوافذ .

كانت ساعة التعذيب قد دقت .

وحالما اجتزت عتبة « الشيري » ذلك المساء ، فهمت ماذا سيكون مصري . كان رفاقي خلال زمن طويل قد احترموا تصرفات « جوان » القريبة والشلالة ، ولكن الضحايا بدأت تصبح نادرة ولم يكن هنالك أي مبرر لأمفائي والمحافظة عليّ . وبينما كنت أجلس قرب طرف المائدة بجانب المدفأة ( كان الجميع يعرفون كم كنت اتحسس من تيارات الهواء ، ولذلك كانوا يحتفظون لي بهذا المكان المختار ) ، اقترح « زكرياس » وهو يحرق بي بنظراته الندية :

« ماذا لو عرضنا « جوان » للاختبار ؟ »

رد « نستور » :

— لماذا لا ننتظر وصول « ترومبيتا » . مساء البارحة ، كان هو الضحية . وله كل الحق بأن يلهو ويتسلّى قليلا .

— ربما لم يستطع الخروج من المنزل .

د من اي منزل ؟

ـ كيف من اي منزل ؟

ارتفعت قهقهة ضحك قوية حول المائدة . كانت تسليتي مع ذلك مشهورة بين اولئك الذين كنت امضي الليل معهم منذ سبعة اشهر في حانة صغيرة تقع في احدى ضواحي « بوينوس ايريس » ، وتتصف بالتكلف والطموح بقدر ما كانت تتصف بسوء من يرتادها وبقلة مددهم . ووضع « ماشوكو » يده على ذراع « زكرياس » :

لا تشغل بالك ، بشأن « ترومبيتا » يا معلم ! صدقني ، ان « جوان » هو الذي يجب ان يدفع .

كان « زكرياس » لا يزال يحرق بي بعينيهِ البراقطين بينما كان الباب الذي يطل على الشارع يفتح ، ويندفع الى حانة « الشيري » جماعة من زبائنه المجهولين واخذوا يهيون زعيمنا بكثير من الاحترام . كان للرجل الضخم الذي كنا نطيعه نظرات ناعمة كالحرير واصابع قصيرة جدا . كانت خصلة من الشعر الأجد تتدلى على جبينه . كانت عيننا كل من « ماشوكو » ، « نيستور » و « بيران » مثقلتين بكثير من الإنزعاج . وبدأت قطرات العرق تشوش لي الرؤية وتسيل فتدخل الي فمي .

« دعني وشأني ، يا زكرياس » .

كنت مضطربا واخذت اتحرك على مقعدي ، محاولا التخلص من سيطرة المعلم . لم يكن واردا بالنسبة لي ان اغادر المكان . جميع الرفاق كانوا قد تعرضوا لتجربة الاختبار ، وأنا وان كنت ريفيا ، فقد كان رواد حانة « الشيري » يعتبرونني شخصا جديا قام ببعض الدراسات . ولم يكن قد بقي علي سوى قبول قوانين اتفاقهم القوي والمتين رغم كونه مضمّر وضمني .



وخلف ظهري ، اخذ الباب يفتح ويفلق وامتلأت الغرفة بتيارات  
الهواء . وبعد برهة ، خضعت واستندت كيفما اتفق على الجدار ، بعد  
ان ضمت يدي تحت المنضدة .

« هذا حسن ، هيا ، لقد استسلمت » .

— يرافو ! حسنا ، أنت تعرف اللعبة . أنت كنت في مغارة وقد  
خرجت منها .

— لقد تم ذلك .

— « أوكي ، والان بدأت تمشي » .

أغلقت عيني .

« طيب جدا ، طيب جدا ، ها أنت حر . لقد بهرك النور ، ولكن  
لا تمر انتباهها لذلك ، أنت موجود في غابة . صفها لنا . كيف هي هذه  
الغابة ؟ مظلمة ؟ نيرة ؟ كثيفة ؟ ... — لا هذا ولا ذاك . — هل تسمع  
الطيور ؟ وهل تراها ؟ — كلا . — هل يصل نور الشمس الى هناك ؟ —  
كلا . — أشعر بالعطش ؟ — نعم . — هل تجد ماء في مكان ما ، أين ؟  
— في مستنقع صغير . — ماذا تعمل به ؟ اقتطس رأسي في داخله ، انه  
مؤجل . — لا تهتم بذلك ، استمر بالمشي وستجد كاسا . كاسا ! ...  
ولماذا الكاس ؟ »

اعتدلت في جلستي . وقلت محتجا : « هذا كذب ! دعني وشائي  
يا زكرياس فلا أحد يجد كؤوسا ولا كهوفا ولا منازل مثالية . وكل  
ما هنالك انك أنت قد اخترقت هذه السخافات الصبائية . كنت  
متعبا ، وهذا كل ما هنالك . بسطت ذراعي ووضعت هي القدح في  
يدي . — من تكون ؟ هي ؟ — امرأة ... — صف الكاس . — صف

الكأس : - انه قدح وليس كأسا ! وكان « موكي » يصب فيه من وقت  
آخر ملعقة من شراب الـ « سنجريا » . - ما هذا يا « موكي » ؟

وتقلصت عضلات وجهي .

« هذا شيء قذر . ورواد الـ « كمبانادا » يمتدحون فضائله المنزلية ،  
ثم ، عندما يصبحون متخمين بالطعام ، يكيلون لها الضربات ، ويبصقون  
في وجهها ، ولكنهم لا يقضون عليها . « موكي » نافع ومفيد : « موكي »  
يهتم بالطبخ والطبخ ، وبكافة الاعمال المنزلية ، ويعتني بالخيال .  
وبالإضافة لذلك ، وبدون هذا الأمر الكريه ، من كان اذن يمكن أن  
يشدب يا سمينات « فرنسيسكا » ؟ »

كان الجميع حول المائدة ، ينظرون اليّ بدهشة كبيرة كما لو كنت  
حلويا يخرج الأرناب من القبة . كانت النظرات تتسم بقدر كبير من  
الدهشة والقسوة . ولكن لم يكن هنالك ما يدعو للخوف . ولم يكن  
قضائي المنصفين سوى حفنة من المتشردين الذين كانوا يسافدونني  
على تمضية الليل في إحدى النحانات .

« ماذا تفعل بالكأس ؟ »

وتكرر من جديد السؤال نفسه . وكنت مع ذلك قد حددت بأن  
الأمر يتعلق بقدح او ربما بابريق ، وليس بكأس . كنت افكر بـ  
« ترومبيتا » الذي لم يكن قد عاد بعد . ودأبني الزعيم بنظراته .

« ماذا تفعل بالكأس ؟ »

- كيف ، ماذا افعل ؟ اني اضبط عليها وهي تصرخ .

فتحت يدي ، رفعتها وتركتها تقع على المنضدة .

« ماذا تريد أن تعرف أيضا ؟ »

— كل شيء .

كان الهواء في القاعة مشبعًا برائحة التبغ البارد والكحول السيء،  
الرخيص الثمن . كان هنالك رجال ونساء يختفون في ظلمة أحد الممرات،  
بينما كانت موسيقى الطبول تنبعث من مصدر غير منظور . حاولت أن  
أرفع إلى شفتي كأس الخمر الذي كان يقدمه لي « بيران » . كانت  
يدي ترتعش . كنت أظن أن « ليس لي بين رفاقي في سهرة الأمس حليفا  
واحدا يمكن أن يكن » الحنان أو الشفقة نحو الغريب الذي يرفض البوح  
بسر لم يعد هو مالكة . « البهلوان ومهرج السيرك » العاقل من العمل ،  
لم يكن شريرا . « ماشوكو » ابن الرئيس « أراوز » ، كان يكسب لقمة  
العيش في المرقأ بتنزيل أكياس الحبوب ولم تكن لديه عيوب معروفة .  
و « نيستور » كان قد هرب من المنزل وأخذ يقوم ببعض « الأعمال »  
دون أن يصبح بسبب ذلك أساسا ، عديم الشرف في قرارة نفسه .  
ولكن لا أحدا منهم كان يمكن أن يشفق عليّ .

تمتت قائلا : « القابة هريلة ، وجلبوع الأكاسيا نحيلة ، كأنها  
سيقان فتيات صغيرات .

— أين يقع البيت ؟

— في الجانب الآخر من الطريق .

— أعبره .

تحت المنضدة ، كنت أشعر بساق « زكرياس » الضخمة تضغط  
على وركي . حتى ولو كانت لدي الجراءة لنقض اتفاقنا ، فاني لن أتوصل  
مطلقا إلى التخلص منه . وتمتت قائلا :

« كان حداثي مليئا بالوحل ... والمرافني لم تعد سوى حقلا من  
الاشواك .

— تابع !

— لقد أصاب الدمار عامة الناس . التقطت قطعة من ملاط  
الجدران ورميتها . نعم ، لقد رميتها ، انها لم تكن قطعة من ملاط  
الجدران .

جمعت جسمي على المقعد ، وأنا أضر أسناني . كان يستحيل  
عليّ إيقاف رجفان كتفي .

« أين البيت ؟ »

كانت اللهجة قاسية لدرجة أنني ابتعدت ، كما لو كنت أتجنب  
صفعة . « في الطرف تماما ، بعد شجرات الدلب . وقد أطلقوا عليه  
اسم « لاكمباتادا » . والمستنون من سكان المنطقة يؤكدون أن الغابة  
مسحورة ، لأن « دون ساترفينو » احترام حياة شجرة يسمونها :  
« العصا النشوى » ، زهورها ذات لون وردي صارخ ، ويقولون أن  
في بطنها أكثر من أربعة عشر شيطانا .

صمت كي استرد أنفاسي وكان يراودني أمل لا جدوى منه أن يدعني  
اصدقائي بسلام ، ولكن ويا للأسف كان هؤلاء يشكلون جمهورا  
لا يتزعزع . منذ بضعة دقائق انقضت عليّ عاصفة من الذكريات . كانت  
بعض الوقائع والأحداث التافهة تبدو مرسومة بوضوح مثير ، ولكن  
مهما فعل هؤلاء الرجال ، فإنهم لن يعرفوا مطلقا ماذا  
حدث في الـ « كيمباتادا » بعد ظهر ذات يوم من أيام الصيف . أخذت  
أراقب « نيستور » ، « بيران » و « ماشوكو » ، وأنا أكتف في داخلي  
إبتسامة خفية . فالمساكين لن يعرفوا أن ثلاثة كلاب كانت قد أعلنت

عن وصولي ، ولا أن « فرنسيسكا » كانت تنتظرنني واقفة على الشرفة .  
كما أنهم لن يعرفوا أكثر من ذلك أيضا أن « سقف البيت كان من التوتياء  
الدهونة من جديد باللون الأزرق الحديدي .

« هيا ، يا عزيزي ، يبدو أن « ساقبك قد أصيبتا بالتصلب !  
هيا ، اندفع في الشارع ولو لمرة واحدة ، على الأقل !  
— ولكنني لم أفعل ذلك لأنه لا يوجد فيه أحد .

— هل أنت متأكد من ذلك ؟

— نعم » .

رغم مهمات الاحتجاج التي كانت تدور حول المائدة في حانة  
« الشيري » ، كان الشهر هو كانون الثاني ( يناير ) بالضبط في  
ال « كمبانادا » . كان الوقت ظهرا ، و « فرنسيسكا » عندما رأيته ،  
حركت عنقها حركة لطيفة . تلك الشخصية ذات الفم الساذج ،  
والأنفاس الباردة التي كانت تدمى « دون زكرياس » ، لا يمكن أن تعرف  
أبدا أن تلك المرأة ، عندما رأيته ، قالت لي بصوت الجفن السجري  
« لقد أحببت رسالتك ، يا « فيلاجرا » . ولن تعرف أبدا بأنها أخذت  
تضحك وهي تبسط لي يديها اللتين أمسكت بهما بكلتا يدي . ولا أنها  
كانت ترتدي ملابس تشبه ملابس فتى شقي ومشافف وقبعة مدببة  
ملقاة فوق أعلى الرأس ، وحول راسها زوج أساور من البرونز .

أصدقائي ، أولئك الذين عرفتهم قبل المصيبة والشقاء ، كانوا  
يؤكدون أن مالكة ال « كمبانادا » لم تكن سوى اختراع مرضي لثلاثة  
من العزاب المسنين والعاطلين عن العمل . كانوا يقولون أيضا أن الكتاب  
الذي كان قد كرس « فرنسيسكا » : « نصوص نثرية من بوينوس ايرس » .  
كان من عمل كاتب مغمور من هنلوراس توفي في أواخر القرن الماضي ،



وأن شهرة « هونتير » الجميلة لم تكن سوى خدمة قام بها ثلاثة رجال  
مستئين فوي أسمه تاريخية ، يتصفون بنهمهم المتعلق بالملكات المشبوهة .  
ورغم هذه النخبة وما تضمنته من قول سيء فإن اعجابي بالشاعرة ظل  
سليماً لا تشويه شائبة . كنت أحفظ 'شعارها غيبا والقيها بنفس التقديس  
الذي يلقي به الآخرون « نشيد الانشاد لسليمان بن داؤود ، أو نصا  
صوفيا للقديس » « جان دولاكروا » .

« عندما تكونين قد رأيت الله ، التفتي وسامحي ... كلت راحة  
يدك تفرق وتتلأشى في البرد ... وتكبر حتى تصل الى بريق غير محدود  
يتجاوز أي قياس ... أيها الفتى التائه ، عندما ستجئني وتلتقي بي  
ثانية ، لا تخطيء ، بل لا تخدع بالجرح ... » .

كل سطر كتبته ابنة النبيل المفرور ، الذي لم يكن ، على ما روته  
الأساطير ، سوى «دون ساترنيو هونتير» ، كان يتضمن شكوى صوفيه .

« سوف تصطدم بتمثال من الملح ، أيها الأحق المسكين ، هلا  
ماكان يقوله لي أصدقائي ( أصدقاء ماقبل المصيبة والشقاء ) . وتلك  
المزعة التي تسكنها حبيبتك « دولسينا » هي صحراء . و « ساترنيو »  
لا يمكن أن يكون أبدا سوى طافية مستبد لا يتمتع بأية موهبة . « كما  
أن أصدقائي في « جالوجاي » أو في الحي الشمالي في « بوينوس ايريس »  
كانوا أيضا أقل تطورا من رفاقي رواد حانة « الشيري » . كان « جوان  
فيلا جرا » يرفض الاصفاء اليهم . فهو سوف يكتب رسالة الى  
« فرنسيسكا هونتير » وربما ذهب الى « الكمبانادا » دون أن  
ينتظر الجواب .

« يبدو وكأنه قد نام !

— بالمجوان المسكين !

— في الريف جميعهم هكلا ، المثقفون ، جملة من الفاشلين » .

لم تكن أصوات رفاقي تصلني إلا عبر طبقات من المياه الموحلة .  
وعلى شرفة « الكمبانادا » ، بعد ظهر ذلك اليوم من أيام الصيف ، كنت  
الشاعرة تشبه زهرة دوار الشمس . كنت عناقيد الياسمين تلف حول  
أعمدة البيت القديم ذي اللون الكبريتي .

« أنا مسروقة لأنك حضرت . فالرحلة شاقة وطويلة من « بوينوس  
أيرس إلى هنا » .

أخذ وميض أصفر ينير نظرتها . واقترب جسمها الرشيق من  
جسمي لكي نعبر المرج الأخضر ونتحاشى الشجرة المشهورة بكونها ندير  
شؤم والتي كانت تشبه إحدى الرخويات الضخمة . ودوى صوت  
« زكرياس » :

« هيا ، يا جوانيتو ! افتح الحاجز .

— اني لا أستطيع ، فهو مثبت .

— اصرخ ، ناد ، اعمل أي شيء !

— لا يوجد أحد .

كنت مصرا على عدم الإجابة . وكانت الذكريات تزداد إلحاحاً .

« من هنا ، يا فيلا جرا !

كانت الشاعرة تشير لي أن أتبعها ، وكنا ونحن ملتصقين ببعضنا ،  
نسير على غير هدى في الغابة بين الأشجار الضخمة . وبآخر ممر تحيط  
به أشجار السنديان ، انحنت الشابة لتلتقط قشة مشب وتدمسها بين  
أسناتها . ثم قالت :

لقد كان المطر غزيراً الشهر الماضي ، وأزهار الخزامى تملأ الحقل ،  
وقد زومت هنا بعض أزهار « أكليل الجبل » . ثم وجهت لي خطبة  
ابتسامة مشاركة وتأييد وأضافت وهي ترفع رأسها : « عندما لا يكون  
هنالك من يراقبني ، أعمل ما يجلو لي . وأعتقد أنني قادرة حتى على  
الحصول على أزهار « رعي الحمام » لو شعرت برغبة بذلك » .

بالفرنسيسكا الساكنة ! فالمرء يكاد يعتقد أنها تقوم بدور يمثل فيه  
الظرف العامل الرئيسي . فمرونتها ، المرتبطة بخط كتفها المشترك  
وبقامتها التي يضمها بنطال من الجلد ، كانت تضيء عليها سحراً غامضاً .  
وأنني لأذكر جميع الروائح التي شممتها بعد ظهر ذلك اليوم ، وطعم الهواء ،  
وهدوء البراري . كان الجو ثقيلًا على سطح التوتياء . دست  
« فرنسيسكا » ذراعها حول خصري . كان جسمها يلتصق تمامًا بجسمي .  
لم أتحرك . أما هي فقالت فجأة :

« لولا الياسمين الذي يعمش حول نافذتي لما استطعت العيش بعد  
الآن ! أنا أعرف أنهم ينتزعونه لي أثناء الليل ، ولكنني لا أستطيع عمل  
أي شيء حيال ذلك ، فأنا لا أمرئة ، بل لا أستطيع الدفاع عن نفسي  
وحماية أشيائي » .

زمت شفتيها وتقلصت رقبتها . وأحاطت بعينيها تجاعيد كثيرة .  
لم يكن هنالك جلوى من محاولة احتواء قلقها ولا من أن أبدل جهداً لأقول  
شيئاً آخر سوى إحدى الحماقات . ولذلك قررت أن أبعثها دون أن  
أحاول جعلها تتخلى عن حديثها الانفرادي ( مونولوجها ) . ولكن أصوات  
رفاقي ، رواد حانة « الشيري » كانت تحول بيني وبين الاصفاء التي  
ماكنت أقوله .

« آبه فيلا جرا ! . . ليس الحال على مايرام . هل ابتلعت لسبانك ! » .

انتفضت ... وتمتت :-

« انها الشجرة ، « العصا النشوى » . لقد نمت كثيرا للدرجة انني لم اعد استطيع رؤية مدخنة البيت » . كلا ، ان هذا الرجل الضخم المتلوي لا يمكنه ان يتوصل لجعلي اتحدث عن « فرنسيسكا » . ولن يعرف مطلقا ، انها عندما وصلت قرب شجرات التوت ، جلست بجاني ، على جذع احدى الاشجار ووضعت رأسها على ركبتي .

مازلت اذكر ابتسامتها التي يشوبها الخوف ، ويدها المسرعة التي كانت تتلمس قفا بنطالي ، تحيط بكاحلي ، تدب مستقيمة على ساقي ثم تضغط على فخذي ، وهي تردد : « شكرا ، شكرا » . ولكن عندما حاولت ان اجلبها الي ، بدرت منها حركة تنم عن التراجع ، حولت رأسها ، واخذت تحرك التراب باصبع عصبية ثم اقتلعت حفنة من النباتات البرية .

صرخت قائلة : « هنالك مزيد من الناس ! واكثر بكثير مما ينبغي » .  
« لم تعد ميناها تبرقان وكانت قبعتها الصغيرة المديبة قد انزلقت على كتفها » .

« انهم يحولون بيني وبين السعادة ويمنعوني ان اكون سعيدة ، يا جوان . انهم لا يدعوني وشائني كي ابقى هادئة مطمئنة ، حتى ولا في وقت القيلولة » .

كانت تتكلم كطفلة صغيرة وفجأة اصبح وجهها شديد الاحمرار .  
« سأقول لك شيئا . ايه ، انك الرجل الوحيد الذي اشعر بالرغبة نحوه منذ سنوات عديدة . »

كانت مفاجأة كبرى قبضت على قلبي ولجمت لساني .

وتابعت كلامها :

« كم أود لو أستطيع التدرج معك على الحشائش وأن أصبح قطعة من تراب . قل لي ، ما هي الجدوى من كل ما هو عطري الرائحة ، ومن كل ما ينبت وينمو ، عندما نضبح أمواتا ؟ »

عند قولها هذه الكلمات، كان في نظرتها شيء من القسوة والوحشية. أمسكت الفتاة من كتفيها ولكنها تملصت مني ، ونهضت ثم أسرعت الخطى نحو البيت .

كان طريق العودة قصيرا لا تتخلله أية ذكريات .

« هيا ، يا جوان ، هيا . الأمر ليس لعبا ، تكلم ، أريد أن أعرف ! » كان « ماشوكو » ، ابن الرئيس « آراوز » يمسك بعنقي وكان صوته ملحا ..

قلت ، « نعم ، اني أعرف ذلك ، أعرف أن ليس لي الحق بأن أنام ، هذا ما وعدت به ، ولكنه الحاجز ، كما ترى . أنه يشلني ، هذا الحاجز ، انه مثل تلك الشجرة المشؤومة ، التي نمت كثيرا وحجبت عني الرؤية بحيث لم أمد أرى شيئا . والعشب نبت بفزارة أيضا ، أما تلك القطعة من الملاط التي التقطتها قبل قليل ، فاني أفضل عدم التحدث عنها ، فهي تنزف . »

لم يجبني أحد . وفي ذاكرتي ، كلفت « فرنسيسكا » قد أحتت رأسها . وكانت بعض الكلاب تتراكم نحونا وتلحس لها ذراعيها . فقطعت بعض الياسمين الذي كان يلتف على أعمدة الشرفة واجتزنا حتبة قامة غارقة في الظلام . انتظرت طويلا قبل أن أستطيع تمييز قطع الأثاث ، كالكتب الكبير ، المكتبة ، الفرش ، البيانو وأريكة الزاوية المفطاة بالغبار . ولفتت أرضية القاعة نظري : كانت من الرخام ، على شكل بلاطات مربعة وكبيرة . أمسكت « فرنسيسكا » بيدي كما لو كنت طفلا كانت ترغب بأن تعلمه على ما لديها من كنوز .



« هل رأيت جسور السقف ؟ لقد كان أبي يحب كثيرا خشب الزان الفاخر بسبب قسوته . كانت جميع جوانب وجدران المنزل مدعمة بالخشب القاسي . عندما يسقط الملائط ، سوف نسكن في سجن شفاف . وأضافت دون تأثر أو انفعال : لن أضر طويلا ، ولذلك فاني أظل ساهرة عندما ينامون . ساعة القيلولة هي لي ، ليست لسبواي ... وأن يكن ... » رف جفناها ولزمت الصمت . ثم نرمت قبعتها وأخذت توزع طاقات الزهور في الغرفة .

أضفت فجأة بلهجة غير متوقعة ودون أن تلتفت : « اعدوني اذا كنت لم اهتم بك ، فانا لا أعمل شيئا لأحد . » لم يكن هنالك جدوى من ابداء الرأي ، فقد كنت متأكدا أنها كانت قد فقدت الشعور بوجودي الحسي . كانت « فرنسيسكا » قد اختلقتني ، كما كانت قد اختلقت أولفا آخرين من هواة المجاملة واللفظ المتكلف المستعدين للسير وراءها في متاهاتها كأنهم صفار البط . ثم ، أية ميراث أو مؤهلات خاصة كانت لدي كي استرعي انتباه « فرنسيسكا هونتيز » . أنا الذي لم أكن سوى مجرد حائر وضال من الطبقة المتوسطة ، لدي بعض الميول والطموحات الأدبية وغير قادر على التصرف والرد كرجل ؟

كان قد زال كل اثر ينم عن القلق من على وجه مضيفتي . كانت تتجول بسهولة وراحة بين قطع الأثاث المتدامية ، كما لو أنها كانت تفعل ذلك في أحد القصور . كان الظلام لا يزال مخيما والصفى السائد كان يتسم بثقل مصطنع . شغرت برغبة قوية بالصراخ عاليا كي أحبط سحر ذلك البناء الضخم المدمم بكل غياب بالخشب الصلب والمقطى بسقف من التوتياء المدهونة باللون الأزرق ... ولكنني كنت أعلم اني لو فعلت ذلك ، لكان من الممكن أن تنار الأضواء جميعها سنوية وفي وقت واحد . ولكن كن يجب علي أن أجنب تلك الكلوثة مهما كلف الأمر .

ضرب أحدهم المنضدة بقبضة يده . وكان لا بد لي من أن أفتح عيني .

- قال « زكرياس » : « انس مشيك في نومك وتناكك . انس تلك القطعة من الملاط اللعينة ، ومصاك المشؤومة ، وافتح الحاجز .

- اني لا استطيع .

- ولكن ماذا تخشى ، اذا لم يكن هناك احد ؟

- اسوأ الأمور .

- ماذا فعلوا بك ؟

- لقد نادوني .

- حسن ، من الأولى بك ان تفتح الباب .

- انه مشئت . «

كنت اوشك ان افقد اعصابي ، كطفل قد استولى عليه الرعب امام لجنة من الاساتذة تقوم بفحصه . كان يجب على اولئك الرجال ان يلزموا الصمت ويسمحوا لي باستعادة ذكرى تفاصيل الأمسية الوحيدة في حياتي التي كنت فيها محبوبا . فمند عدة شهور كنت ابدل جهودا كبيرة كي اثبت في ذاكرتي كل حركة ، وكل تمتمة بدت من « فرنسيسكا هنتير » ، وكنت مصمما على الدفاع عن نفسي وعلى عدم السماح لهم بأن يقطعوا ، باحاديثهم ، اللحظة التي ظهرت فيها في القامة ونظفت أصابعها في اناء من البورسلين . كان صوت الماء قد بدا لي مهدئا ومريحا للأعصاب ممتازا بالبرودة وبعذوبة اللذبة في ذلك الجو البالي . جفت الفتاة يديها ملوحة بهما فوق رأسها . ثم جلست على وسادة قرب المدفأة . وعبر الضوء الضعيف الذي كان يسود المكان لاحظت ان مدارتها كانت قد انفتحت قليلا وان نهديها كانا صغيرين وياردين . وتكلمت دون أن تنظني الي ، كما لو كانت تصل سياق حديث كان قد انقطع . لا بد انها كانت قد خلعت بنطالها وارتدت تنورة لأن ساقيها كانتا تتألقان تحت أشعة

الشمس الأخيرة . قالت بهدوء : « أن لكل ثانية من الصمت نفحتها الخاصة ، كل شخص له نفحته أيضا . ليس كذلك . فانت مثلا ، لك رائحة عرض البحر . وأنا لا أعرف البحر ، ولم يسبق لي مطلقا أن رأيت أية زوارق أو بواخر . ولا شيء سوى العشب والأرض والتراب في كل مكان ، ولكنني أعرف . »

كان ساقاها غضتين ، طويلتين ، نامنتين كالحرير . وببطء ، ببطء شديد ، أدنت وجهها من وجهي ، وبدأ لي فجأة ، وقد جلست القرفصاء ، أن جسمها هش جدا . أمسكت براسها وقبلت جبينها وصدغيها ثم أخذت أداعب شريط صدارتها وألوه به . وفي الحال اكتشفت أصابعي كتفين نحيلتين بعض الشيء ، وعنق جميل بشرته ملمسها ناعم وبارد . وكان نهذاها منطلقين وثابتين . كانت يداها تفكان ربطة عنقي بينما كنت أفك نطاقتي وأرفع قميصي . كانت أرضية الغرفة باردة . أخذت أنتظر ، ومضلاتي مشدودة ، وقمي جاف . انتظرت إلى أن اقترب بطن المرأة من بطني والتصق ببشرتي . حينئذ تدرجنا أنا وفرنسيسكا هنتير على البلاط ، وقد غمرتنا وبهرتنا السعادة ، وكذلك اللعاب ، والمطرش . . .

ومنها انما بدر رد الفعل الأول . وقد شعرت بذلك بواسطة صوت معدني طرق أذني . وأخذ يتصاعد من داخل القامة ضجيج بعضه بشري والبعض الآخر حيواني ، كان دون شك صادرا من بين الفرش والوسادات المقدسة على الأريكة . وتعالى صوت أمر : « هيا ، انهض يا موكي ! »

كان ذلك الصوت الأمر هو صوت فرنسيسكا . كانت رؤية كتلة مشوهة الشكل تتمدد وتتمطى على بعد خطوتين منا تدمو إلى القرف . وضفتني ابنة « دون سانترييتو » بين ذراعيها كما لو أنها بذلك تودعني ثم أدارت لي ظهرها وأمرت ذلك الذي كان يتحرك في إحدى الروايل .

« هات ، أحضر يا موكي ، أجلب بسرعة . »

يجب علي أن اعترف أن كل ما حدث اعتباراً من تلك اللحظة كان على صعيد المكر والخبث ، حيث يتمازج اللحم واليقظة بقسوة حريّة. بتحويل أشد الرجال صلابة إلى انسان مسلوب الإرادة يمشي وهو نائم طيلة ما بقي في عمره من ليالي . خلال بضعة ثوان ، صرحتني السعادة أرضاً . كان جسمي ملقى على أرضيّة من الرخام ، خائر القوى .

« صبني له الشراب . »

لم تعد المرأة التي دأبتني سوى صوتاً . وقد عاد القبطان إلى مركزه في أعلى الباخرة . وكانت « موكي » قد خرجت من بين الوسائد واختفت خلف الستائر ، ثم عادت وهي تحمل أناءً فضياً . تقدمت نحوي وقدمت لي قدحاً . ودون أن تطلب رأيي أخذت تسكب سائلاً قرمزي اللون إلى أن طفق القلح وانسكب الخمر على قميصي وعلى بزّي الكتانيّة . قمت بحركة لأوقف تدفق السائل الذي كان يفرق ملابسني ، ولكن ذراعاً قوية ثبتت الأناء في مكانه وانسكب محتواه على الأرض وسال تحت قوائم الأرائك .

كانت « موكي » تنظر إليّ رابطة الجأش ، هادئة . كلفت عيناها تبدوان كأنهما ثقبان في قناع من المطاط . وقرأت فيهما لامبالاة فظة لا تخلو من الاحتقار . أما « فرنسيسكا » ، فكانت تعود نحوي تحت منظر جديد ، يلقها فستان طويل من البروكار ، وعندما رأيتها، بادرت إلى ذهني صورة القديسة « ايزور » المعلقة فوق سرير أمي ، في « جوالوجاي » . لم يكن هنالك أي شيء ، فاللعبة كانت قد انتهت ، ولكنني كنت أجهل أية لعبة هي المقصودة ولاي نوع من السحر كنت مستسلماً .

ماذا سنفعل به ، يا زكرياس ، هل نتركه أم نشبعه ضرباً ولكما ؟

— أنت تزين جيدا أنه قد تعاطى مخدرا . كل هؤلاء الريفيين هم هكذا . انهم يمشفون أوراق الكوكا ( التي تحتوي مادة الكوكايين ) كما لو كانت حلقة أميركية .

— انك تقولين سخافات ، ف « جويانيتو » ليس من « الشمال » .

— الامر سيان . ثم هو يمضي عطشته واجازاته في « بونتا ديل است » . وأبناء الأغنياء يتعاطون المخدرات . «

لم تعد أحاديث رفاقي تزعجني . فانا أكاد لا أسمعها . فهي لم تكن سوى وشوشة طيور ليلية ، وكانت ذكريات الـ « كمبانادا » تعود إليّ الواحدة بعد الأخرى بدقة شديدة .

كانت الساعة قد قاربت التاسعة عندما تعالى النباح لأول مرة وانفجرت الأصوات الأولى . وفتحت الأبواب ، وانيرت الاضواء ، وشق ثلاثة رجال يرددون الملابس الانيقة طريقهم بين قطع الاثاث . كان أصفهم سنا في الستين من العمر ، ويدعى « الفريدو » . كان يتكلم من رؤوس شفثيه ، بلهجة خفيفة ، رافعا رأسه ، وقد وضع دون اهتمام باهميه في جيبه صدرية . كان ما بقي من شعره ملصقا بعناية على أعلى رأسه وكان واضحا أن خديه قد تمّ تدليكهما قبل قليل من قبل أحد الخبراء . تراجعت الى الراوية الأكثر ظلمة في الغرفة ، بعد أن شعرت فجأة ببياض ملابسي الدامي . أما الزائر الثاني ويدعى « بيدريتيو » ، فقد أخرج من جيبه علبة سجائر ذهبية وقدمها مفتوحة، الى الأنسة « همنتر » .

« عزيزي » فرند ، « ان جو » بوينوس ايرس لا يطاق بشكل خاص هنا الصيف . فالحرب في كل مكان ، كأنها جرثومة الوباء . فالناس يشعرون بالملل ويقتل بعضهم البعض الآخر . ولا تدركين سمادتك .



الهواء ، الصمت ... « ضم اليه الفتاة طويلا ، علانية ، ثم انحنى نحو « موكي » وداعب شعرها ، كما لو كان يفعل ذلك ، على وجه التقريب ، لأحد الكلاب الأليفة .

« أهنتك . ان صديقتنا « فرنسيسكا » تزداد جمالا يوما بعد يوم . في هذا الفستان ، وهو من صنع « بولديني » .

أما الثالث فكان يسمى « مارسيلو » . كان برونزي اللون بشكل جذاب ، دقيق الشاربين أكثر من المعتاد . أمسك معصم « فرنسيسكا » ومر بشفتيه المفتوحتين على سلعدها .

ثلاثة رجال مسنين ، شاعرين بأهميتهم ، أخلوا يزعمون الغرفة جيئة وذهابا ، وهم يعلقون على أخبار ذلك اليوم : الكارثة العامة ، فظافة وتفاهة الشباب ، أسعار المحروقات الفاحشة ، عدم امكانية تجنب اجتياح « النادي » من قبل الرماع . كانوا قد خرجوا لتوهم من مكتب الوزير ، فهم يعرفون خفايا الامور الاشد سرية ، مطلعون على آخر الفضائح ، وعلى آخر حادثة انتحار وآخر عملية اختطاف . فلم يكن هنالك أي شك ، الكون ، بالنسبة لهم كان يبدأ وينتهي ضمن دائرة رسمها أجدادهم وأن أي شكل من أشكال السقوط أو الانحطاط سياسيا كان أم ماليا ، لا يمكنه تلميره أو حتى الاخلال بنظامه . كانت « موكي » قد تخطت عن النبيذ وأخذت تقدم الويسكي « السكوتش » بأقداح من الكريستال .

سألها « بيدريتيو » : هل حضرت لنا طعاما طيبا للعشاء ؟ أما الشخص ذو القناع المطاطي فقد هز كتفيه وخرج من الغرفة وأغلق الباب بقوة .

صرخ « مارسيلو » ، بينما كان « ألفريدو » و « بيدريتيو » يلامسان ويداعبان كتفي « فرنسيسكا » : « يا له من طبع قذر ، طبع سجانك ! »

« كيف حال شيطاننا الصغير ، اليوم ؟ هل نظم بعض الاشعار ،  
هذا الاسبوع لاصدقائه القدامى في العاصمة ؟ »

كان الشيطان الصغير يشبه وشاحا كبيرا تلعب به ثلاثة دمي قديمة  
مطلية بالمرامح والاصباغ ، وهي تفعل ذلك اما سوية اما احدهن بعد  
الآخرى ، وهن يضحكن . وفجأة ، ، أخرج « مرسيلو » شيئا من  
حقيبة للسفر . وهمس قائلا : « لقد عثرت عليه في مكتب العم «دييفو»  
انه أثر» يعود الى ما قبل القرن السادس عشر ، وهو عبارة عن اسطوانة  
للمغنية « ايفيت جيلبير » . سرت ارتعاشة سرور في المجموعة الصغيرة  
وتوقف الرجال الثلاثة جامدين باحترام حول الحاكي « المفونوغراف »  
للاصفاء اللالحن الحادة والمرتمشة للأغنية الشهيرة : « ارجع إلي » ، الا  
تريد ذلك ، ان غيابك قد حطم ح . . . يا . . . تي . . . كان الصمت  
العميق يحيط بنا ، وفرنسيسكا « ، فرنسيسكا الجميلة ، التي كنت  
قد تدحرجت واياها على الارض قبل لحظات ، كانت ترضخ لارادة  
ورغبات ضيوفها الثلاثة حتى انها لم تعد ، بين أيديهم ، سوى دمية  
مشوّهة . كان الدخان يشوش عليّ الرؤية ، وكنت نبلغ مسامي نتف  
من بعض الجمل ، ضحكات وتعليقات سياسية ، بل وأدبية أيضا .  
كانت أسماء « بول بورجي » ، « مارسيل بريفوست » ، و « أناتول  
فرانس » تلفظ بتلذذ . وأسماء « ماردروس » و « بيير لويس » كانت  
عندما تذكر ترافقها ضحكات خافتة وسليطة . شعرت بالقرف تخالطه  
السخرية الذي أحدثه فجأة اسم « بيكاسو » وبعد ذلك بقليل اسم  
« جان بول سارتر » . كانت كلمات « عظيم » ، « آلهي » ، رباني » ،  
و « خرافي » تتردد بكل مناسبة ، ان كان لوصف نوع جديد من الاطارات  
او عند ذكر فستان سهرة نسائي على الري الدارج حديثا . وعندما  
يوجهون كلامهم الى « فرنسيسكا » او يتحدثون عن أعمالها ، كان  
الهدر والكلام الساذج والسخيف يتراكم الى أن يشكل ركاما ضخما  
من الحجج الواهية .

أثناء هذا الوقت ، كان ذلك الدخيل ، الذي كان ينظم شعرا رديثا  
أي « جوان فيلا جرا » قد ظل ملتصقا بالمكتبة تكاد لا تحميه مؤلفات  
« دون ساترنيو » المفضلة ، الوحشية في غالبيتها ، موقعة من قبل  
« ادغار آلان بو » ، و « بودلير » و « باري دوريفيلي » . لم يكن أحد  
بين زوار « الكامبانادا » يبدو أنه يشعر بوجود شخص غريب في حرمهم  
المقدس . كانت الأيدي المتلمسة تتابع طريقها على عنق « فرنسيسكا »  
وكانت الضحكات الفاضحة والمعيبة تتوالى مصحوبة بأكثر قدر من  
الاحتقار للمشاهد المجهول الذي كان يحب « نثر بونوس ايرس »  
والذي كان قد قطع مسافة خمسمائة كيلو مترا في أحد القطارات الريفية  
لكي يعرف من هو مؤلف تلك النصوص النثرية . كان لدى انطباع واضح  
جدا بأنه قد تحولت إلى أحد أولئك الخدم الذين يستطيعون البقاء  
ساكنين لا تبدر منهم أية حركة ، خلف أسيادهم ، طيلة مدة تناولهم  
وجبات الطعام . اغتنمت « فرنسيسكا » فرصة الصمت لتعلن فجأة  
بصوت واثق : « أريد الذهاب إلى شاطئ البحر . »

تبعت هذه الكلمات انتفاضة اعترت ضيوفها وتحولت دهشتهم  
إلى غضب شديد :

« إلى شاطئ البحر ! ولماذا ؟ »

— لكي أستحم .

نظر الضيوف إلى بعضهم برعب . فشيطاتهم الصغيرة أبدت  
أحدى رغباتها .

« ولكن أنت لا تفكرين جديا بذلك ، يا صغيرتي . إذ أن امرأة  
في مثل وضعك لا يمكنها الظهور في « مار ديل بلاتا » . ثم نحن لا نستطيع  
أن نرسلنا إلى أي مكان . و « موكي » لا يمكن تقديمها لأحد أو تعريفها  
على أحد . والناس يصبح بإمكانهم أن يتصوروا ... أخيرا ، أنت تدركين  
ملذا أعني . »

لم تبال « فرنسيسكا » بذلك ولم يرف لها جفن وأعلنت بصوت قوي لا نبرة فيه :

« اذا لم تجدوا وسيلة لارسالي الى شاطئ البحر ، فتعسا لكم . فهذا البيت لم يعد سوى هيكل على العظم . وهو سينهار قريباً ، وانتم ماذا ستصبحون وماذا سيحدث لكم بدون « الكمبانادا » ؟ الى اين ستذهبون يوم الأحد ؟ من حانة الى حانة ، ومن سهرة تعزية بأحد الأموات ، الى سهرة أخرى لا تختلف عنها بشيء ؟ » .

قو طع هذا التعداد بضحكات مكتومة .

وقال « ألفريدو » بحدة :

ان مزاح شاعرنا ذو طابع كره . ومع ذلك فان الأفلام الخليفة والمجلات الهيبيية لا تصلها ، على ما أعلم » .

استمرت وتعالق قهقهات الضحك . كانت تبدو مفتعلة . سقط شيء ثقيل على البلاط الرخامي . كان ذلك إناء الشراب . قفز الرجال الثلاثة واقفين دفعة واحدة . والسائل الأحمر انتهى هذه المرة ، بالانسكاب على فستان الشاعرة .

صرخ « ماسيلو » :

« ما هذه القلادة ؟

— هذا دم » .

كانت « موكي » تقف في مدخل القاعة .

« العشاء جاهز » .

كان وجهها يرداد شبها بقناع صنعه أحد لصوص أو أحد متشردي  
الحي الصيني .

« حسن ، حسن . هيا بنا » .

نهضت الشاعرة ، نقضت فستانها ، وعند مرورها بقربي مستني  
دون أن تنظر إليّ . أما « موكي » فبقيت خلفنا .

همست لي وهي تتفرس بي بعينيها اللتين تشبهان ميني الخنزير :  
« ماذا تفعل هنا ؟ هل أدركت بنفسك ما الذي سببته ؟ كيف سنستطيع  
أن نعيش الآن ؟ هيا انصرف ، انصرف بسرمة . فلست سوى حيوانا  
قدرا كربه الرائحة » .

كان الجو ثقيلًا والهواء كثيفًا في القلعة حيث كانت لا تزال تتردد  
نغمات مغنية « لوتريك » المفضلة ، مضافة الى ترنّات أعضاء « الجوكي »  
الثلاثة ، الشهوانية .

تحولت جانبًا لكي لا أسمع بعد ذلك شتائم « موكي » وخرجت من  
الفرفة . وعلى الشرفة ، كان الجو لا يزال حارًا والليل تزينه النجوم .

عندما استيقظت ، كانت ثمانية ميون جامدة كالحجارة  
تحلق بي .

« حسن ، لقد كان وقتًا طويلًا ! ولكن ها أنت قد خرجت من  
غيبوبتك . واعترف لك بأننا كنا قلقين جدًا عليك . وكنا نتسامل فيما  
إذا كنت لم تفارق الحياة .

— لقد قفزت من فوق الحاجز .

— هذا ليس قبل الأوان ، وليس مبكرًا أكثر مما ينبغي ! والآن  
ماذا يحدث ؟



— لقد ماتتا .

— من هما ؟

— « فرنسيسكا » و « موكي » . الاثنتان ماتتا سوية في الوقت نفسه . ولم يعرف أحد ابدا من منهما وضعت السم في الحساء المطبوخ بلحم الأرنب . وقد تحدثت الصحف عن ذلك . والجميع كانوا يعرفون هوس « فرنسيسكا هونتير » بجمع الأعشاب البرية ولا أحد كان يعرف أن « موكي » شاذة أو أنها وحش مخيف . والأمر البديهي تماما هو أن احدهما قد دسست السم للآخرى . والذي حدث هو أنهم قد وجدوهما ميتتين ، كل منهما في سريرها ، بعد بضعة أيام من زيارتي . أما السادة الثلاثة ...

— أي سادة ؟

— أولئك الذين كانوا يتعاملون معهما ويعملونهما . أشخاص مسنون من « بوينوس ايريس » . لم تكن الفتاة المسكينة تملك قرشا . وكان والدها قد منعها من متابعة الدراسة . ولم تكن تجيد شيئا سوى الكتابة ولكن لم يكن أحد يؤمن بصقريتها . وكان الناس يعتبرونها مخادعة وغشاشة ويتعاملون معها على هذا الاساس . وكانت زوجة الجزار هي التي تحضر لها مجلات الأزياء . ولم تكن تخرج مطلقا من بيتها القديم . كما أنها كانت ضعيفة وهشة . وبحاجة لمن يحميها . وعندما ماتت رفض الثلاثة ، الذين كان كل منهم « زير نساء » العودة الى « الكمبانادا » رغم أنهم استغلوا مفاتها خلال عدة سنوات .

خبأت وجهي بيدي كي أخفي ارتعاش فمي .

قال « ماشوكو » ملحا .

« ولكن ، يا « جوان » ، لقد قلت أنك كنت قد قمت بزيارتها قبل وفاتها . فماذا حدث أثناء تلك الزيارة ؟

— لقد تعرضت للمهانة : فقد بصقت « موكي » في وجهي وهي ... هي ... لم تبدر منها أية حركة للدفاع عني . كانت تدرك جيدا اني كنت عرضة للهزء والسخرية ، واني لم أعد سوى دمية ، بل « أمعة » ، ولاحتي « أمعة » ، ربما أحط من كلب . وفي اليوم التالي تلقيت رسالة .

— ممن ؟

— من « فرنسيسكا » . كانت تقول لي فيها ان حياتها في خطر .

— وماذا فعلت ؟

— لم أذهب اليها .

وخيم عليّ صمت يشبه صمت القبور .

صرخ « زكرياس » بأعلى صوته :

« لك مني كلّ التهاني !

قال « ماشوكو » محتجا :

— لحظة ، لقد سمعت ما قيل عن قضية « هونتير » . والصحف كتبت الكثير عنها . وما قاله « جوان » صحيح . فقد كانت الفتاة المسكينة تعيش تحت المراقبة والحراسة ، أولا من قبل والدها ، ثم من قبل ثلاثة مسنين ، من ذوي الأفكار الرجعية البالية الذين كانوا أشبه بالمستحاثات . أما « موكي » المشهورة ، فقد كانت بالحقيقية شيئا مميبا ، دملا ، كتلة من الرغبات والشهوات حرة بأي شيء . وبراوي ، فان هاتين المرأتين قد جرحتا كبرياء « فيلاجرا » وقد أحسن صنعا بعدم استجابته لنداء امرأة معتوهة .

بدرت مني ابتسامة عزاء فهناك من يدافع عني .

« شكرا يا « ماشوكو » ، ولكن بالحقيقة ، أنا نذل . لقد أحبتني تلك المرأة . أحبتني طيلة بعد ظهر أحد الأيام . وصدقني أنها لفترة طويلة طيلة بعد ظهر أحد الأيام عندما نحب دائما وإلى الأبد .

— لقد أهملتك ولم تبال بك .

— هذا ليس صحيحا .

— اذا كان ذلك يزعجك ، فلماذا اذن اخترت هذا الكوخ ؟... فلاختيلو حر . ولكن بإمكانك أيضا الذهاب الى مكان آخر . الى منزل ذويك مثلا ، أو الى احدى دور البغاء .

— بالنسبة لي ، لا يوجد بيت آخر سوى « الكمبانادا » .

— اذا كان الأمر هكذا اذن أسرع بالسير حتى النهاية . نريد أن نعرف ما الذي حدث في ذلك الضريح . ثم عندما يكون أحلنا قد حظي بشرف المحبة من قبل احدى من يتحدثون عنها في الصحف ... »

انتشر تيار من الهواء البارد في الحانة : كان قد دخل أحدهم . كان مبتلا من رأسه الى أخمص قدميه . لم يكن أحد يعير وجوده أي اهتمام . كانت كل الأنظار موجهة اليه .

قلت : « ترومبيتا » ، أين كنت ؟

ولكن « زكرياس » أبعد صديقه بحركة من مرفقه ووضع سبابته على صدري .

« لا تهتم ولا تشغل بالك بكل ذلك وحدثنا عن « الحياة الهنيئة » في ملكية آل « هونتير » . فالمرأة التي تجد ثلاثة أشخاص لامالتها والعناية بها ، ليست امرأة عادية كأي امرأة كانت . »

كانت لهجة الرئيس أكثر خشونة من المعتاد . فانكفات الى الخلف  
وبسطت ذراعيها على فطاء المنضدة .

قلت بكل هدوء : « بما أنك تلج على ذلك ، سأقول لك بأن العصا  
النشوى كانت اخطبوطا . وأن اقصانها وفروعها قد اجتاحت نصف  
الشرفة . وأنه لم يكن هنالك حيوان حي في الجوانب المجاورة وأن  
سقف البيت قد حال لونه تماما .

تبا ، هذا أسوأ ، تابع التقدم !

— ليس الأمر سهلا ، فقدماي تفوصان . والمطر ينهمر منذ شهور  
وعندما تمطر في هذه المنطقة ، تتشكل المستنقعات . أما بخصوص البيت،  
فقد حدثت كائنه : أنه مهجور . فالأبواب مفتوحة أو أنها قد اقتلعت من  
أماكنها . والسقف مهدم . ولم يفكر أحد باغلاق الأباجورات لمنع المطر  
من تخريب كل شيء في الردهة . عرفت المدفأة ، والبيانو الضخم ، الفرش  
والستائر وائاء البرسلين السدي كانت « فرنسيسكا » تفسل فيه  
أصابعها . وفي العمق ، الى الداخل ، الأريكة التي اختبأت فيها « موكي »  
حينما كنا أنا وصديقتها نمارس الحب . كانت تبدو غريبة الشكل ، تلك  
الأريكة . كنت أجد صعوبة في التنفس ، ومع ذلك بدلت بعض الجهد .  
لمست اطار المدفأة ، أبحث من وجه « فرنسيسكا » . أحاول تجسيدها  
في فستانها المصنوع من قماش البروكار ولكن كان هنالك شيء لا يمكن  
وصفه أخذ يدفعني نحو الداخل . كانت الغرفة المجاورة فارغة .  
اجتازتها وأصبحت في ظلام دامس . وبواسطة يد متململة عبر الظلام  
اكتشفت الدرج والحاجز . صعدت بضعة درجات ، بشعور الاحترام  
الذي يكنه المؤمن الذي يدخل حرم إحدى الكنائس . سمعت وقع  
خطوات . التفت ، لم يكن هنالك شيء . تابعت التقدم . أخذ وقع  
الخطوات التي كانت تتبعني في المعر يزداد وضوحا . توقفت أمام أحد  
الأبواب دون أن أمرف أي سبب لتوقفي . كان هنالك شيء يدفعني لأدير  
قبضته . شعاع من النور جعل عيني ترفان . ألقيت نفسي في غرفة

مزينة ومزخرفة بشكل غير متوقع . كانت جدرانها مغطاة بقصاصات الصحف وبالصور المخيفة : صورة طفل مصلوب ، صورة امرأة يجلدونها أحد الجنود . وكان هنالك لوحتان : احدهما من عمل الفنان «جروبير» والأخرى من عمل الفنان « بالتوس » . وكان على إحدى الطاولات كدسة من الدفاتر . وكتب مكدسة على الرفوف : من مؤلفات « ساد » ، « نيتشه » و « كوليت » ، جنبا إلى جنب مع دراسات وأبحاث حول الحياة الجنسية لدى المتوحشين . وكان كتاب « كفاحي » بجانب مؤلفات الفلاسفة الهنود . وبشكل مفاجيء ، يبدو هنالك كتاب « حياتي » للقديسة « تيريز دافىلا » كما لو كان وجوده يقصد به طرد الأذى والأرواح الشريرة .

« كان يصعب عليّ كثيرا أن أتصور أن « فرنسيسكا » كانت تعيش في جو كهذا . كان يوجد على الجدار المطلي بالكلس صورة لامرأتين تحتضن احدهما الأخرى ، وقد جذبت هذه الصورة انتباهي : كانت فاضحة ومعيبة . كتمت أنفاسي وألقيت بالمصادفة نظرة على باب صغير . قمت بحركة كما لو كنت أريد أن أفتحه ولكن ذراعي ظلت معلقة بالهواء . ذلك الشيء الذي كان يدفع بي في البيت منذ البداية ثبتني فجأة في مكاني . كنت أود النطق بأحد الأسماء ، اسم امرأة ، وكنت مازجا عن ذلك . وطالما أن « ذلك الشيء » الذي كان يدفعني في البيت لم يسمح بذلك ، فاني أعلم أنني سأظل منكمشا بين قصاصات الصحف والصور الفاضحة. المرأتان اللتان على الجدار غيرتا وضعهما وأخذتا تنظران إليّ ، بينما كانت بعض الضحكات الماكرة والمكتومة تتردد بين الرفوف . « فرنسيسكا » ، « فرنسيسكا » ... توصلت أخيرا للنطق بالاسم . أخذت أردده ، مددت ذراعي ولكن ألقى بي في الحال على الجدار حيث استندت على صورة ضخمة . التصق خدي على فخذ امرأة تفوح منه رائحة الصمغ . يجب أن أهرب وأنجو بنفسي ، يجب أن أخرج من هذا الوكر ، وأن أستمع بالكفاح والقتال ، وأبداء الرغبة والارادة ، نعم ، أبداء الرغبة والارادة .



مضيت على النواجد ، واندفعت نحو الباب الذي ، وبالدعشتي الكبرى،  
كان قد استجاب لرغبتني .

— هيا ، امض ، تابع !

— انه لامر غريب ، لقد أقمت في « تشيلي » ، بل وفي « البيرو »  
عند جدتي لامي ، ولكنني لم أر مطلقا غرفة كهذه . ولم أكن أتصورها  
على هذا الشكل عندما كنت أقرأ أشعار « فرنسيسكا » ، ولا عندما كنت  
أتأمل الشاعرة وهي تخطر في صالونها . السرير الذي لم يكن سوى  
سريرها ، يشبه سرير فتاة صغيرة ميتة ، مغطى بكامله بقماش الساتين  
الأبيض ، وستائره موشاة بأشرطة سوداء . وعلى الجدران لوحات عائلية  
سيدة تضع على عنقها لفحة من « الشنشيلة » . رجل يرتدي « ردنجات »  
فتاة مراهقة تعزف على المندولين . لم يكن هنالك أي أثر للأناقة . كان  
مؤلف « نصوص نثرية من بوينوس ايريس » و « الطائر البرتغالي »  
غائبا ومع ذلك لم يكن هنالك أي شك أنني في غرفة نوم « فرنسيسكا  
هونتير » . ورغم كون الخزائن مملأة بالملابس الموشاة بالدنتيسلا ،  
وبالكراسات والكتيبات المجلدة بجلد السنجاب وتلك الصورة للبابا بيوس  
الثاني مشر ، فاني كنت أعلم أنها هنا ، وليس في أي مكان آخر ، انما  
كانت تعمل وتعتكف كي تتخلص من سيطرة « موكي » . لم يكن العطر  
الذي يتصاعد إلى حلقي هو عطر الياسمين الذي كانت تحبه ، هذا ان  
لم يكن عطر الزهور التي توضع على المونى . السرير الصغير المحلل  
بالقماش الأبيض كان المرقد الذي لفظت عليه الشاعرة أنفاسها الأخيرة  
وفي زاوية مظلمة ، كما لو كانت تشعر بالخجل لوجودها هناك ، لمحت  
المنضدة التي كانت تعمل عليها .

اقتربت ، ويداي تطمحان كثيراً للبحث والتفتيش . فتحت أول  
درج فوقعت يداي على كدسة من المخطوطات . كانت الكتابة فيها بارزة  
واضحة . كانت رغبتني بالاطلاع والمعرفة لا حدود لها . توصلت لأشبابها

ببذل المزيد من الجهد ، وفي الحال بدت لي « فرنسيسكا » على حقيقتها ولكنها هذه المرة لم تكن تتحدث الي ، كانت تكتب لي ، بل عني .

« كان لبشرته رائحة الرياح والتفاح ... يكاد المرء يعتقد أن لا حدود له ولا شيطان ... كانت ملابس السفر التي يرتديها مريئة بأزهار البايونج . كانت تلك القيلولة الأخيرة ، أنا كنت أعرف ذلك . لقد أحبني طيلة بعد ظهر أحد الايام . كنت أنتظره وعندما تدحرجنا على أرضية الغرفة جرحني عندما جامعني ، وأعتقني ومنحني حرّيتي بجرحه أياي . لا أهمية عندي لاختفاء أزهار الياسمين أو لكون بعض الرجال المسنين يستخدمونني . بالأمس ناديت « جوان » ولكنه لم يأت فالرجال يخافون من النساء اللواتي يتألن . ولكن لا أهمية لذلك عندي كل شيء هادئ في هذا الجانب من الشمس . لا بد أن « فيلا جرا » لم يكن سوى أحد الأندال ، نذل كان يمكنه أن يضرني بالفرح . لم تعد عينا « موكي » تخيفانني ، انها تثير القرف في نفسي ، مسكينة « موكي » ، انها لا تصرف نعيما آخر سوى نعيم الثار والانتقام . وسأساعدتها على تدميري .

كانت الصفحات التي كتبها الشاعرة تتلوى بين أصابعي . لم يكن أحد قد أدخلها بعين الاعتبار . ولم يفكر أحد باتخاذها . ولم يكن أصدقاه « فرنسيسكا » يهتمون بما تكتب . ومن هو ، بل ما هو الشاعر ؟ ... مجنون طليق ، يتمتع بالحرية ، وليس غير ، أليس كذلك ؟

وأنا ، الإنسان المسكين ، صديق الرفاق الذين يرتادون حانة « الشيري » تمتلكني إحدى الأرواح . أخذت أقرأ وأعيد قراءة الصفحات المخصصة لي إلى أن امتلأت عيناى بالدماء .

أصبحت رائحة عطر « الناردين » خائقة في غرفة المتوفاة . حاولت فتح النافذة ، ولكنها كانت مخربة . أما الباب فلم يكن سوى لعبة . وقد فتحته دون أي جهد . أدت المقبض ، دفعت الباب بقدمي ، بركبتي

ولكنه ظل يقلوم . وجهت له دفعة قوية بكتفي . استعنت بكرسي ، ضربته بها ، وثبت عليه كما يفعل السكران ، انشبت فيه اظفاري ، اخذت امضه باسناني ، نطحته بجبيني ، ادفعته بظهري . هذات الضحكات التي كلفت تحيط بي من كل جانب ولم امد اسمع وقع اقدام خلفي . ولكنهم لم يكونوا يريدون ان اخرج من هذه الغرفة . فقد امسك بي كالجرذ من قبل احدهم ، او بواسطة شيء ما كان يرغمني على الشعور بنشوة الكبرياء والياس مع آخر صيحات « فرنسيسكا هونتير » الماجنة والشهوانية .

يبدو ان مجزري لا علاج له . قبلت ان يقضى علي ، ولكن قبل ان اموت يجب ان اروي ما اعرفه . ويجب ان يعرف الجميع لماذا دس السم لـ « فرنسيسكا » . اكتب بسرعة . استطيع تذكر كل شيء ولكن الضعف يكاد يشوش لي ذهني . اخذ ظهري بتقوس وينحني ، انتفضت غضبا ، فانا جائع ، اخذت انفس تنفسا عميقا ومدت الي الهجوم على الباب وعلى النافذة محاولا فتحهما او خلعهما . وعلى كل حال فاني لن اترك هنا ان اموت ! ولا احد يبقى محتجرا في بيت فارغ ، دخل اليه دون ان يقف في طريقه اي عائق . اخذ الوقت يمضي . كان لدي شعور بذلك على الاقل . كان الجوع يكوي بطني وفمي . وقد توقفت ساعتني ، ولان النافذة مغلقة باحكام ، فلم اكن استطيع ان اعرف فيما اذا كان الوقت ليلا ام نهلا . « ان الانسان ، بفضل قوة ارادته ، يجب ان يتمكن من التوصل الى السيطرة على الجوع » لا بد اني قد قرأت ذلك في كتاب ما . « فرنسيسكا ، لقد تحاببنا ، نعم ، لقد احببنا بعضنا على مدى الحياة » . انا عطشان ، يا فرنسيسكا . . . وراسي كالكرة ، بل كالطبل . . . ولساني لم يعد سوى قطعة جافة من الجلد . اني انهار واسقط في المكان نفسه الذي كنت تكتبين فيه الاسطر الاخيرة من مذكراتك التي كنت تتحدثين فيها عني يا فرنسيسكا .

نهضت واقفا بعد ان قمت بمجهود خارق ، ولكنني كدت اسقط ثانية وابقي على الارض ، حتى النهاية هذه المرة ، قرب سريرها ، دون

أن أستطيع إنهاء قصتي . شعرت بألم حاد يقضم صدري ، وبالشلل يصيب أطرافي . وبمشقة كبيرة في الكتابة . توقفت عن المناذاة ، لاني بطبيعة الحال من هو الذي يمكنني مناداته ؟ « جوان ، هل تعلم . . . اني لم أر البحر أبدا طيلة حياتي . وأنت أنت تشبه الزورق ، بملابسك البيضاء . » لم أستطع الكف عن الهذيان . ولا أذكر اني قد نمت في أية لحظة من وجودي على قيد الحياة . كلا ، يا فرنسيسكا ، اني لم أتم مطلقا . لقد عبدتك وتركك تموتين . ونسيت شكل جسمك . ونهداك يهربان من يدي . أنهما يصفران ، ويتحولان الى قبضتين من الرمل . أنك لا تفهميني ، ولا تسمعين ما أقوله . والأصوات التي تخرج من بين شفتي تكاد تخنقني . فإين أنت ؟

توسعت حدقتاي بسبب شدة الظلام . وانفتحت عيناى ولم أمد بعد ذلك أستطيع اغلاقهما . اني أرى بوضوح كل ما يحيط بي ، فيما عدالك . لقد ناديتيني ولقظت النفس الأخيرة . لقد مت " لأنك تمتعت بضمي أياك بين ذراعي . ذراعي ، أنهما محطمان . ولن أستطيع بعد الآن أن أمدهما أبدا ، يا فرنسيسكا . . . ولا أن أكتب . . . لن أستطيع بعد الآن أن أكتب فرنسيسكا ، بربك قولي لي ، من أنت ؟ وأنا ، من انا ، وأنت أيها المولى ، هناك في الأعلى ، الذي تسبب لي كل هذه الآلام ، من أنت ؟

### في الصحف . . . وقائع وأحداث مختلفة

جثة « جوان فيلاجرا » ، طالب من « جوالوجواي » ، في مقاطعة « دانتريوس » ، عمره ٢٢ سنة ، اختفى منذ شهرين ، وجدت صباح هذا اليوم عند الساعة ٥ و ٦ د . في حالة تفسخ شديد في مقار تعود ملكيته للمرحوم « ساترنيو هونتير » ، في « الكمبانادا » ، الواقعة في محافظة « بوهوياجو » ، على مسافة خمسمائة كيلومترا من « بوينوس ايرس » . وبفضل الكثير من الجهود المضنية ، أمكن التعرف على هويتها في مكتب الشرطة الاتحادية لتحقيق الشخصية . ورغم الطابع



السري للتحقيق ، فقد علمنا أن المتوفي ، وهو كاتب محترف ، كان منهمكا في كتابة قصة مفصلة سرد فيها الكثير من الاحداث ، عندما قاجاه الموت . وهذه القصة هي التي سمحت بالكشف عن هوية الجثة . أما الحادثة فتكتنفها ظروف غامضة وخفية . « جوان فيلاجرا » الذي كان منكش الجسم ، مستلقيا على الارض ومتشبثا بقضبان أحد الاسرّة ، يبدو أنه قد فارق الحياة على اثر نوبة صرع ، أو نوبة هذيان انتهت بغيوبة أبدية . كل ذلك ، بناء على المعلومات التي حصلنا عليها ، وقد استمعنا الى شهادة بعض الاشخاص الذين ذكرهم المتوفي في قصته أولئك الذين كانوا يرتادون إحدى الحانات في « أوليفوس » ، والذين ليس هنالك شيء واضح أو محدد في عاداتهم وسلوكهم يوحى بافتراض وجود نوايا ملوثة أو جرمية نحو الكاتب الشاب ، وقد افكروا معرفتهم للمدعو « جوان فيلاجرا » ، ولكنهم مع ذلك اترفوا بأنهم كان يحدث لهم أحيانا أن يروا ، منذ بضعة شهور ، شخصا يتصف بالكآبة ، قليل الكلام ، تنطبق أوصافه على المتوفي ، كان يجلس الى مائدة مجاورة لمائدتهم . ويبدو أن أحد هؤلاء ، ويدعى : « جيلبرتو زاكارياس » كان قد حاول مرة أو مرتين أن يجعله يشاركهم في ألعابهم دون أن يحصل من هذا الغريب على شيء آخر سوى غمضة تنم عن الرفض والسلبية .

آب ( افسطس ) ١٩٧٧ •





# للأب الرب المؤدية إلى الرمال

- ١ -

في ذلك الصباح المشرق والجاف ، ما كدت أضع قدمي خارج عربة  
القطار التي أمضيت الليل فيها ، حتى عرفت أنني وصلت إلى قريتي .  
فالأعشاب والحشائش التي تغطيها الرمال والامتدة على مدى البصر  
كان منظرها حياً في ذاكرتي .

وعبر الضوء الذي كان ما يزال ضعيفاً ، كنت أستطيع أن أميز  
بوضوح كل ما كان يحيط بي : المزرعة التي كان قد جرح فيها « هانس »  
في كتفه ، والمحطة الصغيرة المكسوة بلون الصدا التي كانت فتحات  
المنطقة يعرض أمامها جمالهن ولينتهن عند وصول ما كان يسمى « العربة  
الفاخرة » القادمة من العاصمة ، وفي الجانب الآخر من الخط الحديدي  
شجرة كينا « أوكاليبتوس » ضخمة أسقطتها الصاعقة ، وأصبحت  
مع مرور الزمن تكتسي طلع النصب التذكارية التي تقام للشهداء  
والأموات .

« من فضلك ، ما هو موعد القطار الذي يغادر إلى « أوريون » -  
بلاج ؟ ... »

كان الرجل الذي كنت أسأله قد ترجل من حصانه وأخذ يسير  
نحوي يتبعه كلب ضخم أقر اللون .

« كيف يكون قطارك الذي تسأل عنه ، وما هو شكله ؟ »

— انه قطار ريفي بطيء . والخط الحديدي لا بد أن يكون في جهة ما قريبة من هذا المكان .

كان محدثي قد تجاوز السبعين من العمر . يغطي عينيه جفنان سميكان ، تملوهما التجاميد ، بحيث كانت نظراته غامضة لا يمكن رؤيتها . وقال :

« اني آسف ، فأنا لا أعرف أن هنالك قطارا ينطلق الى المكان الذي تذكره .

— لا أهمية لذلك ، سأنتظر .

— ماذا ستنتظر ؟

— قطاري البطيء ، فلا بد أن يصل بين لحظة وأخرى .

— ولكن قطارك هذا الذي تتحدث عنه لا وجود له .

اجتاحت أحشائي لفحة من الرياح الصقيمية .

أضاف الرجل مجيبا على ما أبدت من استياء :

« تعسا لك ، وإذا كنت لا تصدقني ، فانك سوف تضطر للاصطدام بالواقع . وبعد ساعة ، سيعود القطار الذي أتى بك الى هنا ، وسيرجعك الى « بونوس ايريس » . »

كان الرجل قد أخرج من جيبه قليونا وأخذ يستعد لتعبئته بالتبغ . أدركت أن ساقيه الطويلتين كانتا نحيلتين في بنطاله المصنوع من القماش الأبيض ولئن رأسه كان عاريا من الشعر تحت قبمته السمكة . اقتربت منه وقلت بصوت أجش :

« اني لست ذاهبا الى « بويثوس ايريس » ، اني اريد الذهاب الى  
« او ديون - بلاج » .

كنت قد اكدت على كلماتي مشددا على لفظ مقاطعها . وكشفت  
عن أسنان الرجل المجهول ابتسامة لاتم عن القبول والتشجيع . ثم لمس  
قميصي الوسخ بطرف سبابته :

« انك لم ترقد في سرير منذ زمن طويل يا صغيري ، وهذا امر  
واضح . ومن الأفضل لك أن تأخذ قسطا من الراحة بدلا من اضاعة  
الوقت بمناقشتي بموضوع خيالي كأنه يتعلق بأشباح لا وجود لها » .

كان يقف بقربي ملتصقا بكتفي ، وقد رفع قبعته عن جبهته كما  
لو كان يريد أن يجعلني أعرف تماما أنه على تلك الأرض المهمة ، لم يكن  
الدخيل هو السيد الذي يرتدي الملابس البيضاء والحداء الطويل الملمع  
حديثا ، بل ذلك الفتى الطويل الأشعث الذي قام برحلته في قطار لنقل  
الماشية ، والذي تجاوزت ذاكرته حدود الانهيار .

تبدد السرور الذي شعرت به عند نزولي من عربة القطار . ففي  
الوقت الذي كدت فيه أبلغ هدي ، خرج رجل مجهول من الرمال وأبعدني  
عنه . مجهول يتكلم ببطء الملائكة الساخر ويبدو أنه عازم على أن يحتل  
كل المكان بين السماء وبيني .

كان تعبني قد تحول الى انتهاك وانهيار . كنت أجد صعوبة في  
الوقوف على قدمي . وطيلة النين وخمسين يوما على متن سفينة شحن  
مقرفة تبعث على الاشمئزاز ، لم أفعل شيئا سوى تصوري ، وأنا أرتجف  
وصولي هذا الى « لاس روزاس » . كنت أعتد على وجود قطاري البطيء  
والقديم ، كاعتماد الطفل على وجود شجرة عيد الميلاد ، وغجاة أخذت  
أشعر بمزيد من خيبة الأمل . إذ أنه كان هناك أمران لا يطيق تحملهما :  
المحطة الصغيرة اللعينة التي يطلوها الصدا وبلادة محدثي التي تتسم  
باللباقة والكياسة .

وفي البرازيل ، بينما كان رفاقي في الرحلة يلهون بالانهماك في الرقص الهستيري ، كان علي أنا أن أقوم بتنزيل صناديق أرجنتينية من سفينة تحمل اسمًا ألمانيًا لأضعها على متن باخرة شحن إسبانية كانت ستبحر إلى « كاديكس » . كان أحد تلك الصناديق يحمل عبارة كتبت بحروف غليظة : « مانويل دو فالاس » ، موسيقي ، أما الصناديق الأخرى فلم تكن تحتوي سوى البرتقال وبعض الجثث من الدرجة الثالثة .

القبطان الثاني الذي كان يقوم بمهمة الطبيب كان قد صرح بأنني حالما أصبح في بلدي ، وأخذ إلى الهدوء ، فإن كل شيء سوف يسوى . « هادئا جدا في بلدي » . فالأطباء يتمتعون بموهبة تناول الأماكن العامة دون أي معنى من معاني الازدراء أو السخرية . كلفت الحمى التي أصبت بها قد اشتدت وطأتها ، ودققت قلبي أصبحت مثيرة للفشيان ، ولكنني كنت على وشك الوصول إلى موطني الذي تغطيه الرمال ، « متمتعا بالطمأنينة والهدوء التام » مع ذكرياتي وبجسمي المنهك . والحقيقة أنني لم يكن لديّ ما أشكو منه .

ومع اقترابي من الأرجنتين ، هذا البلد الذي يشبه اسمه زهرة اللبلاب القضية والذي بدت لي على الدوام جغرافيته وتاريخه أنهما ينتميان إلى عالم الخرافة والخيال ، كانت الحمى التي افتلتني تزداد شدة ، ثم كانت المسيرة إلى مرفأ « بونيوس ايريس » للبحث عن صديقي القديم « أوليفيه » التي انتهت بتحويللي إلى متسكع .

كان عليّ بأي ثمن أن أخذ إلى الراحة . وربما كان قضاء ساعة من الصمت في هدوء هذه الأرض التي ألفتها في صفري ، بعيد اليّ صفاء للذهن .

« فنجان كبير من مغلي الزهور ، وفراش دافئ ومريح ، هذا ماأنت بحاجة اليه » .

انتفضت ملحورا : كان هنالك كلب عيناہ مطموستان ونامستان  
يعض اربطة حداثي . وجه له صاحبه ضربة على راسه .

« يكفي ، يا جوبيتير ! »

تمت متبرما :

— انك بادي الحفاوة ، « ولكني ساكتفي بسرير من الرمال » .

كان الخيال قد جلس على الأرض المكسوة بالأعشاب وأخذ يعض  
على أنبوب غليونه .

« لقد دخلت السجن ، أليس كذلك ؟ » .

كانت نظرائه تلتقي مع نظرائي . وقال : « خذ حذرك ! » .

بدت مني حركة تراجع . كان الرجل قد بسط ساقيه تحت  
أشعة الشمس . ماذا كان في هندامي يدعو إلى التفكير بالسجن ؟ ..  
كانت هي رائحة الكحول وطابع السخف اللذان الصقهما بي  
رفاق رحلتي ؟ .. كان الرجل المجهول يرسم بطرف سوطه في الرمل دوائر  
كانت تتوالى ويعلو بعضها البعض الآخر لتشكل في النهاية رسما هندسيا  
يتصف بدقة ملهلة .

أضاف قائلا دون أن يرفع نظره عن الأرض :

« لا تضع وقتك ، فلا يوجد خط حديدي ولا طريق صالح لسير  
الحربات ، إلى أوريون » .

كانت اللهجة حاسمة ، وقد أدركت أنه لن التفكير الطقولي أن  
أحاول مخالفة شخص يستطيع رسم مناهات بطرف سوطه وإخفاء  
الطرق والسكك الحديدية . ومع ذلك فقد رفضت الاعتراف بهزيمتي ،



لأنه إذا لم يكن هناك وجود للقطار الذي أتحدث عنه ، فلا بد أن يكون هناك واسطة نقل أخرى للوصول الى الشاطئ . ولم يكن لديّ أي شك بأن الرجل المجهول يعتمد تضليلي . اذ أن « أوريون - بلاج » كانت على الدوام وما زالت مصيفا أنيقا وفخما ومنذ زمن طفولتي لم يكن المصطافون يذهبون اليه سيرا على الأقدام .

أردت اخراج منديل من جيبتي لتجفيف العرق الذي كان يكوي عينيّ ولكنني دون شك كنت قد استعملته لمسح الفبار من زجاج نافذة غرفة القطار ورميته لأنه لم يكن له وجود في جيبتي فقدّم لي الخيّل منديله ، وقال وهو يندس في مجرى أفكاره : « أنا أيضا سمعت بهذا القطار الريفى البطيء ولكن لأحد يتذكره ، على الأقل ، لأحد ممن يتمتعون بكامل قواهم العقلية » .

جلست على الغشب الأخضر دون أن أتحجج بتحويل نظري عن طرف السوط الذي كان يتابع سير نظرياته على الرمل . واضاف قائلا : « أن قطارك الذي تتحدث عنه قد قضى نحبه ، وأصبح في مداد الأموات ، هو وكل ما هو مؤذٍ وضار .

سرت رعشة قوية في أوصالي . فهل كان هذا الرجل يحاول أن يوحى لي بأن « مورينا » قد ماتت ، هي والطريق السالك ، والقطار ، وكل ما كان يعتبره « مؤذيا وضارا » .

كانت عيناه ما تزالان مصوبتين الى الأرض وصوته يبدو كأنه يخرج من خلف حاجز كرسي الاعتراف .

يوجد الكثير من التمساء الذين لا يجرؤون على مجابهة الأحياء ويرتّبكون من ازدحام الأشباح من حولهم . «

نقد صبري ، فادرت له ظهري . نادى كلبه الذي كان منذ بعض الوقت ، يحاول الهرب بعيدا من مدى نظره .

« جوبيتر !... جوبيتر !... يا للكلب القذر . »

كان الكلب قد اختفى ، وكانت عينا صاحبه تتوهجان غيظا .  
نهضت فجأة ، فلم تبدر منه أية حركة وظل محدقا بأشجار الصفصاف  
التي اختفى وراءها « جوبيتر » .

بعد بضعة دقائق ، حصل لدي انطباع بأنه قد نسيني لا نشغاله  
بأمور أخرى . كانت ساقاي خائرتين لا تقويان على حملي ، وظهري قد  
بلله العرق . لم أكن قد شعرت مطلقا ، حتى ذلك الحين ، بحدة حرارة  
شمس الظهر . قمت بخطوتين لاختبار قواي ، ولكن كان عليّ أن اتخلى  
في الحال عن حقيبة سفري التي سقطت من يدي وتدحرجت بين شجيرات  
الموسج والعليق .

لفحة دافئة تشوبها رائحة البرسيم أصابت مؤخرة رفتي التي  
كلفت تنصبب مرقا ، فانتفضت . كان هنالك الحصان والخيال يقفان  
خلفي .

« انصرفا عني ، انتما الاثنان . لقد مللت من الحاحكما  
ومضايقتكما لي . »

— بعض الهدوء « أرجوك أن تهدأ . »

— أنت ترى جيدا أنني منهك ، وقد فقد صبري . هيا انصرف عني  
ودعني وشأني !

— ولكنني أريد مسامحتك .

— إذا كان الأمر كذلك فما عليك سوى أن تلزم الصمت . »

كان قد عرفني . وقد أدركت ذلك من ابتسامة الشفقة التي بدت  
على شفتيه . كانت الحياة قد غمرتني بابتسامات من هذا النوع . كان

هناك ابتسامة الخالة « مائيلدا » عندما تولت العناية بي. بعد مصابي وكذلك ابتسامة مدير الدير ، وابتسامة تلك الراقصة ، في « ريودوجنيرو » ، التي رفضت أن اداعبها : كانت تبسم أيضا هكذا ، كانوا جميعهم يبتسمون بهذا الشكل ...

كانت قبضتاي المتقلصتان والمشدودتان على فخذي جاهزتين للضرب . كان الرجل المجهول يعرف « مورينا » . كانت نظراته الباردة التي يكتنفها البياض ، تحت جفنيه الكثيفين تزداد بالنسبة لي ، وضوحا والفة . كان الرجل يتراجع نحو الكتبان الرملية ، ممسكا بمقود حصانه ، ومع ابتعاده كنت أراه يكبر بشكل مفرط على خلفية سماء ذات زرقة شديدة .

« انصرف عني ، دعني وشأني ! ... يا طائر الشؤم ! »

- ٢ -

كنت أشعر بألم شديد ، من جلوس شعري حتى أخمص قلبي . كان « سول هيريديا » زعيما فيما يتعلق بالجرأة والشجاعة وإذا كان فقد قامته كملاق ، فان صوته ، بالمقابل ، ظل هو نفسه وعلى حاله وكذلك الروح التي تبعث فيه الحركة والنشاط . لقد تأخرت بالتعرف عليه ، ففي هذا الرجل ذي المظهر الهزيل ، الى درجة كبيرة كانت ذكرى قامته الطويلة قد ساورت ذهني خلال السنوات التي قضيتها في المنفى ، ولكني الآن لم يعد يساورني أي شك : لقد تحدثت مع مدوي لفترة استمرت أكثر من ساعة .

لابد أنه كان يترصد وصولي . ولاشك أنه كان يعلم أنني سممت باختفاء « مورينا » . وبين لحظة وأخرى ، كنت سافاجا بظهور أحد عبيده ليقيم العوائق والحواجز في طريقي لمنعي من الوصول الى « أوريون » . كان يعرف أنني عرضة للاحلام المزعجة والكوابيس ، وأني

إذا لم أنتبه لذلك ، فإنه سيقوم بأي عمل خسيس ، لأن « سول هيرديا » إذا كان فيما مضى قد تخلص من فكرة تصفيتي جسديا ، فإنه الآن سيفعل ذاك دون أن يساوره أي شعور بالذنب لأن « مورينا » لن تكون هناك لتموت بسبب فعلته .

لقد عاودتني الحمى ، كنت أشعر بنبضي يدق بقوة في صدغي . كان « سول » يؤمن بالقوة الجذابة والفائدة لذلك الشاطئ الأرجنتيني ، ولكنه لم يكن معصوما . فإذا كان قد اشترى صحراء واستطاع أن يثبت فيها كثباناً من الرمال المتحركة في حين أنه لم يكن هنالك أحد يفكر بذلك ، فلا يعني أن هذا العمل خارق ، يفوق طاقة البشر . كان قد أغوى « مارينا » لا ليجعل منها الرفيقة الجديرة بمبقريته ، بل لكي تجذب له في شباكها وجهاء العاصمة ولتساعده في تأسيس محل للدمرة يليق بعلية القوم . كنت أعرف أن لا أحد اليوم في المنطقة يستطيع أن يلفظ اسم « مورينا » دون أن تحمر وجنتاه خجلاً ، وكل الخطأ في ذلك يعود إلى الذي جعلها تصبح ماهرة .

كان رأسي الذي تعرض كثيراً للشمس ، لم يعد سوى كرة يعصف بها الالم . أخرجت رسالة من جيبى ، كان قد أرسلها لي « أوليفيه » : « مورينا » فارقت الحياة منذ ثلاثة أيام ، بإمكانك العودة . كن مطمئناً بشأن روحها لأنها تلقت البركات الدينية . لقد أغلقت باب غرفتها بوجه الكاهن « إيسبادا » ولكنه اقتحمه بالقوة ، وجرى دفنها بالمراسم المعتادة . وقد علمت عن طريق رسالة تلقيتها من « كارميلو » ابن أخت المعجوز « هانس » ، الذي كنت أرسله أحياناً ، أنها لم تتألم كثيراً أسرع بالعودة . فلدينا كثير من الأمور يجب أن نتحدث بها . سأكون بانتظارك في بوينوس آيريس « على الرصيف ... »

أمسكت رأسي المتهب بيدي . من المؤكد أن الطفولة لم تكن سوى أحد أبواب الرمل العديدة ، الذي مليء أن أعبره قبل أن أبلغ هدي .

الم عنيف في مؤخرة رقبتي جعلني أفتح عيني . لم يكن « أوليفيه »  
موجودا على الرصيف عند وصولي . فقد بحثت عنه في كل مكان :  
من جانة الى أخرى ومن ماخور الى ماخور ، أمضيت ليلة بكاملها متجولا  
أبحث عنه . أغلقت عيني . انتصبت واقفا وصرخت : « كلا ، ياسول  
هريديا ! لن يكون من السهل عليك أن تقتلني هذه المرة . » بدلت  
مجهودا يائسا كي أستطيع المشي . ضاق نفسي ، وخانتني ركبتي .  
تشبثت بفصن شجرة لكي لا أنهار .

خرج كلب من بين الشجيرات . كان « جوبيتير » . اقترب مني ،  
يهز أذنيه ، بادي المودة ، ولكن صوت صافرة استدعاه في الحال ،  
فأسرع يعلو بعيدا عني .

صحت بأعلى صوتي :

« أوغاد ! الموت للثنين ، للثنين كليهما . »

كانت الأشباب والحشائش في « لاس روزاس » كثيفة وقاسية  
كالقش الذي يحشى به الفراش في المزارع . دفنت فيها وجهي . كنا  
وحيدين ، السماء وأنا ، مثلما كنا على ظهر سفينة الشحن .

أخذت أفكر وأنا منبطح :

« أيها المفلح العجوز ! تستطع دائما التماذي في ذلك والذهب الى  
هناك . وهذا المساء ، شئت أم أبيت ، سأكون بقربها . »

- ٣ -

عندما استيقظت ، كانت المحطة لا تزال في مكانها ، والشمس عالية  
في السماء وكان للعشب رائحة زكية رطبة ، وحول قلبي العازيتين ،  
كان الرمل الذي حفرتة عندما نمت قد أصبح شديد البرودة . اندس



فأرى بين ساقبي ، وعندما رفعت نظري ، لاحظت أنني كنت محاطا  
بالفضوليين . قفوت واقفا . لم أتم سوى خلال فترة قصيرة ، ولكن  
كما لو حدث ذلك بأعجوبة ، كان تعبى قد زال ، وأخذ نبضي يدق  
بصورة طبيعية .

أقرب مني عامل شاب يرتدي صدرية صوف سمكة :

« هل السيد غريب ؟ »

— لقد ولدت في أوريون .

سرت بين أولئك الفضوليين متممة تنم عن الدهشة جعلت رؤوسهم  
تجتمع حولها . كان هناك امرأة ترتدي صدرة وردية حائلة اللون ،  
قد تجاسرت على الاختلاط بالرجال وأخذت تحدجني بنظرات منبهة .  
سألتهم وقد ثار غضبي :

« ما الغريب في الأمر ؟ »

أجاب الشاب ذو الصدرية :

— هكذا ، هنالك أماكن لا يولد فيها أحد .

كنت قد حملت حقيبتني على ظهري وقلت :

« دعوني أمر » .

— طبعا ، هذا مؤكد .

ابتعد الرجال دون امتراض وبكل هدوء . كانت سروج أحصنتهم  
جميلة ، وعيونهم خالية من أية تعابير . سألني خيال وجهه نحيل  
ومتطاول :

— الى أين أنت ذاهب ؟

— الى « أوريون بلاج » ، وانحنيت لأسوي وضع أحزمة حقيبتني التي بدت لي ثقيلة جدا عندما حلوت رفعتها من جديد .

— لابد أنك تتعطى بالشجاعة وأنت تريد السفر وحالتك على ماهي عليه ! «

كنت أظن اني قد استعدت مظهري المعتاد ، ولكن كان واضحا جدا اني كنت مخطئا .

صحت بأعلى صوتي : « لن يذهب بكم الأمر ، على ما أفترض الى حد مجاولة اقناعي . بأنه لا يوجد طريق ولا قطار للوصول الى شاطئ رملي من الطراز الحديث . كفاية سخريه بي . اذهبوا وقولوا لسيدكم ان ، هذا الاسلوب لم يعد مجديا . »

تأملني الفلاحون وهم يهزون رؤوسهم ، ووضع أحدهم سبابته على صدفه .

صرخت قائلا : « ولكن ، أخيرا ! اذا لم يكن هنالك واسطة نقل تصلنا بـ « أوريون بلاج » ، فكيف يذهب الناس اليها ؟

أجاب المجوز : « هاه ، حسنا ! من هنا ، يستحيل ذلك ، ولكن من يمكن أنه يفكر بالذهاب الى « أوريون » ؟ فهي ليست مكانا ، ملذا يمكن أن أقول ؟ ... »

— كيف ، ليست مكانا ؟

— حسنا ... ليست مكانا مقبولا ومرضيا !

— أطلب منكم ان تخبروني بأي واسطة يمكن الذهاب اليها :

— آيه ... يجب أن تعود إلى بونوس. أيريس .. نعم .. ثم  
تستقل القطار إلى « باردو » ... وتفتر القطار في « باليستير » ..  
وبعد ذلك ...

— وبعد ذلك ؟

— بعد ذلك ، تذهب إلى « أوريون » من طريق الشاطئ .

صرخت بقوة :

— من طريق الشاطئ ! ولكن ليس لهذا أي معنى .

— ومع ذلك فهذه هي الطريقة الوحيدة . ويمكن الذهاب إليها ، سراً  
على الأقدام ، أو بالعربة .

— أنك تسخر بي بلا شك . فالنساء ، والأمتعة ، والخدم ! ولن  
تجعلني أصدق أن ...

هنا ساد صمت ثقيل .

قال على أثره الشاب الذي كان يرتدي صدرية من الصوف :  
« ان هذا السيد يشير دون شك إلى المومسات . »

— إلى المومسات ! أضاف الرجل المعجوز ، ولكن منذ زمن طويل  
كان يوجد كثير من المومسات . أما اليوم فلم يعد يوجد سوى عدد  
قليل منهن .

كان العرق يتصبب على جبينه فيشوش على الرؤية . وكان أقل  
شيء كافياً ليجمعني أصوب الضربات وأوزعها على أولئك الناس .

قال الرجل ذو الصدرية : « أن الأمر في ذلك مثله مثل مكسر المرفأ  
ومثل الكنيسة ومثل المنتزه . لقد مات كل شيء ، يا سيدي . »

قلت وقد أسيد بي القصب ؛

— انك لن تقولى لى أيضا انه لم يعد هناك فندق !

— انا ! ... ولكنى لم أقل ذلك مطلقاً . من المؤكد أن هناك فندقاً .

تراجع الرجل الذى يرتدى الصدرية قليلا الى الوراء .

« ولن تقول لى أن الفندق لم يعد فيه نزلاء !

— بل الأمر على العكس من ذلك تماما ، فالنزلاء يريدون ثلاث

مرات عن امكانية الاستيعاب في الفندق ! » .

وضع أحدهم يده على كتفى . فدفعتها بفضب شديد .

« اتركونى . وانتبهوا جيدا اذا لم تكونوا تريدون أن تقتلوا .

سأعد الى العشرة : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة

سبعة ، ثمانية ... تسعة ... » .

كنت قد أغمضت عيني ، وعندما فتحتهما ، كنت وحيدا . كان

هناك أصوات احتجاج غامضة خلفي ، ثم ساد الصمت . الصمت الذى

يسود المحطات الصغيرة في تلك السهول عند بروج الفجر ، والسدى

لا يعكده سوى صياح الديكة ونباح الكلاب . خطوت بضع خطوات دون

أن الاقي صعوبة في ذلك ، واستمدت في الحال قوة أطرافي . كان حفيف

أوراق الزيزفون وتغريد الطيور يحثاني على المشي . تناولت حقيبتى

ووضعتها بشيء من السهولة واليسر على كتفى . لم أكن أشعر بالجوع

ولا بالعطش ، وكنت مصمما على بلوغ الشاطئ . ويمكن أن أنام في ظل

شجيرات الغابة اذا لزم الأمر ، وهناك ، نعم هناك ، سيكون البحر

سمعت صوتا يقول لي : « من الأفضل أن تفرغ » . كان أحد  
الفلاحين قد بقي هناك . عرفته : كان ذا الوجه النحيل .

سألني : « هل غادرت البلد منذ زمن طويل ؟ »

أجبتّه وأنا أدير له ظهري :

— منذ عشرين سنة .

— منذ عشرين سنة ! أرجو ألا تكون مبالغا .

أخذ يتأملني بشيء من الإعجاب المشوب بالأسى .

أخذت أسير باتجاه الشاطئ . كان للهواء طعم خاص للبد . ومما  
قليل سيصبح مشبعا بطعم الملح . وبنهاية الرحلة ، كان هناك درج  
« مورينا » والمنتزه الذي كانت تتجول فيه حاملة مظلتها البيضاء المبطنة  
بالدنتيلا السوداء . فلا الوحدة في عرض البحر ، ولا العزلة في زنراتي  
الانفرادية ، لم يسبق أن اتاحا لي أبدا شعورا بالأمن والطمأنينة التامتين  
كذلك الشعور الذي كنت أنعم به في تلك اللحظة .

سألني الشاب الذي كان يتبعني ممتطيا حصانه .

« أكان لك أحد هنا ؟ »

أجبتّه دون أن أبطئ في سري :

— نعم . ولكنها ماتت .

— هل مضى على ذلك زمن طويل ؟

— كلا .



— وهل كتبت لك بأن كل شيء قد تغير ؟

— كلا .

— أكانت ، في آخر الأمر ، لم تعد تحبك ؟ » .

كانت الحمى قد انخفضت درجتها ، ولم تعد ساقي ترعجان

قال الخيـال ملحاً وهو ينحني على عنق حصانه .

« اعترف الآن أنك قد خدعتها ... »

— كلا ، لقد أردت قتل عشيقها » .

ساد صمت عميق ، تلتها ضحكة مشوبة بالكآبة . ثم تابع الرجل  
الاستجواب الذي بدأه :

« وهل انتقم منك ؟

— كلا » .

كنت أمشي على الرمل يرافقني حيوان صبور بخطواته الثقيلة .  
كانت الرياح تمصف بالأشواك البرية ، والشمس تسطع في سماء صافية  
يـكان لرياح البحر طعم الطرون البحري .

« طيلة تلك السنوات ، ألم تستطع نسيانها ؟

— لقد كنت أسي .

— آه ! » .

لحظة توقف ، قضم الحصان خلالها حفنة من نبات القليح . كانت  
الحشائش والأعشاب أملهي تنمو على مدى النظر .

« وقد عدت لكي تأخذ بالثأر ؟ »

— ربما كان الأمر هكذا .

— 'لم يكن الأمر على ما يرام بالنسبة لك في البلدان الأخرى ؟

— كلا .

— 'لم يكن هناك نساء ؟

— بل أكثر مما ينبغي .

— اذن ماذا ؟ »

كان يسد لي الطريق .

قلت وأنا أدفعه : « لا بأس ، ماشي الحال ! » .

ولكنه كان يرفض أن يدعني وشائي لأمضي بسلام . وبالتأكيد كان وجهه متطولا لدرجة تثير السخرية والضحك .

قال : « عد أدراجك ، واستقل القطار ثلثية لترجع الى بوينوس ايريس » .

لم اكن أصفي اليه .

« انك ترتكب خطأ كبيرا ، فهو سيظفر بك ، فانا أمرفه .

— أنها قضيتي » .

كان يتبعني كظلي ، يلامسني ، ولكنني لم أتوقف . كان البرد القارس يجمد أطرافي . كلن لا بد أن لدى هذا الفتى مبررات شخصية

تدفعه لامتراض طريقي ومنعي من الوصول الى هدي . كلن وجهه بزداد  
تطلولا بسبب خوفه من رؤيته لي وقد وصلت الى « أوريون » . أسرمت  
الخطي .

صرخ قائلا : « ولكن بما أنها ماتت !

— بالضبط ، إنما اذهب بسبب ذلك » .

كان قد أوقف حصانه بحركة مفاجئة من يده ، فبدر من الحصان  
صهيل ينم عن الألم .

« خذ حذرک ! ان « سول » لم يمت ، فهو مازال حيا يرزق » .  
ولكنني لم أكن أصفي اليه . فالاصوات البشرية لم تعد تشير  
الاضطراب في نفسي . ومنذ بضعة دقائق كانت اصوات الطيور وحدها  
هي التي تبلغ مسامعي . أخذت أسير في طريق تكتنفه ازهار البابونج  
وكان جوّه وكل شيء فيه جميلا وعلى ما يرام .

صاح بي الخيخال بصوت أجش ، يكاد يكون مخننقا :

« دائما ضد الريح ، « أوريون غونزاليز ! » « ضد الريح  
دائما ! ... »

وبينما كنت أمشي بخطى منتظمة ، تضرني السعادة لشعوري  
بحرارة الرمل تدفئ أسفل قدمي ، تفتت السماء فجأة بالرؤى :  
وبدت لي بعض المدن ، والغابات ، وخطجان صغيرة ، وبحر هادئ والمطر  
شعرت ببضع نفحات من اللذة والسرور : ففي متناول يدي قلعة امرأة  
وبطن طوع بنائي ، وبمض من « فيش » القملر مكس على سجادة  
كازينو ، وحفلة زفاف ... ثم من جديد قاع باخرة الشحن ، رائحة  
المهاجرين ، الاواني القلوة ، وفي حرارة الليل ، النساء الثرثرات

والترهلات . ممارسة الحب ، ودائما بعد ممارسة الحب ، ذلك الفتيان  
الذي يجعلك تصبح شريرا .

كان الهواء يملأ صدري ويجعله يبدو منتفخا . وبحركة من رأسي ،  
تخلصت من الرؤى التي بدت لي . والحقيقة هي أن الماضي لم يكن  
بالنسبة لي سوى مرض طويل الأمد أصيب به طالب داخلي : ألم يذكر  
« سول هيريديا » السجن في حديثه عني ؟

الهواء البارد تحت شمس محرقة كان قد أصبح قارسا . رفعت  
ياقة سترتي . كان يجب عليّ ألا أستسلم ، وأن أتابع السير الى الامام  
فعما قليل ، وكنت أعلم ذلك ، فيما لو قاومت النعاس ، فسوف  
تبدو لي صورة أُمي . كان مازال أمامي ليلة بطولها اقضيها بين الكتبان ،  
وفترة كبيرة من اليوم التالي . فـ « سول هيريديا » قال : « يوجد  
بعض التمساء الذين يحيطون انفسهم بالاشباح » .

كان ظلام الليل يزداد كثافة ، ولكنني كنت أتابع السير في طريقي .  
فقد نصحني الرجل ذو الوجه النحيل ، قائلا : « ضد الريح ، دائما ضد  
الريح » . كنت أمشي دون أن ألتقي في طريقي أية عوائق ، عندما برزت  
اخيرا أمام عيني ، وفي كل روعتها ، قامة « مورينا » . لم يسبق أن  
راودني مطلقا أي أمل بأن أرى أُمي تظهر بهذا الشكل الدقيق . ولم  
أكن قد افترضت أبدا أن وجهها يمكن أن يرسم بهذا القدر من الوضوح  
والحقيقة على ستار من الريح .

كانت بكامل ملابسها المصنوعة من الشاش الشفاف ، تبدو كأنها  
جزء من الهواء . كان دائما يتبادر الى ذهني وأنا طفل ، أنها ولدت  
من الرمل ، مثلما ولدت فينوس من البحر ، وأن مدينة « أوريون »  
قد بنيت حولها .

ولأن الكتيبان أخذت تصبح أكثر ارتفاعا ، فقد كانت الصورة الرائعة  
تغيب عني ، لتظهر ثانية كما كانت قد بقيت في ذهني : سمراء ، ناعمة  
اللمس كالحرير ومجسدة في مادة ساكنة .

ومع تقدمي في مسيرتي ، كان جسمي يزداد خفة . والنساء اللواتي  
عرفتهن كن ينفصلن عني . وكنت أكنّ الحق لا أولئك اللواتي كنّ قد  
أرغمتهن على التصنع وادماء العطف والحنان عندما كنت أمنحن بعض  
اللذة . كنت أقيم عليهن لكونهن جريئات ولا ينعمن برائحة الزهور التي  
كانت تفوح من « مورينا » عندما كانت تأتي لتقبلني في سريري . ولم  
تكن أية واحدة منهن قد عرفت أو استطاعت أن ترتدي ثوبا كأنه فستان  
صنع من أوراق الشجر . لم تكن أية واحدة بينهن تتمتع بمرونة  
« مورينا » ، ولا باشرقتها النيرة . لا أحد ، كلا ، لا أحد رد لي البراءة  
التي كانت من حقّي .

ومع ذلك ، فقد حدث لي ، خلال رحلتي ، أن اصطدمت بنظرة  
صافية ، وأن لمحت مستقبلا مقبولا في انحناء رأس . وفي كل مرة  
كنت أهرب من السمادة . كنت أجهل كل شيء عنها ، وكانت تبدو لي  
كأنها خيالة . فانا أنتمي الى شبابي ، الى تمزقي ، الى خجلي وعاري  
وكنت أرفض قبول أي صمت سوى صمت أهلي .

لم يحاول أحد على الإطلاق أن يسبر غور همتي ومتاعبي . لم أكن  
أهرب من الرجال ، كنت أرافق رواد المقاهي ، وأندس بين الجماهير .  
وانتهى بي الأمر الى الزواج . ولكن لم يشعر أحد أبدا بالموودة نحو  
الحيوان المحترق الذي كنته أنا . كان وجهي يحدث الاضطراب والبلبلّة  
في الأحاديث ، ويوقف الانطلاقات ، كلا ، لم يحاول أحد على الإطلاق  
القيام بتجربة الفوص في أعماق نفسي .

كان يبدو أن جميع أولئك القريبين مني كانوا يعلمون ، كما لو أن  
الأمر كان مكتوبا على وجهي ، أنني بعد أن جعلت عدوي تحت فوهة  
مسدسي ، أطلقت عليه النار من قرب وأخطأت الهدف .



- ٤ -

مشيت طويلا دون أن أشعر بالتعب . كان الهواء ينفخ أوردتي .  
الأرض التي كنت أطوؤها كانت لي بالتمام ، عذبة وقاسية ، هي وزينتها  
الفخمة البيضاء المكونة من غابات مخملية صغيرة على سفوح الروابي  
والتلال .

وبمسيرتي متقدما نحو الأفق ، انما كنت أستعيد صحتي وفراحي  
في غلاف السماء الأزرق ، وفي الرغبة الطقولية التي كانت تراودني للركض  
الى أن أفقد أنفاسي .

كنت أمشي منذ مدة ساعات دون أن أشعر بالعطش ولا بالنعاس ،  
عندما أدركت فجأة أنني رغم غيابي ورغم انقضاء زمن طويل ، لم أكن  
قد سكنت أبدا سوى هذا الموقع الطبيعي ، وأني في كل الأماكن التي  
ذهبت إليها منذ عهد شبابي ، كنت أحمل في ذهني وفي نفسي أشعة هذه  
الشمس نفسها ونفس هذه الشجيرات والأدغال بالذات .

- ٥ -

وعلى مدى سري وتقدم الليل ، كان الظلام يغشاه بخار أصفر  
كانت قامة « مورينا » تفوح فيه . وحيد ومشدود بين السماء والرمل  
الرطب الذي كان يحملني ، كنت أشعر برغبة عنيفة بأن أضم امرأة  
بين ذراعي . كانت تحاصرني ذكريات حسية عن الكواحل والبطون .  
وعما قليل سيكون علي أن اتمرغ في الرمل . كنت أجد صعوبة كبيرة  
بالمحافظة على وضعي وعلى حسن سري . هبت الرياح فقذفت في وجهي  
مباشرة حفنة من الأصداف البحرية .

استرديت أنفاسي ، كما لو أنني كنت قد تلقيت صفعه بعد توبيخ  
عنيف . اختفى السراب وعادت الخفة والرشاقة الى قدمي . ولم تعد  
هنالك هموم تشغل بالي . ربما ستكون « مورينا » تنتظرني في غرفتها ،  
غارقة بين الوسائد والشراشف الحريرية الوردية اللون . وغدا ، يوم

عيد ميلادها ، ستقف في المنتزه ، ومظلتها في يدها . وستعلق مصابيح الزينة الملونة على جانبي مكسر الميناء . وستطلق الأسهم النارية . والضحكات البلهاء ستملأ الردهات بالضجيج المزعج . وفي الطابق الاول ، سيحدث ضجيج آخر ، سيكون شبيها بنوع من النقيق . ودون أن أعرف تماما لماذا أفعل ذلك ، فاني سأصعد متسلقا بأقصى سرعة طوابق الفندق العديدة ، وسأبلغ نهاية الممر الكبير . وهناك يصبح الضجيج صاخبا ، مزعجا ، تتخلله قهقهات الضحك . سأفتح الباب وأدخل غرفة الزوجية فأجد على سرير الزوجية « فيولا شميت » المخيفة غارقة في فراش أمي الحريري ، يحرق بها « سول هريديا » بعينيه البراقنتين . سأصرخ صراخ الحيوان الجريح عندما أرى « مورينا » تدخل الغرفة ، حاملة صينية ملأى بالحلوى تحت ثدييها العاريين .

كان الهواء الرطب يسد أذني . وشعرت بألم في أسفل بطني جعلني أترنح . وبمسامير تثقب حلقي . وغاصت ساقي بين العليق وسقطت على الأرض ، منهارا ، فاقد العزيمة والوعي .

## - ٦ -

عندما بلغت الشاطئ ، لم تكن ساقي تجران سوى جسم كبير ثقيل كأنه جسم رجل سكير ثمل ، وأخذت أرسل مهمة القرح وأنا أسير على الشاطئ . فالبهر قد رد لي روعي . وتركته يعمل دون أن أدافع عن نفسي ، سعيدا بعودتي واستسلامي إليه .

أخذت أتمتم : « مورينا » ، « مورينا » !

عندما استعدت كامل وعيي لاحظت أنني قد انحرفت عن طريقي لأنه لم يكن هنالك أي منزل ، ولا أية سقيفة على ذلك المنبسط القسيح من الرمل الذي كان يقع تحت بصري . كان مفروسا في الكثبان بعض شجيرات الصنوبر وبعض أشجار الكينا القديمة ، ولكن لم يكن هنالك أية قرية تبدو للعيان .

وعندما حاولت النهوض ، انتابني ألم مفاجيء في خواصري جعلني  
أرتمي على الأرض . وربما انتهى بي الأمر وأنا أقع مرة بعد أخرى ،  
أن أبلغ الشاطئ الحقيقي الذي أقصده . ولكن ، للأسف ، كان عليّ  
أن أقطع أيضا عدة فراسخ قبل الوصول الى « أوريون » وكنت أشعر  
أنني عاجز من القيام بذلك . كان الفرح الذي كنت أشعر به لعودتي الى  
مسقط رأسي يوشك أن يفارقني . دفنت رأسي في الرمال . تصاعدت  
رائحة المحار الى أنفي . مددت يدي لأمسك إحدى تلك الرخويات  
الظريفة التي كانت تمد لسانها من خلال الزبد ، ولكني رميتها في الحال .

رفعت نظري عند سماعي رنين جرس . كان هنالك عربة تجرها  
أربعة أحصنة برشاء ، تسير بمحاذاة الشاطئ . أشرت للسائق بالتوقف :

« أرجوك ، خلني معك ، من فضلك ! »

— الى أين ؟

— الى بلاج « أوريون » .

— ولكن ، قل أيها السكير ، ألم يكن بإمكانك أن تفتح عينيك ؟ !

وأخذ السائق يلهب ظهور أحصنته بالسوط فانطلقت تعدو باتجاه  
الجنوب . بدلت جهدا آخر للنهوض ، ولكني فقدت الوعي للمرة الثانية ،  
لأنني لا أذكر أنني رأيت صيادا يصل الى هناك ويضع صناعته وسلته .  
ومع ذلك ، فإن الرجل كان بالقرب مني ، هادئا وعلى رأسه قبعة  
صغيرة من القش .

سألته وأنا أحاول النهوض ، ومحاولاً أن أجعل مظهري لا ينم  
عن العداء :

« يمكنك أن تقول لي كم يبعد من هنا فندق « أوريون بلاج » ؟

– الفندق ! ؟ ولكنه هنا .

– هنا ؟ !

– واضح أنك غريب . فما عليك سوى الصعود على خط مستقيم  
الى قرب الصمود ، وحالما تبلغ كثبان الرمل ، تستدير ، ليس باتجاه  
الحدود . هل ترى جيدا تلك القبعة ؟

– نعم .

– الفندق ؟

– نعم ، النزل ، او الفندق ، ان شئت ان تسميه هكذا .

– ولكنّ هذا غير ممكن ! فلم يسبق ابدا أن كان هنالك قبعة .  
والكنيسة ، أين هي ؟

– الكنيسة ! كيف ، انت ايضا ؟ «

أخذ الرجل يقهقه ضاحكا ، وبدلا من أي تعليق ألقى بقوة  
صنارته في المياه . حيث حط حينذاك قرب الرجل نورس ضخمة . أخذت  
اتمعن في وجه الصياد . كان يعلو ابتسامته شارب لطيف .

« أترى ؟ إنّ هذه الطيور لا تعرف بعد ان الانسان شرير . حتى  
الأسماك ، انظر اليها ، إنها تقفز الى يدبك .

كان الضوء ساطعا في ذلك الوقت والسماء صافية تماما . وهكذا  
فقد كنت اذن في « أوريون بلاج » ! فلم يكن لدى هذا الصياد أي مبرر  
للكذب . بدأت اتبين شيئا وراء الكثبان . كان ذلك هو الكوخ الذي  
كفوا يسمونه كوخل الحدود والذي كنت ألعب فيه عندما كنت طفلا ،

لوحدي أو أنا و « أوليفيه » . ولكن ، حولي ، حيث كانت تبدأ الشوارع  
والبيوت فيما مضى ، لم يكن يوجد شيء سوى بضعة أشجار هزيلة ،  
وهنا وهناك إحدى أشجار الكينا ملقاة على الأرض بمد أن حطمتها  
العواصف .

لم أكن مخطئاً ! فقد وجدت قريتي من دون بوصلة ولا دليل . كان  
القطار قد اختفى ، ولم يكن هنالك أحد ينتظرني وكان صمت البادية  
يسود ذلك الشاطئ الرملي الذي كان فيما مضى مكلناً راقياً للفوضى .  
شخص آخر استرعى انتباهي . كان يسير بخطى سريعة بمحاذاة  
الشاطئ ويتوقف من وقت لآخر لكي يتفحص الأرض ويشم رائحة الريح .  
على صدره كان يحمل آلة تصوير وكانت تملو أنفه نظارة كبيرة .

كنت أجز نفسي بصعوبة بالفة ، إذ أن الجهد الذي بذلته خلال  
تلك الساعات الأخيرة كان مرهقاً ، ولكني مع ذلك كنت أقدم ، كما لو أن  
قدرتي كان أن أتبع نصيحة الرجل النحيل الوجه ، والسير « دائماً  
ضد الرياح » .

كان ذلك الرجل الماشي يراقبني ، كما كان قد تفحص الآثار التي  
تركتها الطيور على الرمل . ثم اقترب مني وقال مبتسماً :

« أرى أنك غريب ، أنا الأستاذ « جوتمان » وأستطيع أن أؤكد  
لك أنه لن يتأخر . ربما يومين على الأكثر ، ثلاثة أو أربعة . . . آمل أن  
تكون لا تخشى الأماسير ! » .

كانت أساور وجهه قد تجمدت ، بانتظار الجواب . هزت رأسي  
تعبيراً عن المودة والتعاطف .

فقال بلهجة تنم عن البرضا :

« لحسن الحظ ، أن هذا أفضل ! سنلتقي ثانية مما قريب » .  
واستأنف سيره بمحاذاة الشاطئ .



سرت بضع خطوات باتجاه الكشبان الرملية باحثاً بنظري عن المنتزه الذي كان يضيء سابقاً على « أوريون بلاج » طابع المصيف الأنيق . لكن وبالأسف كان ذلك المنتزه قد زال من الوجود ولم يكن أمامي سوى الرمال التي يغطيها حطام الأشياء البالية وآثار مرور الطيور البحرية فوقها .

توقفت قليلاً لاسترد أنفاسي . استندت إلى عمود من الاسمنت مغطى بالأصداف البحرية . كنت أشرق بدموعي التي كانت تملأ حلقي . لم أكن أجروء على الجلوس لخوفي من عدم قدرتي على النهوض ثانية . كان هنالك عمود ثان مواز للأول ينتصب خارج الرمل . إذا كان الناس لم يخلصوني وإذا كنت حقاً موجوداً في « أوريون بلاج » ، فإن هذين العمودين الحجريين كانا الدليلين الوحيدين على أن يد انسان قد حاولت أن تبني شيئاً ما في هذا المكان . ومع ذلك فقد كان يصعب معرفة فائدة هذين العمودين اللذين تلتصق بهما الرخويات ولاي غاية قد استخدمما .

قال رجل عجوز كان يقف إلى يميني وييده معول ، وكنت قد عرفت من وجهه الكبير وفمه الملتوي نحو اليسار :

« لو لم يكن ذلك بائساً ! »

ناديته : « هانس ! عزيزي هانس ! ... »

ولكن لم يكن يبدو ان الرجل قد سمعني ، فقد كان يهر رأسه .

أخذ يردد : « لو لم يكن ذلك بائساً ! » لا أحد يذكر شيئاً . لا أحد .

قلت ملحناً :

— هانس ! هذا أنا ، أنا « أوريون » يا هانس ! أهدقت في عينيه ، متفرساً في نظراته محاولاً أن أثير لديه لمحة من الفهم والادراك ، ولكن العجوز ظل يهر رأسه .

« كان جميلا المنتزه ... انظر ، لم يبق منه سوى هذين القريقين .  
كان متميزا ... في المساء ... كان يجب أن تراه ، ياسيدي ، كان  
يفص بالأنسات » .

كان المعجوز يحدق في الفراغ ، مستندا على معوله . أمسكته من  
كتفيه ، وقلت له بصوت قوي :

« هانس ! انظر الي ا... أنا « أوريون » ، ابن « مورينا » . ولكنه  
دون شك لم يسمع سوى الكلمة الأخيرة من جملةتي ، لأنه فتح عينيه  
منبهرتين .

« مورينا » ! أعرف جيدا كل شيء : كانت على الشرفة عندما  
سافر ، وكانت ترتدي ثوبا من القرو . لم تقل شيئا ، ولا كلمة . تأمل ،  
ليس الصغير هو الذي أطلق النار ، انهم الآخرون ، النزلاء ، الخدم ،  
والفتيات . لقد اختارت البقاء مع السيد ، باه ! فهذا يمكن فهمه .  
وانت تصرف ياسيدي ، فقد كان الصغير في السن التي يحتاج  
فيها للتربية » .

كانت دموع حمراء تحجب نظرات المعجوز الشاردة .

صرخت به في وجهه مباشرة : « هانس !... » ، فقال :

— يمكن أن أشتق ولن أقول شيئا . فقلت ملها :

— ولكن أصغ إلي ، أنا ابنها ، ابنها » .

ظل رأس البستاني ساكنا نحو ريع ثانية . ثم عاد بهتز ثانية .

« بإمكانهم أن يشتقوني ولكنني لن أقول شيئا » .

شعرت باليأس فتوقفت من الالاحاح ، وكان المحوز قد نزع  
سترته ، ووضعها بعناية على الأرض وأخذ يحفر الرمل ، حول العمود .  
وهو يقول : « يجب نرعه » .

— دلتني على الأقل الى طريق الفندق .

— يجب نرعه .

كنت على استعداد للتخلي عن الموضوع لأن الخوف من أن تختفي  
الى الأبد عن هذه الأرض صورة « مورينا » حيث كانت ملكة ، كان يعصر  
قلبي . كان « هانس » قد قال أن لا أحدا يذكرها ، ولكن هو نفسه ،  
هل كان يحرص حقا على ألا ينسى سيده ؟ لقد بدر منه رد فعل واضح  
عندما لفظت اسمها ، ولكن في الحال أمحي هذا الاسم نفسه من ذهنه .  
وماذا كانت تعني ضحكة ذلك الصياد عندما تحدثت عن الكنيسة ؟  
إن مدينة من مدن النزهة والمتعة لا تختفي في الهواء وتطير كقصر من  
الغبار . وأنا ، من كنت ، أنا الذي رفعت يدي على عشيق أمي ، بسبب  
التجاسر على الادعاء باخراج صورة امرأة منسية عمداً ، واستعادتها  
من العدم ؟

كنت أشعر أن اسم « مورينا » مرتبط بقوة باسم « أوريون — بلاج » .  
وإن « سول » إذا كان قد سمح أن تختفي البيوت والشوارع ، فلم  
يكن ذلك إلا لكي يختفي اسم أمي أيضا . لقد ماتت « مورينا » كما مات  
القطار والكنيسة ومكسر المحطة . لقد دفنت في باطن الأرض ،  
ولن أتوصل مطلقا لاعادتها الى سطحها . وإذا كانت في الليلة الماضية  
قد اختارت أن تأتي اليّ ، وتشارك في الكابوس الذي افتابني ، فأنها  
هنا ، لا يمكن أن تجرؤ على القيام بذلك . وفساتينها ، قبعاتها المزينة  
بالريش ، وردائها المصنوع من القماش المتموج والمطوى بالبرق والترتر  
الذي كان يغلفها ويضفي عليها شكل وسمات الأفعى ، كلها كانت قد دفنت  
أيضا معها . لم يبق لمورينا أي ديكور أو أي أثر ، ومهما ناضلت ضد

وجه « سول هيريديا » الذي يحمل سمات الأشباح ، فإن هذا الوجه  
سيحول دائما بين « مورينا » وبينى .

كان سيد « أوريون » يعلم أنى آيت ناويا قتله ، وهو لم يكن  
ذلك الرجل الذي يعترف بهزيمته ، ولا ذلك الذي يعلن من مزمه على  
تصفيتي جسديا بواسطة أحد أعوانه . فاي عائق سيقومه بعد الآن في  
طريقي ، وماهى المخاوف ومظاهر الرعب التي سيحيطني بها ؟



كنت أمشي نحو السهم الذي دلني عليه الصياد دون التقى بأحد .  
كانت الطيور تبدو مترددة باقتفاء أثري ، وبعد قليل كنت مجبرا على  
الاعتراف بأن أحدا لم يخدمني ، لأنى لدى وصولي أمام واجهة أحد  
المنزل التي كانت تلوح لي عبر الكثبان الرملية ، استطعت أن أقرأ هاتين  
الكلمتين : « أوريون بالاس » ( فندق أوريون ) مكتوبتين بأحرف ضخمة  
سوداء على جدار متصدع .

ولم يكن قد بقي من ذلك البناء الفخم اللهي كان مؤلفا من ثلاثة  
طوابق والمبنى فوق مرج أخضر ، في نهاية ممشى تكتنفه أشجار النخيل  
الباسقة ، سوى سقيفة تطلوها قبة من التوتياء فوقها سهم . أما الحديقة  
الجميلة التي كانت أمي تتجول فيها حاملة مرشاً تسقي بمائه الزهور ،  
فلم يعد فيها سوى جذور ملتفة حول جذوع بعض الأشجار المتبقية ،  
وبعض سعف النخيل المرفقة .

والشرفة الواسعة ، حيث كانت « مورينا » تتناول الشاي ، قد  
اختفت تماما وكنت مرغما ، من أجل الدخول الى الفندق ، أن أمبر  
من نافذة حولت الى باب للدخول . وبدلا من أن أجد نفسي ، لو كان  
الوضع طبيعيا ، بين جدران ردهة الفندق ، لاحظت أنى كنت في ممر  
مدهون بالكلس الخشن يؤدي الى ما يشبه الباحة وقد علق الفسيل في  
وسطها وتصدرها أبواب مدفأة .

انتابني بشدة احساس نتن بالبؤس والشقاء . فلا شيء مما كنت أبحث عنه يمكن أن يكون موجودا في مثل ذلك المكان . والحياة التي استبعدت منها كانت تتطلب اطرا يتصف بالترف والاتاقة . والغرفة التي كان « سول هيرديا » يضاجع فيها الزائرات ، والتي كانت أمي تجلب له فيها الحلوى على صينية لم تعد موجودة هناك . كنت قد هربت من البشاعة لألقى من جديد بشاعة أخرى ، ربما كانت أشد إثارة للقلق من الأولى ، لأن روحاً شريرة ( وهذا مما لا شك فيه ) كانت قد استبدلت فندق « مورينا » ببيت حقير يثير القرف والاشمئزاز .

صفقت ، ولكن لم يجبني أحد . كانت الريح تلف من وقت لآخر كمتي قميص رجل حول خرقة مبللة وكان الصمت الذي يتلو ذلك طافحا بالسخرية . كان هناك كراسي ملقاة في وسط الباحة ، ودراجة صغيرة ذات ثلاث عجلات ، ألقيت على قفاهما ودواليبها مشرعة في الهواء ، بين صحون مازالت عالقة بها فضلات الطعام .

كنت على حافة اليأس ، عندما ارتفع صوت من داخل الفندق حملني أنتفض . كان هنالك أصابع مجهولة تعرف على البيانو ، نعم كان ذلك تماما : عزفا على البيانو . كانت المزوقة رتيبة وصاخبة ، ولكنني كنت مطمئنا . فهناك كائن حي يسكن هذا البيت الحقير والمخيف : أنه طفل دون شك ، لأن معروفة « الفالس » التي كنت أسمعها ضعيفة الانتماء الى الموسيقى الحقيقية . ومقابل أي شيء في العالم ما كنت لأرغب أن ينقطع صوت كان يذكرني بحفلات الرقص التنكرية أو بدروس الرياضة البدنية . وإذا كان الفندق قد مات بالفعل ، وكنت على استعداد لتقبل ذلك ، فقد كان بقي عليّ أن أكشف جثته .

لكن ويا للأسف ، رغم تجوالي عدة مرات في باحة الدار ، ودخولي في جميع الممرات ، ودراستي كل دقائق السقف والأبواب ، فاني لم أجد أقل أثر لما كان يتكون منه في الماضي قصر « سول هيرديا » . فلم تبد لي أية شرفة ، ولا أية غرفة مفروشة بالحرير ، ولا شيء سوى الغرف



البائسة التي تثير الشفقة ، بينما كانت معزوفة « الفلاح المرح » تتابع سيرها ، كيفما كان ، كما لو كانت بذلك تبرز بؤسى وتؤكد عليه .

## - ٨ -

كان التعب يبعث في نفسي المذلة والهوان ويمنعني من أن أدرك بدقة المكان الذي دخلت إليه ، وكان عليّ أن أظل ساكنا لا أبدي أية حركة لكي لا ينتابني الدوار .

وفجأة وبينما كنت أهم بالدخول الى أحد الممرات ، وليحدث بعد ذلك ما يحدث ، شممت رائحة عذبة تفوح من غرفة كان بابها مواربا ، ذكرتني بشيء معين . فتحت الباب فرايت في الحال سريرا برونزيا كنت قد استلقيت عليه عندما كنت طفلاً أكثر من مرة ، في الليالي العاصفة . كانت الصور الفخمة التي كانت ترين مرآة الخزانة الكبيرة قد اختفت : صورة الجندي الذي صبغت له « ماري فوريه » شفتيه باللون الأحمر ، والصورة التي كانت تمثل راكب دراجة أنيق وهي تجلس على ركبتيه .

لم يكن هنالك أي شك بأنني كنت في جناح الخدم وأن ما كنت قد ظننتها باحة الفندق لم تكن بالحقيقة سوى السطح الذي كانت خادمت أمي تنشر عليه غسيل نزلاء الفندق . فكيف وصلت فجأة ومباشرة الى الطابق الثالث في الفندق في حين أنني لم أستخدم مصعداً ولم أتسلق درجا أو شرفات ... كان كل ما اذكره أنني أتيت مباشرة من الحديقة فاصطدمت بأنبوب مدفاة ورايت بعض الشرافف والناشف تتأرجح على حبل هناك .

وفي الخارج ، كانت الرمال تنتشر فوقها البراميل وصفائح التوتياء ولم يكن عليّ إلا أن أمد يدي كي المس الأرض . كلب أسمع ، مبقع باللون الأصفر مر بمحاذاة الجدار وحدجني بنظرات حذرة . ومن جديد أخذ قميصي الذي لم يكن قد بقي منه سوى أجزاء ممزقة ،

يلتصق بجسمي . كان عليّ أن أدرك الحقيقة الواضحة : فالطابق الثاني  
والأول في فندق « نوريون بلاج » كانا قد اختفيا .

كانت انغام البياتو مازالت تتردد في مكان ما ، كما لو كان ذلك يحدث  
لبعث الاطمئنان في نفسي . وبالفعل ، فاني بفضل ذلك نحتت بالمحافظة  
على رباطة جاشي ، ولأني أصبحت واقفا عند ذلك بوجود درج يؤدي ،  
الى الطابق الأرضي في ذلك البناء المتهدم ، فلم يطل بي الوقت رغم تعبي  
حتى اكتشفته وغامرت بالنزول عليه .

كان الوقت ظهرا على وجه التقريب ، ومع ذلك لم يكن النور كافيا .  
سرت في الظلمة لأن الفندق كان بكامله تقريبا مدفونا تحت الأرض ، هذا  
أن لم يكونوا قد أغلقوا الستائر بسبب شدة الحرارة . وعندما وصلت  
الى ما يجب أن يكون الطابق الثاني في الفندق ، عصفت بقلبي رائحة  
كرائحة المدافن والقبور . تابعت النزول متلمسا كالأعمى ، عندما وضعت  
يد غير منظورة على كتفي .

« ألم تر الكديش ؟ »

— عفوا ؟ »

كان الصوت مألوفا بالنسبة لي .

تابع قائلا : « أنه لأمر غريب ، يا سيدي ، ولكن عندما لا نريدها ،  
هذه الكديش ، فإننا نلتقي بها في كل مكان ، بالمتات ، بالآلوف مصطقة  
كالجنود . وهي تنتظر أن ينجز بناء الفندق ، ولكن ذلك سيحتاج لوقت  
طويل . »

كان العجوز « هانس » يحمل حذاءه بيده . كنت قد عرفته عندما  
وقف تحت حزمة من الضوء تسالت من السقف . كان قدماه العاريان  
سوداوين من الرمال .

تابع بلهجة تنمّ من الحزن :

« نعم ، لقد أتت الرياح على الفندق ، قبل ان يتمكنوا من وضعها .

اقترحت عليه قائلا : سأرافقك » .

ولكن البستاني استوقفني بإشارة وقورة .

« اني اعرف هذه الأماكن ، يا سيدي » ، وسار مبتعدا عني . من المؤكد أنّ الحظ لم يكن بجانبى ، فهذا الرجل كان دون شك ، الوحيد في « أوروبون » الذي يتذكر « مورينا » ، ولكنه كان مجنونا .

- ٩ -

في جوف البناء القديم والمهدّم حيث كنت أجد نفسي محتجرا منذ أكثر من ساعة ، كانت معزوفة « الفلاح المرح » تتابع سيرها دون ملل . تصورت نفسي فجأة في سن العاشرة ، متنكرا في زي مهرج ، وحيدا ، أركض في هذه الممرات نفسها .

كانت وطأة الحر تزداد شدة وبينما كنت أسير كيفما اتفق ، شعرت فجأة بإحساس جديد ، إحساس بأن الفضاء يكتنفني . وتخلل إيقاع المعزوفة الألمانية الرتيبة رنين جرس خيل اليّ أني أعرفه . فقد كان هو الذي ينادي المستحمين المنتشرين على الشاطئ الرملي ويدعوهم لتناول وجبة دسمة . كان ذلك الرنين ينفذ بقوة من أعماق البيت .

أدار أحدهم مفتاح الكهرباء فأضاء نور النيون القاعة المفلقة التوافد، التي تفص بالموائد المغطاة بالأغطية الوسخة . بدا لي زوجان يتبعهما سيل من الكائنات البشرية ، ذهب الجميع فجلسوا تحت المراوح . ووضعت شبك الصيد قرب الجدران . تعالت الضحكات ، وعملت الأمشاط على تحريك وتسريح الشعور المبللة . أحاطت بي مجموعة

كبيرة العدد كثيرة الضجيج والصخب بقدر ما هي كثيفة وشمرت بأنه لا جدوى من محاولتي الدفاع عن نفسي ، واني لم يكن بإمكانني عمل شيء حيال هذا السيل المتدفق من الأجسام المرحية ، واني كنت أكبر ، وأمرض من أن أستطيع التملص والافلات من الغبطة التي تنعم بها عائلات عديدة .

الموائد ابتعدت عن بعضها ، وبعض الخدم اجتازوا القامة وهم يصرخون . أشعل أحدهم مصابيح اضافية . أغمضت عيني . حدثت بعض الصفحات ، والفمفمات ، وسحب من بودة الرز . فرست الشوكات في جبال من المعجنات . واخذت سكاكين المائدة تقطع شرائح اللحم . ودار الجبن على النزلاء . كان الفرح الذي لا حدود له ، ولا قصص أو مشاكل ، الفرح العنيف يسبب الاحتقان في الوجوه . ثم حدثت قطعة الفكين القدسية ، وكان كل فكين مشبعين راضيين بما يمضغان ، تبع ذلك احتفال تكاشات الأسنان التي كانت تفتش الأفواه الدقيقة .

ولرغبتني بالبقاء منسيا ، مكثت ملتصقا بالجدار . كانت تبلغ مسامي تتف من أحاديثهم : هل رأيت الغريب ؟ ... شخص مهزوز ، غريب الأطوار ... كلا ، انه أحد أقرباء صاحب المزل ! ... أليس خطيب الصغيرة ؟ ... انه يشبه أحد ممثلي السينما ... انه مريض ، ألم تلاحظ ذلك ؟ ...

لم يكن هؤلاء الناس مخطئين ، فقد كان ينتابني الفتيان . ولم يسبق لي أبدا ، رغم تجربتي التي عانيتها في المدرسة الدينية الداخلية وعلى ظهر باخرة الشحن ، أن استطعت التكيف مع خطيط مشوش من الناس . أمسكت بكتف سيدة بارزة البطن تحمل رضيعها على ركبتيها وانتزعتها من كرسيها . عبرت بين ذلك الجمهور فوجدت نفسي دون أن أعرف لماذا ولا كيف ، على سطح البيت حيث كانت معلقة سراويل وجرابات نزلاء الفندق .

في قاعة الرقص ، في قلب هذا الضريح بالذات ، حيث دفنت لتوي  
صورة أمي ، كان البياتو لا يزال يرسل أنغامه المدوية بانتظام ، دون  
كلل أو ملل .

- ١٠ -

عندما استيقظت ، انتابني احساس بآني قد نمت عدة أيام دون  
أن استيقظ أو أسترد وعيي . كانت بعض القناني تملأ صينية موضوعة  
على مائدة ، وكان الجو مريحا في الغرفة التي كنت فيها . شعرت  
بالاسترخاء والراحة كما لو كنت خارجا لتوي من حمام دافئ مكثت  
فيه طويلا ، أغمضت عيني ثانية ، رغبة مني بالمحافظة على هذه الحالة  
من السبات التي كانت تتيح لي راحة البال وعدم التفكير بأي شيء ،  
وبخاصة لكوني ليس عليّ القيام بأي مجهود لمجابهة خيبات أمل جديدة .  
كان هنالك نور ضئيل يتسلل عبر شقوق درفات النوافذ المظلمة .  
استسلمت لعدوبة هذا الجو دون أن ألقى أية أسئلة . يدان ناعمتان  
أخذتا تتلمسان صدفي .

لقد زالت الحمى عنه .

— لحسن الحظ ، عليك أن تلقّنيه الدرس وأن تطرده بعد ذلك .

عند ذلك ساد صمت تبعه صوت ملعقة تتحرك في فنجان .

عاد الصوت يقول :

« ستنصاعين لأوامري !

— كلا . »

- ١٤٧ -



استمر الصمت فترة طويلة بشكل مزعج ، هذه المرة . لم أكن  
أرغب أن أفتح عينيّ لأنني كنت أشعر تماما بأن هناك من يترصدني  
وإذا كان النوم قد حماني حتى الآن ، فإن ذلك لن يدوم طويلا .

كان في صوت المرأة التي كانت تجس نبضي نبذة اقوى من أن  
يتحملها حسي وذوقي . حاولت تبين ملامحها عبر أهدابي ولكنني كنت  
أشعر أن حارسيّ يترصدان حركاتي . ولا بد أن الرجل كان قلقا لأن  
أصابعه كانت تربت على مسند أحد الكراسي .

وصاح قائلا : كيف استطعت ، بل كيف أمكن أن تكوني قد نمت  
مع هذا المتوحش ؟

— كنت أمرفه .

— كنت تعرفينه ! تقولين أنك كنت تعرفينه ! وبدلا من مراقبته ،  
انصرفت الى العزف على البيانو !

— كنت أمرف أنه سيأتي .

— يا للقدارة الحقيرة ! «

وأنفقت الشتيمة بصفعة قوية ولكن المرأة لم يرف لها جفن .  
كانت تثبتها بنفسها تبدو مثيرة للفيظ . فماذا كان يعني هذا الحوار ؟  
كنت منزعجا لعدم تمكني من تغيير وضعي لأنني بدأت أشعر بالام شديدة  
في جميع أعضائي . كان صوت الملعقة التي كانت تقرر جوانب وقاع  
الفتجان يمنعني من العودة للنوم . وكان يرهقني ويتعب أعصابي صوت  
المرأة الدخيلة ، الجاف النبرات .

وفجأة ، وكما لو كان ذلك قد حدث من أجل وضع حد لصمت  
لا يطاق ، أغلق الباب بعنف وفي الحال توقف الصوت الذي كانت تحدثه  
الملعقة . كان أحدهم قد خرج . ورغمما عني فتحت عينيّ .

كان رجل في الخمسين من عمره ، ذو وجه ضخم يملوه النمش ،  
يقف أمام سرير ، وكان يرتدي بنطالا قصيرا وقميصا رصاصي اللون .  
سألني :

« هل نمت جيدا ؟ »

— نعم .

— هذا من حسن الحظ . «

ورغم النبرة الودية في صوته ، فقد كان هنالك ما يتسّم بالخوف  
في موقفه .

سألته : « من أنت ؟ »

— جروم و . آدمس ، صاحب الفندق ، واني أريد منك أن تنهض  
وتفادر المكان بأسرع ما يمكن .

— هل بامك « سول هيرديا » الفندق ؟

— ولماذا لا يكون الأمر كذلك ؟؟

— يا لها من قضية غريبة ! فندق بلا مواصلات مع الخارج ، يجب  
تموينه عن طريق الشاطئ والنور فيه لا يزيد عن النور في أحد الأقبية !

— ان أسعاري معقولة .

— ولم يحاول أحد أن ينسف لك السقيفة ، من أجل إعادة  
اصلاحها ؟

ابتسم محدثي ابتسامة مفتضبة .

« أن ينسف لي السقيفة ! ان الناس غالبا ما يكونون حمقى ، ولكن نادرا ما يكونون مجانين . »

كان السيد « أدامس » ينظر اليّ بعين قرأت فيها شيئا من الشفقة عليّ لبرائتي وسلامة طويّتي . ثم تابع بلهجة الأمر :

« يجب أن تسرع بالانصراف اذا كنت لا تريد أن تتعرض للمضايقات والمتاعب . »

وبما أنّي لم يبدُ عليّ أنّي سمعت ، وأنّي كنت اتقلب على الوسائد للعودة الى النوم ، فقد انحنى عليّ وهمس في أذني :

« اسمع ، أنا ليس لي أية مصلحة في جذب انتباه الناس على هذه « السقيفة » ، كما تقول . والأمور تسير على قدر الامكان وهذا يكفي . فليس لديّ طموح ولا مطمع . وأمراتي راضية . فهي تجري الاحاديث مع البرجوازيات اللواتي يأتين من العاصمة . . ولأننا نحسن التصرف ونعرف كيف نحافظ على وضعنا فان الناس يتركوننا وشأننا . وبعد الحرب ، كما تعلم ، حدثت بعض المظالم ، مظالم كثيرة حدثت في بلادي . أما فيما يتعلق بـ « هريديا » ، فهو لا يحب الثرثارين . وقد تحدث الناس أكثر مما ينبغي . أما أنت ، فانك قادم من الخارج ، ولست مطلعا على الأمور . ويتحدثون هنا أنّ امرأة كانت فيما مضى تدير منزلا وتجذب اليه الزبائن ، الكثير من الزبائن الأغنياء . وبالطبع لم يكن ذلك يشكل شيئا . فجميع الناس لهم الحق بالعيش وبتأمين معيشتهم . ( هنا كان قد أخفض صوته ) . يقال أيضا أنه هو الذي كان قد أسكن تلك الهندية الصغيرة التافهة في الفندق وأنّ رساميل ضخمة قد اختفت في أسرة الفتيات اللواتي كانت تأتي بهن لمساعدتها . ويقال أيضا أنه قد وقعت بعض الحوادث . أنت تفهمني ، اليس كذلك ؟ » .

كانت عينا « جيروم و أدامس » تتوهجان ببريق شره . كان قد أمسك ساعدي وأخذ يشد عليه بغضب شديد . وتابع قائلا :

« المرأة اختفت ، و « سول » أقام كثنانا أخرى بالقرب من هذا المكان . لقد كانت نذير شؤم كبقية العاهرات . ومنذ أن غادرت المكان سلوت الأمور هناك كما لو كانت ترعاها عناية الله . ولا يمكنك أن تعرف ، فقد أطلقوا عليه اسم « الشاطيء الأعجوبة » . ويومه كثير من الأغنياء والمترفين . والأراضي ترتفع أسعارها بشكل مستمر وزبائن هذه « السقيفة » يعتقدون أنهم يشاطرون الآخرين ، هم أيضا ، هذه الحياة المترفة ، وهم مسرورون بذلك . وكل يوم تبنى منازل جديدة على الكثنان المجاورة ، وهي لم تصد كثناناً ، بل روابي وتلال . ويقال أن « سول » سيقوم قريباً بتدشين شاطئه الجديد ، واللافتات جاهزة ، فقد رأيتها . »

كانت عينا « مدير العمل » تتوهجان وترسلان الشر وهو يتابع وصف الملكة المجاورة . كان فمه الصغير الذي يعلوه شارب أشقر ، يبدو كأنه يتذوق قطعة « كاتو » محشية بالقشدة الطازجة .

وتابع حديثه قائلا :

« لقد ملأ خزائنه بالذهب . وكل يوم يضيف إلى « ديكور » قصره وإلى زينته شيئاً جديداً : شرفة على النمط الإسباني ، تمثالاً ، إنه متحف حقيقي . والناس يأتونه من كل مكان بقصد زيارته ، حتى السفراء . أخيراً ! إنك تدرك أنه والحالة أصبحت هكذا ، فلن يكون هنالك رغبة بدغدغة ذاكرة الناس وبالثارة انتباه الزبائن على ماضي « أوريون بلاج » . »

— وانت ! هل يمكن أن أعرف لماذا تروي لي قصصا يفترض أنه يجب نسيانها ؟

— انا ! ... ولكن ...

— بلى ، أنت . وعليك أن تعترف أن قصص الأسرّة المملّأ بالذهب هذه ، تثيرك ! أما بشأن الهندية الصغيرة والتافهة ، فأنا أنصحك ، إذا كنت راغبا بالعيش ، أن تهتم بما يعنيك وأن تدمها بسلام .

— وأنت قل لي ، بأي حق ؟

— بحقي انا . لأنك أنت ، لا أعرف فيما إذا كنت انكليزيا أم المانيا ، ولا ماذا تخفي ، فأنا لا أبالي بذلك ، ولكن ماضي « أوريون بلاج » ، انا الذي أعرفه وسأفعل به ما يحلو لي .

كان الرجل قد تراجع قليلا . وضافت حدقتا عينيه . ورفع اصبعه مهددا ، ثم قال :

« أيها السيد ، إن « أوريون بلاج » قد مات وسيظل ميتا . كانت عيناه الآن صغيرتين حقا . وشعرت بأنه يمكن أن يقتلني بكل يسر وسرور لو كانت لديه الشجاعة على القيام بذلك . أرسلت تنهدة واستلقيت على ظهري . ثم سألته :

« هل هذه ابنتك التي خرجت للتو ؟ أم هي زوجتك ؟

— لا نها ابنتي « فاليري » . وهي مخطوبة .

— برافو ! .

عض الرجل على شفتيه : فقد كان تعجبي واستحساني يعبر عن الكثير من رأيي في تلك الخطوبة . ولاحظت أن لديه شيئا من سمات الثور ، بدت في طريقته باحناء رأسه . قلت :



« لا تخف ، فلست مسلحا .

إنّ ذاكرتك قوية ، وهذا أسوأ .

— هل أخطرك بذلك « سول » ؟

— كلا ، إنّ خطيب ابنتي هو الذي فعل ذلك .

— ولكنني لا أرفه .

— إنّك قد رأيته في « لاس روزاس » ، إنه « كارميلو » : شاب طويل ذو وجه متطاوّل . وهو فتى طيب يهتم كثيرا بالتمسّاء وسيّثي الحفظ .

عبّرت ذهني صورة الخيال ذي الوجه النحيل الذي تبغني حتى بلغت الكتبان الرملية .

« وقد وعدت « سول » بترحيلي في هذا اليوم بالذات ؟

— بالضبط .

كنت قد انتصبت على السرير . ووجهي الذي كان يغمره النور المتسلل من شقوق النافذة ، لا بدّ أنه كان متألّقا . لقد كان هذا الرجل يخاف مني . قلت :

« هيا ، انصرف ! فتراجع الرجل ، كررت قولي ملحا : « هيا ، انصرف في الحال ! » .

— سيقضي عليك « سول »

— سنرى جيّدا .

تابع « أدامس » قائلا : سيحظى بك ، سوف يلاحقك كظلك ،  
فهو ماهر بهذا العمل ، وسوف ترى ، سيجعلك ضعيفا جدا . بحيث  
تفقد الرغبة بالعيش . دون أن تعرف فيما إذا كنت موجودا على قيد  
الحياة ولا في أي عالم أنت . وستركع أمامه ، وتقبل حذاءه .  
كان هذا الرجل الضخم قد تراجع حتى التصق بالجدار ، وتمتم  
قاعلا : « إني أحيا حياة هادئة .. وابنتي ستتزوج عما قريب » .

كنت أرقبه بكل سرور وهو يفقد ثقته بنفسه .. لقد كان هذا  
الرجل الضخم عبدا لدى « سول هريديا » ذلك الساحر المشهور  
الذي كان يجعل القصور تبنى وتتعالى كما تنبت وتنمو أشجار الكينا .

فتح الباب ودخلت فتاة ترتدي ثوبا وردي اللون وتحمل صينية  
ملأى بالفاكهة . وعندما رآها السيد « أدامس » هز كتفيه وفادر  
الفرقة .

كانت القادمة الجديدة صغيرة القامة وقد تذكرت ، بالفعل ، أنني  
لمحتها في صالون الموسيقى يوم وصولي حيث بدت لي مذبذبة مثل كأس  
من عصير البرتقال . تفحصنا بعضنا بالنظرات ، وكانت قد اقتربت  
والتصقت بي . ثم ضممتها إليّ وأخلنا نتدحرج بين الكراسي . لم  
أكن احتفظ من ذلك العناق بسوى ذكرى فظة . وكان عليّ أن أصرخ  
بكل قواي ، دون أن أمرف إن كان ذلك بدافع اللذة والسرور أم بدافع  
من الغضب . ولكن الناس تراكضوا عند ذلك .

والآن ، ها هي « فاليري » موجودة أمامي ، منهمكة برفع المخدات  
تحت رأسي . رأيتها تسكب سائلا في كأس وتسحب الستائر . وفي  
لحظة معينة توقفت وحدجتني بنظرة حادة .

« لماذا كنت في السجن ؟ » .

فتحت عيني مندهشا . فقد ألقى عليّ « سول » السؤال نفسه .  
تابعت وهي تقدم لي كأسا من الماء أذابت فيه قرصا :

« سمعتك وأنت تهدي . وأنا أعرف عن قصتك أكثر مما  
تعرف أنت » .

لم أجب . فلم تكن لديّ أية رغبة بمناقشة هذه الفتاة التي كانت  
راحتا يديها غليظتين والتي ربما لم تكن مخطئة فيما يتعلق بموضوع  
السجن . فلا شك أنني لم أكن قد خرجت مطلقا من الزنزانة التي سجنتني  
فيها أمي . ولكن ... كيف كانت تعرف ذلك وأين كانت الجدران  
التي كانت تحتجزني ؟ ومن جهة أخرى ، كيف يمكن الخروج من مكان  
لا تعرف حدوده ؟ ...

كانت جديدة داكنة تتدلى على كتف زائرتي . وكان أنفها الصغير  
الأنفوس قليلا ، يبدو جانبا منخريه كثيري الحركة ، وكانت بشرتها  
شقراء وملساء . حاولت عبثا أن أذكر ماذا شعرت عندما عانقتها .

وقالت : « يجب أن تنصرف ، فقد شفيت .

— ولماذا اعتنيت بي وعالجتيني ؟

— لقد سعدت بممارسة الحب معك ، فلماذا اذن لا أعتني بك  
وأعالجك ؟

كانت ، طيلة الوقت ، تحديق بي .

« هل أنت معتادة على الاستسلام هكذا الى الغرباء ؟

— إن الرجل الذي يحظى بالامعجاب من أول نظرة ليس غريبا .

— حقا ؟

— إنه الرجل الذي ننتظره ونعرفه . وتابعت : وعلاوة على ذلك فقد راقبتك على الشاطئ ، عندما كنت مستسلما للنوم ، لقد كنت شبيها بالقارب .

— شبيها بالقارب ؟

— نعم ، وبقارب فارغ .

فقلت لها : تابعي .

ولكنها كانت قد توقفت .

ثم قالت بلهجة الأمر :

« انهض ، يجب أن ترحل » .

كم كنت أود أن أضمها إليّ ثانية لأنني لم أكن أذكر شيئا من جسمها . كان ردفاها يغرياني ، وصدرها أيضا . لا بد أن" فمها من الداخل كان حلو المذاق ولكنني لم يسبق لي أبدا أن قدرت هذا النوع من اقتنيات حق قدره . نهضت وأنا أنوي لمسها فسقطت ثانية في الفراش واستسلمت دون رغبة مني إلى الحلم الذي كنت معتادا عليه والذي لم يكن يتطلب مني بلل أي مجهود .

صرخت حارستي وهي تضع يدها على غطاء السرير :

« كلا ! إنك لن تعود للنوم من جديد . لقد انقضت ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ وأنا أسمع الأحاديث عنها . وهذا يكفيني .

— عنها ؟

— إنك تعلم تماما ما أعني ، وهذا يشير القرف في نفسي .

فأنا أنام مع من أريد ولكني أنام مع رجال ، وليس مع أشباح . «

كانت الضربة قاسية وشرسة .

صاحت بأعلى صوتها : « دعها وشأنها بسلام ، تلك الميتة ، فالأمر

يشير القرف . «

كان لدي انطباع بأنني أتعرض لعملية لن أعود منها ، وكان يستحيل عليّ الدفاع عن نفسي . وكما هي العادة ، بقيت ساكناً حيال الشتيمة والاهانة .

تابعت : « أصغ إليّ جيداً ، لا يجوز أن تستمر على هذا الشكل . فالعلم جميل ولكنه ملاذ المنزويين والانطوائيين . والنساء لا يكرهن الضعفاء شريطة أن يستطعن استخدامهم ووضعهم تحت تصرفهن . ولكن الضعفاء من أمثالك ، الذين يريدون الهرب ، ليس لهم دور يقومون به . انهم بالكاد يعتبرون كـ بعض الأشياء أو الأغراض . التي لا تصلح لشيء ، ولا يعتبرون رجالاً . أعرف أنك اشتركت في الحرب ، وأعرف أيضاً أنك تزوجت . بل وأعتقد أنك كنت تملك مكتباً في مكان ما وأنه كان لديك بعض المستخدمين . ولكن كل هذا لم يعد ينعم بالحياة أكثر من مدرسة اللاهوت الداخلية التي قضيت فيها علماً كاملاً . وقد عملت كل ما يمكن عمله دون أن تتواجد أبداً هنا . «

بدرت مني ابتسامة لاهية بالرغم مما كنت أعاني من ملل وتعب .

تابعت الكلام : « أني أقول « دون أن تتواجد هنا » لأنني يمكن أن أقسم أنك شخص يأوي إلى فراشه لينام حالماً تحدث له بعض المتاعب ، ويفضل أن يحلم بامرأة على أن يجها ، لأن ذلك لا يلزمه بشيء . نعم ، فالحب يسبب الألام ويكلف غالباً . «



كانت « فاليري » تقف بجانب سريري ، يداها متشبثتان بقضبانه  
النحاسية ، وعيناها تحدقان بعيني .

« اعتقد أيضا اني أدركت أنك موجود هنا لتلتقي بأحدهم لأنك تنوي  
أن تنتقم من ذلك الذي منعك من أن تكون سعيدا، حسنا ،... حسنا...  
إذا أردت أن تصبح رجلا قبل أن تضرب ضربتك ، أبدا أولا بالخروج من  
أسار تلك المرأة الميتة التي تتحدث عنها ! »

كلت الضربة الأولى التي وجهتها لي قد سببت لي ألما حاداً في  
صدري . واثت هذه الضربة فرادت من حدة ذلك الألم . كنت قد أغمضت  
عيني ، وفي لمح البصر ، تخيلت « مورينا » في اليوم الذي طردني فيه  
« سول » من المنزل ، وكان ذلك عندما كنا على شرفة الفندق . فهي لم  
تقل شيئاً ، ولم تبدِ أية حركة لمنع من تدميري . لم أكن أستطيع أن  
أنسى بريق عينيها الواسعتين والداكنتين ، المنبعث من خلال جفنيها  
المسدلين . كان صوت حارستي يتابع حديثه وكنت أكاد لا أسمعه . ومع  
ذلك فقد لفتت انتباهي هذه الجملة :

« لا ينبغي ، كلا ، لا ينبغي ممارسة الحب مع أشباح . »

كانت اللمحة أكثر رقة مما كانت عليه قبل قليل . وكانت الفتاة  
قد اقتربت مني وانحنيت على فمي . ثم تابعت تقول :

« يا للعجب ، أنك عندما ضاجعتني ، ذلك اليوم ، في الضالون ،  
كنت تحشرج وتهذي ، أليس كذلك ؟ وكنت تبدو أنك تدخل بي وكأن  
ليس لي قرار وأنت لا تريد أبدا أن تخرج مني وتطفو على سطحي . ولكنك  
عندما كنت تضميني اليك ، وتحولني الى حصاة ، الى كتلة من التراب ،  
أي اسم كنت تطلق علي ، وبأي اسم كنت تناديني ؟ نعم ، بأي اسم ؟ »

كانت قريبة جداً مني بحيث كنت أرى نهديها مشدودين ومنضمين  
تحت صداوتها . وكلنت حلمتهما المنتصبتان تلامسان صدري .

وتابعت تقول : « لقد تجولتَ في كل مكان ، ونبلدت جميع النساء بعد أن استخدمتهن ، لأن أي واحدة منهن لم تكن تتمتع بعلوبة تلك تلك المرأة . ولم يكن لأي منهن قوامها ولا مينيها ولا رائحة جسدها . ليس كذلك ؟ لقد كرهتهن لأنهن أحبينك ، وتقمتَ عليهن ، ولم تسمح لنفسك مطلقا أن تحظى بالسعادة خشية أن يسرهن ذلك . وأيضا لأنك كنت متاكدا أن الأخرى كانت تنتظرك على شرفتها في كفنها الجميل . أصغ الي جيدا ! ان تلك ليست لك ، فهي له ان كانت ميتة أو حية ، وهي انما تنتظره ، هو . يجب أن تقتنع بذلك . ( كانت أنفاس الفتاة تتردد بسرعة . ) عليك أن تطيعني ، وأعدك بأنني سأجعلك تنسى الموتى . فالموتى ليسوا سوى عظاما ، ودينا ، وليسوا شيئا آخر . »

كنت قد ألقيت رأسي ثانية على المخدة . وكان صوت تلك الفتاة الذي كان يتحول من التأكيد التعليمي الى نوع من الحماسة الطفولية يبدو لي شديد العذوبة .

قلت :

« خذيني الى البحر ! اني بحاجة للماء . »

كانت زائرتي قد أدخلت ذراعها تحت عنقي كي تساعدني على النهوض . كانت رائحة الصابون تفوح من نهديها . أمسكتها ، ولكنهما أفلتا مني . بعد ذلك وبينما كنت أحقق بهما ، عادا إلي من جديد . وبعد معركة غير متكافئة ، لأنني كنت لا أزال خائر القوى ، نجحت أخيرا بالاحتفاظ بهما وبضغطهما بشدة على فمي . وبحركة سريعة ، ابتعدت الفتاة عني .

وأمرتني قائلة :

« انهض ! اني سأجد لك مسكنا حقيقيا . »

« في هذه اللحظة أنت تمشي عليه ، يا سيد « أوريون » ، أمني على  
أرض منتزهك التي تمتد حتى مكسر المرفأ .

سألت العجوز « هانس » الذي كنت قد التقيت به خلف الفندق ،  
حيث كان يبدو أنه ينتظر احدا هناك :

— كيف حدث ذلك ؟

— تقصد كيف حدثت الكارثة ؟

كنت أريد أن أعرف كيف استطاعت الرياح أن تأتي على القرية  
بأكملها وتزيلها من الوجود .

— آه ! يا سيدي ، أنت لا تعرف شيئا عن الأعصار . فهو لا يعلن  
عن قدومه ، ولا أحد يشعر بشيء يدل على قرب حدوثه ، وكل ما هنالك  
أن الحرارة لا تكاد ترتفع قليلا ، أو بالأحرى ترتفع وطأة الضغط ، بحيث  
يكاد المرء يشعر بنقص في كمية الهواء التي يحتاجها ، بينما تبقى السماء  
هادئة وصافية ، وتسمع أصوات كقهقهة الضحكات ، ضحكات قوية  
تسمع دائما وباستمرار ثم ينفجر الأعصار . «

كأنت مينا العجوز تشمان من خلال أهله ، وحاجبيه الكثيفين ، لم  
يكن قد بقي كبير شيء من هذا الرجل الذي كان قد تلقى ضربة سكين من  
يد أحد الهنود والذي كان قد عمل في مقاومة الرمال المتحركة الى  
جانب « سول » .

تابع حديثه ، قائلا بصوت أجش :

« كان ذلك في عام ١٩٢٦ ، ومنذ ذلك الحين ، حدث اعصاران ،  
ولكن ذلك الاعصار ، الحقيقي ، الأبيض ، فقه لم يرجع . وعندما يرجع ،  
سوف ترى كيف انه لن يبقى على شيء هنا ، حتى ولا القبة ولا السهم .

صحت بأعلى صوتي .

— ولكن هذا غير معقول ، يا هانس ! كيف أمكن ألا يحاول أحد  
نبش البيوت والكنيسة وأخراجها من تحت التراب ؟ »

أحنى العجوز « هانس » رأسه ، وقال بصوت ضعيف :

« وكما تعلم . فان ذلك ليس مؤكدا تماما .

— وما هو ؟

— بأنه قد كان هنالك بيوت . أما بشأن الكنيسة ، فلم يعد أحد  
يتذكرها سواك .

— سواي ؟

مكثت ساكنا . فالكنيسة الكبيرة المبنية من الحجر الأبيض ظلت  
تشكل لديّ هاجسا طيلة عشرين عاما . وكان الخوري ، الأب  
« ايسبادا » يمنع قطع نباتات القصب والخيزران التي كانت تحيط بها  
والتي كان العشاق يلتقون ويتماتقون بينها . وكان يقول مؤكدا : « انها  
مسؤوليتي » . كنت أتخيل كنيسة وقد اكتنفها ضباب يتخلله الضياء .  
وقامة أمي النحيلة تعبر بهلوه بين شموع ومشاهل قاعة الكنيسة .

صرخت بأعلى صوتي :

« هانس ! أنا لست مفقلا . فامشارك الذي تتحدث عنه لم يكتف  
بدفن نصف الفندق ، فقد ذهب بشيء آخر زيادة على ذلك ، اذ انك  
تحدثت عن كارثة .

— أوه نعم ، أوه نعم ... لقد ذهب بالبيوت الخشبية ، ولكن  
البيوت الاسمنتية الجميلة التي كانت تزينها الزهور ، هذه البيوت ،  
كانت الرمال هي التي طمرتها . فالرمال ، ياسيد « أوريون » ، عندما  
تعصف الرياح ، أنت لا تعرفها ، ولا تعرف ماذا تستطيع أن تفعل ! ثم  
مازالت هنالك الكنيسة الأخرى : كنيسة المجنون .

كنت قد أمسكت ذراع الخادم المجوز وأخذت أشد عليه  
بقوة وفضب .

« ماهو المبلغ الذي يدفعونه لك لكي تلفق هذه الأكاذيب ؟

فذلك اليوم ، عندما وصلت أنا الى هنا كنت تصنع الجنون .  
وماهي كنيستك « الأخرى » التي تتحدث عنها ؟ »

التفت الى ناحية أخرى ، وقال :

« اني لا اكذب ، ياسيد « أوريون » . ولكن الذاكرة تضعف لدى  
من هم في مثل سني . وعلى سبيل المثال ، هل أعلم فيما اذا كنت  
أعرفك ، وحسب ؟ فقد كان يوجد هنا فتى فيما مضى ، هذا صحيح ،  
وكان ابن السيدة . لم يكن بدينا ، ولم يكن يلعب أبداً مع الأطفال  
الأخرين ، فيما عدا « أوليفيه » ، بائع البوظة الصغير . وكان يعاني في  
الليل من نوبات متكررة . فكانت السيدة تركض في ممرات المنزل لتغلي  
الماء . أما الفتى فكان يستمر في الصراخ . ولكن هل أعرف فيما اذا كان  
ذلك الفتى هو أنت ؟ »

فقدت عزيمتي وانتابني اليأس ، فتركت ذراع المجوز ، فعاد الى  
ممله في تنزيل حمولة إحدى العربات ، المكونة من المؤن والمواد الخفيفة  
التي كانت تنقلها من شواطئ « الجنوب » .



سرت بضغ حطوات باتجاه البحر ، كنت الساعة تقارب الثامنة مساء . تصاعدت موجة ضخمة نحوي وبتددت حول قلبي . كانت المياه شديدة الزرقة ، انحنيت على الشاطئ كي المسها . كان « هانس » يكذب ، وكذلك الصيدلي كان يكذب والخوري الذي تبعته بالأمس على الشاطئ كان يكذب أيضا . فالامر الذي كان يبدو ان الجميع يريدون احترامه والتقيده به هو التاكيد بان « أوريون – بلاج » لم يكن لها على الاطلاق أي وجود كمصيف ، وان فندقها لم يكن سوى نزلا غير مكتمل البناء ومغطى بكلمله تقريبا بالرمال على اثر امصار دون ان تنشأ أية قرية حول ذلك البناء الذي بني على كثران رملية غير لغنة .

كانت يداي تلعبان بربد المياه وتحفران الرمل . اصطدمت أصابعي بمقاومة احدى الأصدا ف . تلبستها الى ان أمسكتها بكل قواي لكي أمنعها من الفوص في البحر . كان هنالك من يراقبني . كان ذلك هو « هانس » الذي عاد نحوي . لماذا كان « سول » يستخدم هذا المعجوز الذي بلغ الثمانين من العمر على أقل تقدير ؟ لاستنني خيول العربية عند مرورها بقريتي . وذكّرني رنين أجراسها باستيقاظنا في زمن مضى : « مورينا » مرتدية فستانا من الكتان ، واقفة تحت أشعة الشمس ، تتلقى بعض باقات الترجس من يدي أحد الفلاحين . كلا ! لم يكن بإمكانني تصديق الرواية التي كانوا يحاولون فرضها على ذهني . فلذا كنت حقا قد أمضيت طفولتي دون الذهاب الى المدرسة ودون أن يكون لي رفاق في مثل سني ، فليس معنى ذلك اني لم اكبر وانزعج في قرية حقيقية ، بين بيوت حقيقية ، وكنت اتخيل نفسي وأنا أقوم بسرقة « عرق السوس » من عند السمان ، ومنصرف الى تأمل النساء الواقفات أمام الحوانيت !

صرخت بأعلى صوتي وأنا التفت نحو الرجل المسن الذي كان يقف ورائي : « هانس ! كيف يمكنك انكار وجود الكنيسة ؟ فانا أذكر تماما اني حضرت فيها القداس أكثر من مرة .

ـ ايه ! الجميع يذكرون انهم قد حضروا القداس ذات يوم ،  
فالكنيسة هنا ، هي لافيه ، فهي سقيفة مكنة في داخلها أناس مكنون .  
رجل مسن بثوبه العتيق وايقوناته القديمة على الملبح . لم يعد هنالك  
سوى عبوات الملبات وزجاجات الخمر القارفة .

تمت قائلا :

ـ اذن ، اذا كان الامر هكذا ، واذا كنت على صواب فيما تقول ،  
فماذا اصنع انا في هذا البلد ؟

لابد ان نظراتي كانت مخيفة ، لان « هانس » اطلق في الارض ،  
وابدى حركة تنم عن الجهل . كان الهواء في ذلك المساء ساكنا ، وأمواج  
البحر تقترب مني ، انتزعت حنة من الرمل وفركت بها خدي .  
بغضب شديد .

قل المجوز وهو يشد على ذراعي بأصابع كانت قد فارقتها  
الروح او كادت :

« لا ينبغي ، ياسيد « أوريون » ، لا ينبغي ان تفعل ذلك ، فانا  
أصدقك ، نعم اني اصدقك » .

- ١٢ -

بعد ان أخضعت خدام أمي الى استجواب مطول ، استجوبت  
سكانا آخرين من أهالي « أوريون » بعد أن تبعتهم عبر الكثبان الرملية .  
وهكلا فقد تحولت شيئا فشيئا الى شخص مهووس ، يتهرب منه  
الناس . كانت لحياتي ، عيناى الفائرتان في مجازهما ، والتجاعيد حول  
فمي ، كل ذلك يجعل وجهي مخيفا .

- ١٦٤ -

وذاذ مساء ، أثناء ذلك ، بينما كنت أسير بمحاذاة الشاطئ ،  
وأنا أدفع بقدمي موجات الماء الضعيفة ، اقترب مني شابان يحملان أدوات  
الصيد . وسلاني أحدهما بتمال :-

« أحقا ما يقال ؟ - هزيت رأسي وقد اعترتني الدهشة - أنك آل... »

- آل ... ماذا ؟

- آل ...

- هيا ، قلها ! »

بلغ الشاب ريقه .

« العين الشريرة . »

كان قد أطبق فمه ، وكانت عيناه متوهجتين كما لو أنه كان قد  
تجاسر على تحدي الشيطان . كان رفيقه يقف متمسكا بلذراعه منتظرا  
جوابي وهو يرتعد .

قلت : « نعم ، لم يكذبوا عليكما ، أنا العين الشريرة . » صمت  
مطبق أحاط بنا نحن الثلاثة . لاحظت أن الشابين اللذين اعترضا سبيلي  
كانا بنفس القدر ولهما العينان الزرقاوان نفساهما اللتان لا تعبران عن  
أية فكرة . لم يتحركا ، ثم بانطلاقة مفاجئة ، اندفعا هاربين بأقصى  
سرعة .

كلفت الشمس تنصب كبقعة الدم القرمزية على بحر هاديء ، لم  
تعد مياهه تنموج إلا على دفعات مفاجئة . ماذا آتيت ! صنع في منطقة  
لم يكن فيها شيء ولا أحد يجرؤ على التعرف عليّ ؟ وماذا كنت آمل من  
أناس أضاع صوابهم وعقلهم الخوف من سيدهم أو إعجابهم به ؟

و « أوليفيه » ، صديقي الوحيد ، لم يكن على رصيف المحطة عند وصولي الى « بوينوس ايريس » . وقيل لي بعد ذلك : « لقد مات قطارك الذي تتحدث عنه » ولم يعد الناس يقتربون مني الا وهم يسرون بخطوات بطيئة ومتردة كأنهم أشباح كل قصدهم دفعي الى الهرب .

ومع ذلك ، رغم المساوىء المختلفة لهذا الوضع ، فقد كان من الممكن أن أميش حياة تكاد تكون رغيدة في الكوخ الذي أسكنتني فيه « فاليري » قرب الحدود . لأنه كان بالنسبة لي مكانا زاخرا بالذكريات لكن ، ويا للأسف ! فإن الميل الذي شعرت به نحو الفتاة كان قد تبدد ، ولم يكن يعاودني الا بصورة متقطعة وتبعاً لبعض الظروف . كانت نوبات الحمى تعاودني ، وكنت أصلي من ضعف شديد دون أن أكن أدنى حب لاتقاض ماضٍ ظل يغذي حياتي طيلة عشرين سنة ، ولكنني بدأت الآن أشك فيه . كان الخوف من أن أرى نفسي وقد فقدت مبرر العيش والبقاء على قيد الحياة ، هذا الخوف وحده ، هو الذي كان يرغمني على متابعة تحقيق ، كنت أقوم بتنفيذه بمزيد من الهمة والنشاط . والشكل المادي للكنيسة الذي كنت أعتقد أنني ما زلت أذكره ، بدأ يفوتني ويفرب عن بالي . ولم أمد أستطيع تحديد موقعها في القرية ، مثلها في ذلك مثل البقالية ، ولم أكن احتفظ من خدماتها وقدايسها سوى طعم الخبز المقدس الحلو ورائحة الشمع . وبالتأكيد فاني قد بحثت كثيرا حولي عن آثار « مورينا » ، ولكنني لم أمثر لها على أي أثر .

لم يعد فندق « أوريون - بلاج » ، بقبته وحدائقه المقفرة ، يشكل سوى منظرا محزنا أمام أعين الروار ، أما قطعنا الحجارة اللتان كانتا عمودي المنتزه ، فلم يعد فيهما شيء من أبهة الماضي ، وعندما يحدث أن المسهما لدى مروري ، فلما يكون ذلك دائما بدافع من الشفقة .

ومع ذلك ، فقد عازمت على متابعة أكاذيب « سول » حتى النهاية، تلك الأكاذيب التي حاكها حولي والتي تهدد بخنقي . فقد كان كلام

صاحب الفندق واضحاً ومزيجاً : « خذ حذرک ، انه سيحظى بك ! »  
كان هنالك سؤال يراود ذهني : لماذا بنى « سول » مدينته الجديدة  
بجانب المدينة التي كان يرغب نسيانها ؟

رغم فترات التعب المتعددة التي كلفت تحتجزني في سريري  
المتواضع ، فاني لم اكن اهلي . كان رنين أجراس مربة « الجنوب » التي  
كانت تمر مرتين كل يوم قرب كوخني ، يحدث ضفوطاً مثيرة على  
أعصابي . ولكن لا الضعف ولا الاثارة توصلنا الى دفعي في متاهات  
الأسطورة . لقد كانت تساورني الشكوك ، وكنت أترجح بين فرضية  
وأخرى ولكنني كنت واضح الرؤية ، نافذ البصيرة . ومع فقدان ماضي  
لحقيقة مكوناته ، كانت كراهيتي ، على عكس ذلك ، تتأكد وتتثبت .  
لم أعد أحقد على « سول » . لانه طردني ، بل بسبب جريمة أشد  
خطورة ، هي جريمة تدميره صورة « مورينا » في أذهان الجميع .

ثم استيقظت ذات يوم وأنا اتسائل فجأة فيما اذا كانت « مورينا »  
قد ماتت فعلاً ، واذا لم تكن قسوة « هريديا » قد دفعتها الى اخفائها  
في مكان ما فتصبح بذلك كأنها مدفونة وهي حية ... وما هي تلك  
القصة عن الحيوان العفن الذي يرتدي اللباس الكهنوتي الذي تحدث  
عنه « هانس » ؟ ... فانا لم يسبق لي مطلقاً أن رأيته .

### - ١٣ -

لم أرجع الى الفندق ، وكانت رؤية البرجوازيين الذين تمتعوا  
بأشعة الشمس ، وهم عائدون من الشاطئ الرملي ، وعلى رؤوسهم  
قبعات من القماش ، تثير الاشمئزاز والقرف في نفسي ، كما أن فكرة  
الالتقاء بـ « جيروم و . آدامس » لم يكن فيها ما يغري .

وشيئاً فشيئاً أصبحت الكشبان الرملية مرتعي الوحيد . فقد كنت  
أجوبها ليلاً... وعند الظهيرة أيضاً ، وقد اعترتني الدهشة لشعوري  
بأنني كنت أمشي كما لو كنت حياً .



وكان يحدث لي أن أظن أنه ربما لم يكن لروائع « أوريون - بلاج » أي وجود إلا في مخيلتي عندما كنت طفلا جريحا وفي مخيلة مجنون كالعجوز « هانس » . ولو كان الأمر كذلك ، فلم يكن بإمكان « مورينا » أن تكون شيئا آخر ، في الواقع ، سوى هندية صغيرة تافهة لا تساوي شيئا ، ولكن هذه الفكرة كانت لا تطاق ولا يمكنني قبلها . كنت قد قبلت انحطاطها الأخلاقي ، إهمالها وزهدها ، ولكنني لن أستطيع مطلقا أنا الذي كنت قد وضعتها في موقع رفيع ، محاطة بكل المقاتن ، أن أقبل صورتها بملامح امرأة سوقية ومبتذلة .

كانت كراهيتي تشتد يوما بعد يوم ، واخذت تصبح مادة حارقة . وبعد قليل ، كان يصبح مستحيلا بالنسبة لي تصور شكل وجه أمي ، على سماء تزداد حركة واهتزازا . كانت سلطة مدوي على أراقتي قد بلغت حدا جعلت معه ، رغم كل جهودي ، شبح « مورينا » يتفتت وينهار ، دون أن يبدو لي بعد ذلك إلا بالشكل المخيب للآمال ، والمتمثل بفستان فارغ .

## - ١٤ -

كان الكوخ الذي أسكنتني فيه « فاليري » مبنيا على أعمدة . وكانت صورة كبيرة لـ « سول هيريديا » تشكل زينته الوحيدة . كانت الجدران المكونة من جدوع الأكاسيا تسمح بمرور الهواء البارد ، وكنت أشعر دائما ، في الليالي العاصفة ، أنني أميش في وسط البحر ، تحت رحمة أول نقطة يقدفني بها .

ولشدة انطوائي في عزلي ، كالناسك المنزوي في صومعته ، ولكوني كنت أبحث الخوف في قلوب المصطفين حالما كنت أظهر على قمة أحد الكشبان الرملية ، فقد انتهى بي الأمر إلى هدم محاولة أقامة أية علاقة مع أي كان ولم يطل بي الوقت حتى اكتشفت وقد انتلبتني

الدهشة ، أن للعزلة ميزاتنا و ثرائها . كانت الذكريات الأوربية تبثني  
عن ذاكرتي ، الفقر ، الشوارع ، صفرة الوجوه . كانت أهوال العالم  
تتلاشى دفعة واحدة أمام احمرار السماء ليلاً ، ورجع أمواج البحر  
الدثوث . وكان الفضاء العطير يشرح صدري . وإذا كنت ذكرى  
« مورينا » أخذت تفوتني لكي تعود فتصبح كلمة دون لب أو كيان ،  
فقد كن هنالك بالمقابل قوة مجهولة تجتاحني : تلك قوة الأغذية المطهرة  
التي تجردك من كل شيء وتبعث فيك التعجب والدهول .

لم تكن « فاليري آدامس » تتركني أحتاج شيئاً . كانت قليلة  
الكلام وكانت تحرص بشكل خاص على تأمين طعامي وعلى نظافة ملابسي  
وكل يوم كانت تأتيني بقميص مكوي تفوح منه رائحة عطر الخزامي .  
لم أكن ألقى عليها أية أسئلة لا عن علاقاتها العائلية ، ولا عن خطيبها  
الذي حدثني عنه والدها ، والذي ، على ما يبدو ، كنت قد التقيت  
به في المحطة . كنت أقبل ضيافة عشيقتي دون أن أبدي لها أي امتنان  
ورغم فتور الحرارة التي كانت تسود علاقاتنا ، فقد كنت واقفاً على  
الدوام أني سأجد الفتاة مستلقية على سريرتي عندما أعود الى كوشي .

كنت أقترب منها دون استعجال . كان جسمها المخملي رائماً .  
وحالاً كنت أقترب من السرير ، كانت تمسك بي وتجذبني نحوها .

وسألتني ذات مساء : « أنت تكره النساء ، اليس كذلك ؟ » ، ومرة  
أخرى ، عندما سألتها عن رأيها بـ « سول » ، أجابتني بحماسة : « أنه  
زعيم . »

— زعيم يضحني بالجميع في سبيل مجده الخاص .

— لماذا ؟ هل تعتقد أن الأمر لا يحتاج لمزيد من الشجاعة لكي يكون  
المرء غالباً ومنتصراً بدلاً من أن يكون ضحية ؟ وهل تعتقد أنه ليس هنالك  
بعض الراحة في الفقر ؟

كانت عزلتي أنا ، تزداد حدة مع الفراغ الذي كان يزداد اتساعا .  
وكنت اتقبل مداعبات المرأة مثلما كنت اتقبل الملابس ووجبات الطعام  
التي كانت تجلبها لي . كنت شخصا تعيسا يقوم بحركات القردة لكي  
يشعر بأنه موجود .

ومع ذلك ، فقد بدأ الفراغ يحدث تأثيره السحري . والشاطيء  
الذي كنت أقيم فيه كان قد أصبح جسدا عاريا وعملاقا كنت استسلم  
اليه . كانت أشعة الشمس تسليخ الأفق ولم يكن هنالك أبدا أية سفينة  
تأتي وتعكر هدوء البحر . وكنت أعيش موزعا بين سكoon مدينة مدفونة  
والصخب المتزايد الناجم من مدينة كانت تشاد خلف ظهري .

ان العزلة تتيح الحرية أحيانا ، وكان من الممكن أن أشعر أنني قد  
تخلصت من حزني لو لم يكن حضور « سول هيريديا » غير المنظور  
يشكل حاجسا يلاحقني على الدوام ، لقد كان السيد « آدامس »  
مصيبا : فقد كان يبدو أن كل شيء يذكر بهذا الرجل ، بدءا من الموسيقى  
التي كانت تنصاعد من دارات البلاج المجاور ، وحتى ضربات المطارق  
في البيوت التي كانت قيد البناء . ومهما حاولت أن أدير ظهري ، فلم  
يكن لذلك أية جدوى ، فقد كنت ، أنا أيضا ، أنتظر يوم التدشين الذي  
كان قد أعلن عنه ، حيث سترفع اللافتات التي تحمل عبارة : « بلاج  
المجائب » على كل امتداد الشاطيء .

كانت العربة تمر وتعود فتمر ثانية . كانت أجراسها تترك في الجو  
ضجيجا مزعجا يلاحقني طيلة النهار بل وحتى أثناء نومي . فقد كان  
يستحيل عليّ وأنا في كوخى العالي أن أمشي في العزلة والوحدة . فكل  
ما ينشأ حولي كان مشيرا . ولم أكن أنتمي الى عالم الأسطح الجديدة ،  
هذا ، بل الى عالم أسطح الجص والفساتين الموشاة بالبرق والترتر  
الذي لم يبق منه أي شاهد سوى عمودين مفروسين في الأرض .

كانت عزلتي أنا ، تزداد حدة مع الفراغ الذي كان يزداد اتساعا .  
وكنت اتقبل مداعبات المرأة مثلما كنت اتقبل الملابس ووجبات الطعام  
التي كانت تجلبها لي . كنت شخصا تعيسا يقوم بحركات القردة لكي  
يشعر بأنه موجود .

ومع ذلك ، فقد بدأ الفراغ يحدث تأثيره السحري . والشاطيء  
الذي كنت أقيم فيه كان قد أصبح جسدا عاريا وعملاقا كنت استسلم  
اليه . كانت أشعة الشمس تسليخ الأفق ولم يكن هنالك أبدا أية سفينة  
تأتي وتعكر هدوء البحر . وكنت أعيش موزعا بين سكون مدينة مدفونة  
والصخب المتزايد الناجم من مدينة كانت تشاد خلف ظهري .

ان العزلة تتيح الحرية أحيانا ، وكان من الممكن أن أشعر أنني قد  
تخلصت من حزني لو لم يكن حضور « سول هيريديا » غير المنظور  
يشكل هاجسا يلاحقني على الدوام ، لقد كان السيد « آدامس »  
مصيبا : فقد كان يبدو أن كل شيء يذكر بهذا الرجل ، بدءا من الموسيقى  
التي كانت تتصاعد من دارات البلاج المجاور ، وحتى ضربات المطارق  
في البيوت التي كانت قيد البناء . ومهما حاولت أن أدير ظهري ، فلم  
يكن لذلك أية جدوى ، فقد كنت ، أنا أيضا ، أنتظر يوم التدشين الذي  
كان قد أعلن عنه ، حيث سترفع الالفتات التي تحمل عبارة : « بلاج  
المجائب » على كل امتداد الشاطيء .

كانت العربة تمر وتعود فتمر ثانية . كانت أجراسها تترك في الجو  
ضجيجا مزعجا يلاحقني طيلة النهار بل وحتى أثناء نومي . فقد كان  
يستحيل عليّ وأنا في كوخى العالي أن أعيش في العزلة والوحدة . فكل  
ما ينشأ حولي كان مثيرا . ولم أكن أنتمي الى عالم الأسطح الجديدة ،  
هذا ، بل الى عالم أسطح الجص والفساتين الموشاة بالبرق والترتر  
الذي لم يبق منه أي شاهد سوى عمودين مفروسين في الأرض .

ومع تزايد ظهور الأشجار المورقة على الكثبان المجاورة ، كانت تتصاعد من أعماقي كراهية تزداد وضوحا . كنت مخلوقا كريها ومنفرا ، ولكن مسكونا .

و ذات مساء عندما عدت الى الكوخ ، لا بد أن « فاليري » قد لاحظت بريقا جديدا في عيني ، لأنها اقتربت مني وهي تحقق بي بشكل غريب . ثم سألتني :

« أما زالت لديك حقا الرغبة بالانتقام ؟ »

ولاني اخذت الامس خدما ملعبا بلا مبالاة ودون أن أجيب ، فقد اضافت قائلة :

« من الصعب ، كما تعلم ، الاستمرار في الكراهية حتى النهاية ! »

لم يكن في نظرتها قوتها وحزمها المعتادين .

وتابعت بصوت منخفض :

« الكراهية ، أنا امرقها . صدقني ، الحب أفضل . »

كانت تبدو وكأنها تترصد كلامي ، ولكنني لم أحر جوابا . فقد كنت لا مباليا الى أقصى حد بقلقها ، و قليل الاهتمام بأن تكون حليقة لي أو عدوة . فقد أتيت الى « أوريون » لاستعيد فيها طفولتي ، وقد نبذني الجميع كاني مصاب بالجذام . لذلك ، فلا شيء ، لا جسد تلك الفتاة ، ولا حتى فتنة وسحر السماء ، يمكن أن يمنعني من الأخذ بالثأر .

كانت الأيام تمر وتنقضي وهي تزيدني ثقة بأن مهمة مقدسة قد أسندت الي . لقد قضوا على القطار الصغير ، وعلى مكسر الميناء ، وعلى المنتزه . وشوّهوا جمال وسحر أمي ، ولكنهم لم يتوصلوا لأن



يجعلوا مني شبحاً عائداً من عالم الغيب . وكانت كراهيتي هي الدليل  
الملموس على وجودي . وشيئاً فشيئاً استعدت قواي وبعد فترة وجيزة  
أدركت أنه يوجد في كل مكان أشياء جميلة وأمور توفر السعادة للناس ،  
وأن كل ذرة رمل هي بالحقيقة إحدى الأصداف الصغيرة ، وأن قوائم  
الطيور البحرية تترك على الشاطئ رسوماً تشبه أوراق الشجر ، وأن  
العرائش التي كانت تنتشر على الكثبان كل لها شفافية العقيق الأحمر .  
والكثبان الرملية نفسها بدأت تتخذ ، بالنسبة لي ملامح وأشكال  
الأضرحة المقدسة .

وفي وقت القيلولة ، عندما يختبئ كل الناس في « أوريون » ، من  
حرارة الشمس داخل الفندق الكريه الذي كان السهم فوق قبته يبدو  
كأنه يمثل تحدياً بين أشجار البلح ، كنت أنا ، أسير متنزهاً على الشاطئ  
الرملية .

لم أكن أرى كثيراً المعجوز « هانس » ، كان يبدو وكأنه قد تبخر  
في الهواء . كان يمر أحياناً أمامي دون أن يعرفني ، وفي صباح أحد  
الأيام ، لمحت فوق أحد المرتفعات قمة الأستلا « جوتمان » النحيلة .  
كان يبدو سعيداً . وكان أنفه البارز يستنشق الهواء بلذة . وجه لي  
من عينه فمزة ذات مفزى ، وصاح بي ، قائلاً :

« كيف يمكن القول أن هذا البلد لا رائحة له ؟ ... إيه ! إن هذا  
كلام أخرق وغير معقول ، إذ أن فيه أندراً وألماً رائحة : ألا وهي رائحة  
الفضاء الرحب . »

ثم أضاف قائلاً ، بلهجة تنم عن اللوم والتقريع : « أصبح حدوث  
الاعصار وشيكاً ، أنه يجعلنا ننتظره ولكنه سيكون جميلاً . »

وذاًت ليلة ، أدركت ، بسبب الهدوء النفسي الذي كنت أنعم به ،  
أن ما كان يشكل غداً لي الوحيد طيلة ثلاثين سنة : وهو صورة

« موريثا » ، كان قد اختفي نهائيا ، ليس من حياتي وحسب ، بل ومن جسمي أيضا . وحالما عدت الى كوكبي ، تأملت نفسي في المرآة ، فهالني فراغ وجهي وخلوه من أية تعابير . كان واضحا أن هناك شيئا قد أفلت مني دون علمي ، وبكل توثدة وبطء لدرجة أنني لم أشعر بذلك إلا في هذا المساء . خشيت من أن يكون الأمر يتعلق بمضو أساسي ، وأخذت أرتجف خوفا من بقائي بلا ذكريات ولا رغبات . ولكن ، لحسن الحظ ، لاحظت بمزيد من السرعة أنني كنت أتنفس ، وأن « عربة » سول « للمرة الأولى ، كانت تمر تحت نافذتي دون أن تسبب لي أي إثارة أو انزعاج .

لقد بدا لي فجأة اشراق تلك الأرض البور الواسعة أكثر قوة ووضوحا من المعتاد . كنت حرا ومنتشيا بتأثير ذلك الضياء . انبعث صراخ من حلقي ، كان هناك أطفال يلعبون على الرمل ، لم تزعجني اصواتهم المرحية .

دخلت « فاليري » الى الكوخ . ربت بعض الأشياء على المنضدة وخطمت ملابسها . خطمت ملابسها أنا أيضا واستلقيت بجانبها .

سألته الفتاة وهي تضع يدها الباردة على ذراعي :

« ماذا يحدث ؟ قلت : انظري الي » ، تأمليني جيدا ! » .

كانت قد تراجعمت نحو الجدار . صرخت :

« كلا ، كلا ليس بعد » .

أمسكت فخذيهما المنطويين ، وجذبتهما نحوي . للمرة الأولى منذ أن عايشته « فاليري » ، شعرت بالرغبة بأن أضاجعهما وأن أبقى ملتصقا بهما .

تابعت قائلاً بهذوء ولطف :

« إني على استعداد » .

- ١٥ -

منذ أن دخل الكوخ ، عرفته من وجهه النحيل .

قلت له : « كنت أعرف أنك ستأتي » .

وجه لي الشاب عينيْن كان جفناهما يبدوان مشلولين .

سألني دون مقدمات : « هل هي سعيدة ؟ » .

شعرت بانتفاضة تعتريني .

« لا أعرف عن ذلك شيئاً » .

- ألم تلق على نفسك هذا السؤال أبداً ؟

- كلا .

- إني أرثي لك » .

ساد صمت طال أمده . كنت خلاله أحلول استعادة رباطة جأشي .  
كان الزائر قد رفض الجلوس على الكرسي الذي قدمته له وأرغمني بذلك  
على البقاء مرتبكاً وواقفاً أمامه في وسط الغرفة .

« إننا ، أنا و « فاليري » لم نوقع أو نتفق على شيء . وإحवाल  
مراجها تخصها وحدها » .

- ١٧٥ -

لو استمر محدثي بمراقبتي بهذا الشكل ، فاني لن أستطيع تحمل  
نظراته طويلة .

اخيرا قال : « غدا ، سيدشن بلاج « سول » .

— وقد أتيت لإبلاغي ذلك ؟

— ربما .

كانت عينا الرجل الصافيتان جاحظتين تماما . ولم يرف  
جفناهما أبدا .

أضاف قائلا :

« اتعرف ما هو الاسم الذي اختلعه لمشروعه ؟

— إن هذا يبعث على السخرية .

— إنك مخطيء .

ماذا كان يريد ؟ وما هو الدافع لقيامه بهذه الزيارة ؟

كان الجو مثقلا جدا في الغرفة وكنت أرقب بفتح النافذة ، ولكن  
نظراته الجامدة سمرتني في مكاني . لم ترجع « فاليري » وقد بدأت  
أشعر بالانزعاج لغيابها . اقترب الشاب مني .

« لقد وافقت « سول » في كفاحه ضد الرمال ، امرأة . وهذه  
المرأة شجعتة وأمانته على عدم التخلي ... » .

بدرت مني ضحكة خفيفة .

تابع الرجل : « لقد مات ، وسيطلق « سول » اسمها على  
مشروعه » .

شعرت برغبة تتأبني . ما هذه السخرية ؟ لا يمكن ان يكون هذا المجهول يجهل بأنني كنت مطلقاً على كل شيء ، وأنني كنت أعرف تماماً الدور الذي قامت به أمي في حياة ذلك السيد .

أضاف الرجل وكأنه بذلك يتجاوب مع افكاري :

« لقد كانت قديسة .

— قديسة ! » .

التفت نحوه فجأة . لقد تمادى هذه المرة . صرخت به :  
« كل هذا لا يهمني بشيء ، فأنا أهتم بما يعنيني وانصحك بأن تفعل مثلي » .

تنهد الشاب وداعب قفا حذائه بطرف سوطه ، ثم اقترب من النافذة وفتحها على مصراعيها ، وقال لي :

« انظر ! » .

الى يسارنا ، وعلى بعد كيلو مترين ، كان البلاج مضاءً ، تتلألأ فيه الأنوار كما في الأعياد الشعبية . وكان مكسره الكبير الممتد داخل مياه البحر يفض بالمتفرجين والقضوليين . وكانت الحان الموسيقى تبلغ مسامعنا . كانت قد هبت الرياح وأخذت تلفح قوائم حصان كان يسير بمحاذاة الشاطئ . وبدأت فهقهات الضحك تتعالى من أفواه ذلك الجمهور المحتشد . كنت أجد صعوبة في التنفس . كان كل شيء يتدافع مسرعاً بشكل مفاجيء كما لو أنه كان على أحدهم أن ينهي حياته مهما كان الثمن . خطوات خطوة نحو الباب ولكن شيئاً ما سمرني في مكاني . كانت تلك ضحكة قادمة من جهة البحر ، ضحكة لا يمكن ثقلها . ثم ساد الصمت . أغلقت النافذة بفضب شديد .





ينهمر بفزارة علي الكتبان الرملية . كانت الأشجار تلتوي وقد أغمضت  
عيني لأحمي بصري . لقد كان هذا الشاب مجنوناً ، فلا أحد يستطيع  
حماية نفسه من الأعصار . وكان هو يعرف ذلك جيداً . فقد كان ابن  
المنطقة ، بل ويبدو أنه كان يتمتع ببعض صفات المراقين . صحت  
عالياً : « هيه .. هيه .. ارجع .. لكن زائري لم يجبنني ، فقد ابتلمته  
العاصفة ، والرياح . أغلقت باب الكوخ وحسبت فيه صراخي .

وحالاً أصبحت وحيداً ، انتابني من جديد احساس بآني في عرض  
البحر ، تحت رحمة العاصفة ، وأكاد أحسد زائري لأنه يملك حصاناً  
يستطيع بواسطته النجاة من المنطقة المهددة . كان ضجيج الرياح قد  
أصبح يصم الأذان . انهار غصن شجرة أو كاليبتوس على زجاج نافذتي  
وحطمه . واهتزت صورة « سول » وسقطت قرب الضريح . كان المطر  
يقرع الجدران الخشبية . والمياه تنساقط بكتل كثيفة ، والصراخ  
يتعالى من البلاج :

« كان المعجوز « هانس » قد قال : لا أحد يشعر بشيء ، فالسما  
تكون صافية وهادئة تماماً . وتسمع بعض القهقهات ، ثم الأعصار ،  
الأبيض ، ينفجر ! »

سقف كوشي سينهار غداً قليل ، تزاجعت حتى التصقت بالجدار  
وبينما كنت أمد ذراعي لتجنب الإصابة بقطعة من جسر كان يسقط  
من السقف ، كان الدم يسيل من جرحي ولم أكن أشعر بأي ألم بسبب  
ذلك ، كان لدي فقط احساس مزعج بالوحدة . نجحت بالتخلص من  
الجسر الذي كان يحتجز كتفي ووصلت إلى سريرتي زحفاً على ركبتي .

عما قريب سينتهي كل شيء ، سينتهي تماماً . والكتبان وهي غير  
ثابتة أخذت تتفتت وتنهار . ومني أنا ، ربما لن يبقى سوى كتلة غير  
معروفة يمكن أن تذهب فتندمج إلى ما تبقى من حطام الفندق . أما  
« سول » ، من جهته ، فكلفت تحديه لئلا له العلية وجدرانها المتينة .

وغدا سوف يستطيع تدشين مدينته . بينما يكون عدوه ملقى في مياه  
مجهولة وقد فارق الحياة .

وسوف يقول الدين يرون قطع الخشب المنتصبه فوق الرمال :  
« هذه بقايا الكوخ الذي كان مبنيا على اعمدة » .

وبينما كنت ألقوى على سرير لم يكن قد بقي منه سوى فراش من  
القش لا شكل له ، شعرت فجأة بفضلاتي تتمدد وقلبي يهدأ روعه  
هندما راودتني فكرة مؤداها أن كل شيء يوشك أن ينتهي ، وأني ، حتما  
سأصبح جزءا من عالم مدفون وأني ، لن يكون علي غدا أن أبفض أحدا .

ولكن ماذا كانت تعني زيارة خطيب « فاليري » المزعوم ؟ قبل  
رحيله ، كان يجب عليّ أن أفهم ذلك ، ولكن المياه التي كثت تتدفق من  
شقوق الخشب كانت تمنعني من التفكير .

لماذا أرسل لي « سول » هذا الشاب ذا العينين الخجولتين ، ولماذا  
كان ذلك في هذا المساء بالذات اللهي كان ينقض فيه الأعصار علينا ؟  
وماذا كان يقصد من القائه في ذهني ، على لسان هذا الملاك السيء اسم  
أمي ؟ تلك « الهندية التافهة » التي لا تساوي شيئا « سوف تصبح هراة  
« بلاج العجائب » وسيكتب اسمها بأحرف كبيرة على جدران وأبواب  
القبيلات ، على حد قوله . كان ذلك مضحكا ، وفضلا ، ويبحث على  
السخرية . كنت أعمل كمعتوه ، أو كاني متخلف عقليا . كانوا يسحقونني  
ملوحين أمامي بصورة أمي متنكرة في زي العلواء ! لم يكن هنالك أي شك ،  
فقد كان « سول » يتوقع الأعصار ، إذن الأستاذ « جوتمان » لابد أنه  
قد أطلعه على ذلك ، وقد أرسل لي موفدا ليوقف يدي عن العمل . يا له  
من مغفل ! كيف استطاع أن يصدق أنني ساقع في الفخ ؟

كان رأسي يتقلب ويتدحرج على المخدة ، لقد كان « سول » يعرف  
ماذا يفعل . كراهيتي ، كراهيتي المسكينة لم تعد تستند الا على خيط

رفيع . فبعد أن تغلّدت بالسهرات ، والفثيانات ، وبالرغبات التي لا يمكن الاعتراف بها ، فاتها لم تعد سوى دفق طويل أحمر كان يخرج من جرح في كتفي فيبيل فراشي المحشي بالقش الذي كان قد بلله المطر ومياه البحر .

هزّنتني فجأة ضحكة قوية ، ضحكة طفل ضخّم الحثة كلن على وشك البكاء . كان « سول » يعرفني ، ويعرفني جيدا ويدرك القلق الذي كان ينتابني دائما من ذكر أمي . وقد كان لديه أيضا حسّ بالمواقف المسرحية وميل إليها . كان الأعصار سينهي دفن « أوريون - بلاج » وغمل شبابه ، وحالا يموت كل ذلك ويموت تماما ، سوف يستطيع أن يدشن بأمان واطمئنان « بلاج المجائب » المائد له .

والبحر لشدة صغبه واضطرابه كان يبلغ السماء التي لم تعد سوى خطا أرجوانيا . ولكي يستجمع قواه ، كان يتراجع جارفا معه جذوع الأشجار .

« بيوت باكملها قد اختفت ، يا سيد أوريون ! »

ولكن زائري ماذا حدث له ؟ ان أي فتى من أبناء المنطقة لا يمكن أن يجهل أن الأعصار كان على أهبة العدوّ . فلماذا خاطر إذن بالحضور إلى مندي ؟ ولماذا أطاع سيده ؟ ومن اللبي أبلغ « سول » أنني كنت متهيأاً كانت الأفكار تزدحم وتختلط في ذهني وقد فقدت طريقي في اللحظة التي كنت أوشك أن أجد فيها جواباً لأحد تساؤلاتي . كان لدي انطباع بأنني سقطت في شبكة ملأى بالأسماك وأن علي أن اتخبط بين أجسامها اللزجة . ومع ذلك فقد تبادرت فجأة إلى ذهني فكرة أكثر وضوحاً من الأفكار الأخرى : ان هذا الفتى ذا الوجه النحيل والعينين الברاقنتين كان قد جازف بحياته لينقذ حياة « سول هيرديا » ، كنت أعتبر ذلك بديهياً تماماً ! ولكن لماذا ؟ لماذا كان ذلك بديهياً تماماً ؟ أمسكت رأسي بكلتا يدي . كان يطفو من جديد ، من موجة إلى أخرى ، بمفرده ، وقد انفصل عن جسمي . وفجأة ، راودني شعور من الأمل ، وهكذا فبقا



تذكرت ان البحر ، يوم وصولي ، كان قد غمر بمياهه جسمي بكامله  
ودحرجني على الرمال ليخلصني من كوابيسي ومن الأحلام المرعبة التي  
كانت تفتلني .

صرخت بأعلى صوتي : « فاليري ! » ، ولكن « فاليري » كانت  
بعيدة ، بل بعيدة جدا عني . وان تجاوزت بحياتها لتنقل حياتي ، كلا ،  
بالتأكيد لن يحدث ذلك . انها ستسلمني الى « سول » ، كما كانت قد  
سلمتني له - « مورينا » . أين كانت اذن « فاليري » ؟ صحت بأعلى  
صوتي : « فاليري ! » . كان قد طار قبسم من سقف كوشي في الهوام .  
وعلى الأرض ، كانت صورة « سول » تشكل بقعة مستطيلة . كنت  
مبتلا من رأسي الى أخمص قدمي ولم أعد أشكل سوى كتلة واحدة مع  
مزيري . كانت مياه البحر التي ازدادت كثافتها بما تحمل من رمال ،  
تدفع نحوي بقوة فيصلني بمض رذاذها . كنت « فاليري » محقة  
بقيامها بخيالاتي ، وبمراقبتي ورصد حركاتي ليلة بعد أخرى ،  
وبتسليمي الى عشيقها . فقد كانت من النوع الذي يعمل ويتصرف ،  
بينما أنا ، لم أكن شيئا ، لم أكن شيئا على الإطلاق ، حتى ولا رجلا عاديا .

كان البحر يتعالى باستمرار فافرا قمه . وكانت أمهدة وجسور  
الأسطحة تنهار . وكانت الثفرة التي فتحت في الجدار ترددات اتساعا  
تحت نظري . « فاليري » ! . . . « فاليري » ! كنت أشعر بالحاجة الماسة  
لكتف امرأة أسند عليه رأسي وأنا ألفظ أنفاسي الأخيرة ، وبالحاجة الى  
انقاس امرأة تتردد بالقرب مني . نهضت باذلا جهدا آخر ، ولكن كل  
مناقل الفرقة كانت مغلقة ولم أستطع رؤية شيء . « فاليري » ! حتى  
ولا الضياء الذي تحدثه الصاعقة ، « فاليري » ! . . . كلا ، لا شيء سوى  
الدم والماء .

- ١٦ -

عندما أدركت أنه قد أصبح الصباح ، كانت ابنة « جيروم و . آدامس »  
بجانبني .

- ١٨٢ -



قلت: « لاهثا : » هذه أنت ؟

قالت : - نعم ، لقد انتهى كل شيء . »

كانت الفتاة قد ضمدت جراحي أثناء نومي .  
سألتني وهي تلامس جبيني برفق :  
« انك لم تنزف طويلا ، أليس كذلك ؟

- ليس منذ طفولتي ، وأنا بالحقيقة لا أشعر بأي ألم . »

كلفت « فاليري » وهي تستند عليّ تبدو حارة وجافة : « فقد عفا  
منها الأعصار ونجت منه . ولماذا حدث ذلك ؟ وأنا ، ماذا كنت أعمل بين  
بقايا وحطام كوكبي ، وأنا حي ؟

« لماذا رجعت ؟ »

رفعت رأسها ووجهت نحوي عيني متوهجتين ، ثم بحركة طفولية ،  
خبات فمها في صدري .

تمتت قائلة : « لأن ... لأن ... »

- وخطيبك ؟

- لا يهمني كثيرا .

- و « سول » ؟

- « أسكت . »

أبرزت وجهها ومرت بشفتيها على عيني . ثم ، بعد أن تمددت على  
سريري ، وألصقت بطنها ببطني ، ضمتني بين ذراعيها وأخذت تنادينني  
كما لم تفعل ذلك من قبل أبدا .

بعد بضع لحظات ، عندما انفصلت عني ، فتحت « فاليري » عينيها  
ثم أقمضتهما في الحال وارتمت على ظهرها دون أن تنبس ببنت شفة .  
كان عنقها ونهداها مبقعين بالدم .

قلت بصوت خافت : « شكرا » . فلم تجب بشيء .

سألتها ، لماذا ما زلت حيا ؟

— الكوخ مبني على أعمدة . ولذلك أسكنتك فيه .

— ولكن ماذا حدث ؟

— إصصار .

— وماذا عن الفندق ؟

لم تجب على سؤالي .

سألتها : هل ستريني ماذا بقي من « أوريون — بلاج » ؟

همست بالجواب : — نعم . «

ودون أن تنفصل عني ، ساعدتني الفتاة على النهوض ، ودهشت  
لعدم شعوري عند ذلك بأي تعب أو انزعاج رغم وجود الجرح في كتفي .  
خرجنا متشابكين دون أن يكون بنا حاجة لفتح الباب ، لأنه لم يكن قد بقي  
من كوينا المبني على أعمدة سوى بعض الجوانب التي قاومت الإصصار ،  
فظلت منفردة في أرض لا يمكن تبين معالمها . كانت صورة « سول » قد  
اختفت ، ولم يبق من أشجار الكينا الضخمة التي كانت خلف البيت  
سوى الحطام .

كان الشاطئ يفض باناس ملعورين يترافضون في كل الاتجاهات  
كان كل منهم يمسك بالآخر كالفرقى . كنت انا و « فاليري » نسير باتجاه  
الفندق . لم تكن قد بقيت شجرة سليمة بعد الكارثة ولاحظت قلبي  
منقبض ، ان العمودين الهجريين اللذين كنت المسهما عند مروري لم يعودا  
في مكانهما . وعلى شاكلتهما ، دون شك ، كان قد دفن قطاري ، قصري  
وكنيستى . كنا نمشي صامتين ، كما لو كنا في حرم كاتدرائية . وفي نهاية  
ما كان يشكل سابقا ممشى اشجار النخيل ، الكبير ، كان هنالك كثيب  
اكثر ارتفاعا من الكثبان الاخرى ، يتلالا في الصباح ، بعد ان جفقت اولى  
اشعة الشمس ، في ذلك اليوم . وكثيب مسطح يخترقه سهم من التوتياء .

كان هنالك اناس من كل الاجناس ، ومن كل الامم ، يرتدون قمصان  
النوم ، او الملابس الملونة الغريبة الشكل ، يسرون جيئة وذهابا ، وتبدل  
منهم حركات تنم عن الياس ، متجولين على تلك الارض التي تعرت من  
كل شيء . كانوا يحيطون ، بكل بلاهة ، بوالد « فاليري » الذي كان يقف  
ساكنا ، لا يبدي حراكا امام حطام ما كان ملكيته فيما مضى .

الا وهو فندق « اوريون - بلاج » !

اقترب منا رجل طويل القامة ، على راسه قبعة صفراء بيضاء .  
وقال :

« انه مدهش ... الا ترونه هكذا ؟ لقد رايت واحدا بمثل جماله  
في استراليا ، منذ خمسة عشر عاما على الاقل ، ولكن منذ ذلك الحين  
لم ار مثله ابدا ، حتى كدت اياس ، ولا بد من القول انه جعلنا ننتظر  
طويلا ، ولكن اخيرا يا لروعتي ! واردف يقول فجأة : « ولكن ، ارجو  
المعذرة ، انكما عاشقان ، على ما يبدو لي ، فماذا تهكما الاعاضير ؟ ويكون  
لديكما دائما الوقت للنظر والتطلع عندما لم يعد ينظر اليكما احد . »

حول انظاره عنا . وكانت نظارته ترتعش من وقت الى آخر على  
انفقه الكبير .

قال فجأة بلهجة المسارة : « آه ! كدت أنسى هذا المساء ، سيتم  
تدشين بلاج « العجائب » .. هل تظلمان ماذا سيسجونه ؟ « مورينا مار » ،  
أنيس اسما جميلا ؟ « مورينا » هو اسم المرأة التي كانت رفيقة السيدة  
« هيريديا » . قديسة ، على ما قيل لي . انها ... »

لم أكن أصفي اليه بعد ذلك ، فقد سحقتني كلام الأستاذ ، وسحقتني  
قوة كانت تتجولزني الى أن تجعلني أغوص في قرارة كياني الذي لم يكن  
قد توصل حتي الى الدوبان والانحلال في العاصفة .

كانت « فاليري » تضطر لأن تسندني كي أستطيع الوصول الى  
شاطئ البحر . لم يكن رأسي قد أصبح سوى كتلة متقلصة ، تمكث بشكل  
ما على عنقي .

لم تكن الفتاة تنس ببت شفة ، وكانت تشد على يدي بكتا يديها .  
وكنت أعلم أنه لم يعد علي سوى أن أبعها لكي تتبعيني هي أيضا الى أي  
مكان كان . كنت أصر أنها كانت راضية عني ، واني ألقى القبول لديها  
مع كل بؤس وشقائي . كان الألم الذي أحسه مضنيا شديدا الوطاة . كان  
كل شيء يفوتني ويغرب عن بالي ، حتى الكراهية ، الكراهية الطبقية التي  
تفلت ونمت طيلة عشرين سنة . كان كل شيء يفوتني تحت وطأة ارادة  
رجل قوي كان قد ابتكر وسيلة لا يقاوم ذراعي بوضعه وجه أمي في مزود  
العبلراء .

كان رجوع مياه البحر مستمرا ، كانت تلك المياه خفيفة ونظيفة على  
شاطئ تنتشر عليه أغصان الأشجار والأسماك الميتة . كانت بعض بقايا  
المظلات ترتفع كاستغاثات الفرقى في وسط البلاج . كان السكون الذي  
يلي الكوارث الكبرى يتسم بما يشبه الاحتفالات القدسية ، التي كانت  
تفرض إيقاعها على خطواتي . وشعرت من جديد ، أني أسير في حرم  
كاتدرائية .. كانت يد بضمة تغمر يدي بالدفع .. ودون أن نشعر بذلك ،  
كنت أنا و « فاليري » قد اجتزنا الحدود وكدنا نصبح في أرض معادية .

لم تقو خيام « بلاج المعائب » على مقاومة الامصار ، ولكن القيلات  
ظلت قائمة ، تبدو من خلال اشجار الصنوبر التي تحيط بها . كان  
هناك قرويون مزودون بالمحامل والرفوش يحفرون الرمال التي تجمعت  
اثناء الليل امام الابواب ، ويلقونها على الشاطئ . وهنا ، كانت الشوارع  
قد خططت بدقة وشقت بين المنازل . والكثبان لم تكن اكواما من الرمل  
الخام كما في « اوريون » ، بل روابي وتلال جميلة ، زرعت بالحشائش  
والاعشاب الانكليزية .

مر من امامنا فتى يمتطي حصانا دون سرج ، واخذ يصرخ بأعلى  
صوته : « الى الامام ايها الجنود ، اتبعوا الريشة التي تزين راسي !  
وكما لو ان الاضواء قد جذبتنا ، فقد لحقنا انا و « فاليري » الفتى الذي  
شجعنا وفتح لنا الطريق . ولكنه ويا للأسف ! كان قد اختفى بسرعة  
كبيرة في ممشى تحيط بها اشجار الزيزفون .

سرنا بمحاذاة منازل فخمة وصالون لتقديم الشاي ، وحقوق  
لبيع الخردوات الاميركية . واجتزنا احراجا صغيرة تفوح من خلالها  
رائحة العطر . رأينا نباتات كمنافض الريش العملاقة تنبثق من الرمل ،  
وبعد قليل ، بينما كنا تكاد نضيع في ممشى تكتنفه شجيرات الورد ، لحنا  
قصر « سول هيريديا » منتصبا على قمة رابية تطل على الشاطئ .

كانت قطعة قماش ، ذات لون ملكي ، لون البحر والفضب ،  
معلقة على الشرفة وقد عرفت انها الوشاح الاسباني الذي كانت « مورينا »  
ترتديه في امسيات الاستقبال .

في الحديقة التي تنحدر نحو الشاطئ ، عرفت ايضا سرير طفولتي  
الذي كانت امي تحب ان تملأه بالزهور لتثير دهشة صديقاتها . كان  
هناك رجل ، اعتقدت اني تبينت فيه ملامح العجوز « هانس » ، كان  
منهمكا بتجديد تواب الحديقة بما يلقيه فيها برفشه الصغير . قرأت



على باب الحديقة هاتين الكلمتين : « فيلا مورينا » مكتوبتين بحروف  
برونزية صقلت ولعت حديثا :

قال البستاني ، وهو يلتفت نحوي بوجهه المجهول : « نعم ،  
يا سيدي ، ستدشن هذه القرية مساء اليوم ، وسيطلق عليها اسم :  
« مورينا مار » . و « مورينا » هو اسم قديسة » . ثم أضاف وهو  
يلتفت نحو رفيقتي :

« آنسة فاليري ، ألا تدخلين في هذا الصباح ، فالسيد موجود  
وحده » . ولكن الفتاة أشاحت بوجهها عنه دون أن تجيب .

عند نهاية « بلاج العجائب » ، ونهاية حدائقه وتلاله ، البتي لم يكد  
الاعصار يمسها بسوء ، كانت تمتد الصحراء . تلك الصحراء التي لم  
أجروء على الاقتراب منها منذ طفولتي والتي احتفظ لها بذكرى غامضة  
ومثيرة متمثلة ببطن كبير لاحدى النساء . على الشاطئ ، وقرب هيكل  
احدى السفن ، كان الفتى الذي اعتبر نفسه جنديا ، يلعب لعبة المسكر ،  
قد ترك حصانه واستسلم للنوم .

قالت « فاليري » : « لنتوقف هنا » ، فطعمتها وأخذت أفك أزرار  
قميصي . نزعفت الفتاة صدريتها وبعد ثوان معدودة تخلّصت من لباس  
البحر ( المايو ) وألقته بعيدا . كان الماء عند أقدامنا هادئا يكاد لا يتحرك  
إلا بدفعات خفيفة . لففت ذراعي حول قامة رفيقتي العارية وارتمينا  
في أحضان البحر .

فطست في الماء الذي مكرته العاصفة ، دون أن ألتفت بكلمة  
كانت « فاليري » تتبعني ملتفة بي . لم يسبق لنا أبدا أن سبحنا سوية .  
كانت يداها الناعمتان كقشر الأسماك تلمسانى وتتحسسان جسمي .  
وعندما اندفعت عبر التيارات ، ظل ساقاها ملتفتين حول ساقى .

وعلى الشاطئ ، كان الفتى قد استيقظ وأخذ يبحث عنا بنظريه .  
وحالاً لحنا ، ألقى بنفسه في الماء وحاول أن يلحق بالجسم الوحيد  
المتحرك الذي كنا ، أنا و « فاليري » ، نكونه ، وأن يستولي عليه . ولكنه  
تعب بسرعة وملّ من لعبته فتخلى عنها وذهب فجلس على الرمل .

كانت برودة الماء منمشة . ولم يعد لـ « فاليري » وزن ، أو ثقل .  
كنت أشعر أنها قد تخطت من الدفء من نفسها ، وأنها لن تكون أبداً بعد  
الآن إلا كما تمنيتها أن تكون : مطوأة ، عذبة ومشوقة القامة ، وكما لو  
كانت تريد أن تؤكد لي انصياعها وخضوعها ، كلت تلتفت بي ثم تبتعد ،  
متجاوبة مع أدنى ضغط من يدي أو من ساقي .

كنت أشعر بحرق في كتفي الأيسر يجعلني أقطب حاجبي . كان  
ذلك هو الجرح الذي أصبت به في الليل وقد امتلأ بالملح . والفتى ، بعد  
أن ملّ من مراقبتنا ، قهقه ضاحكا وغادرنا .

لم يكن يعكر هدوء الشاطئ سوى رجوع الأمواج . خرجنا من الماء  
وفي الحال استولى علينا خمول الظهيرة .

صحت بكل قواي : « كلا ! لا أريد أن أنام ثقية بعد الآن أبداً » .

بريق ينم عن البهجة بالنصر وسّع حدقتي « فاليري » ، فأخذت تركض  
كما فعل الفتى الذي كان يلاحقنا . كان شعرها متدلّيا على ظهرها ،  
ويلامس خصرها . كان نهذاها منتصبين تحت أشعة الشمس . أردت  
أن أمسكها ، ولكنها أفلتت مني ومادت إلى الماء ، أخافت إحدى  
المحارات ، أفرقتها والتهمتها . ثم حفرت في الرمل لتستخرج منه  
أصدافاً أخرى . كان فخلها يلعبان ، وساقاها كانا حارين . عندما  
انحنيت عليها شعرت أن جرحي قد انفتح ، ورغم الألم الذي شعرت  
به عند ذلك ، بسطت ذراعي لأمنع « فاليري » من العودة إلى البحر ،  
ولكنها ، مرة أخرى ، تسللت من بين أصابعي .

عندما خرجت من الماء ، كان وجهها شاحبا جدا ، وقد انبسطت  
اساورها عن ابتسامة . وقفت قبالة الشمس ثم تمددت على ظهرها  
متخذة وضعية من يتعرض للتعذيب : الساقان متباعدتان والذراعان  
متشابكان على الصلح .

كنت انا ، هذه المرة ، الذي تقدمت نحوها ، وبعد أن لامستها  
وداعبتها مطولا ، فطيت بجسمي كامل جسمها .



# الفهرس

|     |                                  |
|-----|----------------------------------|
| ٧   | الزوجان                          |
| ١٩  | الدسكرة أو القرية الصغيرة        |
| ٥٢  | السيدة القصيرة ذات الرداء الأسود |
| ٦٧  | الفصد والنزيف                    |
| ٧٥  | الاطار اللائري                   |
| ٨١  | لعبة الخوف                       |
| ١١٢ | الابواب المؤدية الى الرمال       |

۱۹۹۲/۱۱/۱۷ ۲۰۰۰







